الفنون البديعية

في دائرة البحث البلاغي

تأليف

دكتور فوزي السيد عبد ربه عيد

أستاذ البلاغة والنقد المساعد

بكلية الدراسات الإسلامية والعربية

جامعة الأزهر

الطبعة الأولى

١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م

مطبعة الحسين الاسلامية

٢٥ - حارة المدرسة - خلف الجامع الأزهر

مطبعة الحسين الاسلامية
٢٥ ــ حـــارة المدرسة ــ خلف الجامع الأزهر

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

أحمد الله سبحانه وتعالى ، وأصلي وأسلم على خير خلقه وصفوة أنبيائه سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين .

وبعد

فهذه دراسة لفنون البديع وألوانه قصدت بها أن تكون خطوة نحو معالجة علم البديع بطريقة تعطى لهذا العلم المظلوم حقه من العناية والاهتمام .

فهذا العلم - الذى أريد له أن يكون تابعاً وذيلا لمسائل المعانى والبيان - ما زال بحاجة إلى تكثيف الجهود التى تكشف عن روعة فنونه وسر جمالها ، وتحلها المحل اللائق بها بين مسائل البلاغة وعناصر الجمال الأدبى .

وقد عرضت هذه الدراسة لألوان من المحسنات البديعية - المعنوية واللفظية - فى ثوب أرجو أن يتناسب مع الأذواق الباحثة عن عناصر الجمال وسحر القول فى صناعة الكلام ، إذ تهدف هذه الدراسة إلى تربية الذوق البلاغى من خلال الألوان التى تعرضها ، وتوقف على روعة هذه الألوان ومدخلها فى جمال الأساليب وبلاغتها ، وترمى إلى شحذ الكلمات التى تسعى إلى فهم القواعد فهما يضع أيديها على مواطن الروعة وأسرار الجمال فى الأدب الرفيع .

وتحقيقا لهذه الغاية رأينا أن نتوخى السهولة والوضوح سواء

فى الأفكار التى نعرضها من خلال هذه الدراسة ، أو الأسلوب الذى يعرض هذه الأفكار .

وقد كان لهذه الدراسة إهتمام خاص بالاكثار من الشواهد الأدبية سواء من القرآن الكريم أو الحديث النبوى الشريف . أو مأثور العرب شعراً ونثراً ، تعميقا للهدف بكثرة التطبيق ، والتدريب على الكثير من الشواهد ، وربطا للقواعد البلاغية بحقلها الأصيل وهو الأدب ، وهو ربط ما تخلف إلا وجف بتخلفه رواء البلاغة وماؤها .

وقد سميت هذه الدراسة « الفنون البديعية فى دائرة البحث البلاغى » قصداً لإدخال هذه الفنون ضمن فنون البلاغة ومسائلها ، وأن يكون النظر إليها على أن لها مدخلا فى بلاغة الكلام ، وفى إعجاز القرآن الكريم وسر بلاغته ، لأن تكون دراستها والنظر إليها على أنها من توابع البلاغة وليست ضمن مسائلها ، كما درج على ذلك كثير من علماء البلاغة .

هذا وقد رأيت أن تتضمن هذه الدراسة تعريفا لعلم البديع . وكشفا عن الصلة بين البديع والجمال اللغوى ، كما ألقيت فيها الضوء على تاريخ العلم ، ومنزلته بين علوم البلاغة الثلاثة .

والله أسأل أن ينفع بهذه الدراسة ، وأن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم فهو من وراء القصد ، وهو حسبى ونعم الوكيل ؟

المؤلف

د / فوزى السيد عبد ربه عيد

معنى البـديع

أولا : فى لغة العرب .

البديع فى اللغة من بدع الشيء - بالفتح - يبدعه بدعا وابتدعه : أنشأه وبدأه والبديع والبدع : الشيء الذى يكون أولا ، وفى التنزيل « قل ما كنت بدعا من الرسل »[1] أى ما كنت أول من أرسل ، فقـــد أرسل قبلى رسل كثيرون .

والبدعة : الحدث وما ابتدع من الدين بعد الإكمال ، وفى حديث عمر - رضى الله عنه - فى قيام رمضان « نعمت البدعة هـذه » ، وعن ابن الأثير : البدعة بدعتان ، بدعة هدى وبدعة ضلال ، فما كان فى خلاف ما أمر الله به رسوله - ﷺ - فهو فى حيز الذم والإنكار ، وما كان واقعاً تحت عموم ما ندب الله إليه وحض عليه أو رسوله فهو فى حيز المدح ، وهو معنى قوله ﷺ : « من سن سنة حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة ، ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة » ، وأما قوله ﷺ : « كل محدثة بدعة » فمحمول على ما خالف أصول الشريعة ، ولم يوافق السنة .

وأبدع وابتدع : أتى ببدعة ، ومنه المبتدع ، وهو الذى يأتى أمراً على شبه لم يكن ابتدأه إياه ، وأكثر ما يستعمل عرفاً فى الذم ، قال تعالى : « ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم »[2] ، وقال رؤبة :

إن كنت لله التقى الأطوعا   فليس وجه الحق أن تبدعا

---

(١) الأحقاف . ى : ٩ .
(٢) الحديد . ى : ٢٧ .

والبديع : المبدع ، وأبدعت الشيء . اخترعته لا على مثال سابق ، والبديع : من أسماء الله تعالى ، لإبداعه الأشياء وإحداثه إياها ، وهو البديع الأول قبل كل شيء ، قال تعالى : « بديع السموات والأرض »[1] أى خالقها ومبدعها ، فهو سبحانه الخالق المخترع ، لا عن مثال سابق ، فبديع فعيل بمعنى فاعل ، كقدير بمعنى قادر .

وأبدع الشاعر : جاء بالبديع ، وأتى به ، وأبدعت الركاب : إذا كلت، وحقيقته أنها جاءت بأمر حادث بديع[2] .

فالمادة ـ أعنى مادة بدع ـ فى لغة العرب تدور حول الجديد المبتكر، والمحدث المعجب والمخترع على غير مثال سابق .

ثانياً : فى اصطلاح البلاغيين .

أما معناه ميدان البحث البلاغى ، فقد أطلق ـ منذ عهود مبكرة ـ على محاسن الكلام وخصائص الأدب المميزة له ، فكل ما يجعل للكلام حسناً ومزية فهو داخل فى البديع .

وعلى الرغم من هذا نجـد الجاحظ ينقل عن الرواة إطلاق هـذا الاسم على ما تضمن المثل أو ما جرى مجراه ، فقـد ذكر قول الأشهب بن رميلة :

إن الألى حانت بفلج دماؤهم   هم القوم كل القوم يا أم خالد[3]

---

(١) البقرة . ى : ١١٧ ، الأنعام . ى : ١٠١ .

(٢) انظر مادة بدع فى لسان العرب ، والقاموس المحيط .

(٣) فلج : طريق مهلكة . حانت دماؤهم : هلكت . يريد أنه لم يؤخذ لهم بدية ولا قصاص .

هم ساعد الدهر الذى يتقى به   وما خير كف لا تنوء بساعد[1]
أسود شرى لاقت أسود خفية   تساقوا على حرد دماء الأساور[2]

ثم قال : « قوله : هم ساعد الدهر إنما هو مثل ، وهذا الذى تسميه الرواة البديع »[3] .

أما المتأخرون من علماء البلاغة فقد حددوا الوجوه التى تحسن الكلام وتزينه ، وحصروها فى هذه الألوان البديعية المخصوصة ، ووضعوها فى علم مستقل أطلقوا عليه اسم « البديع » وعرفوه بأنه :

علم يعرف به وجوه تحسين الكلام ، باعتبار نسبة بعض أجزائه إلى بعض بغير الإسناد والتعلق ، مع رعاية أسباب البلاغة .

وإنما قالوا : باعتبار نسبة بعض أجزائه إلى بعض . ليخرج التحسين لا بهذا الاعتبار ، كالتحسينات التى باعتبار الدلالة ، فإنه من البيان .

وقولهم : بغير الإسناد والتعلق ، لتخرج التحسينات التى باعتبارها ، فإنها من علم المعانى .

وقولهم : مع رعاية أسباب البلاغة ، لأنه مع عدمها لا تكون الصناعة كاملة[4] ، وهذا التعريف يوضح رأى علماء البلاغة المتأخرين فى معنى البديع بعد أن أخـــذت علوم البلاغة شكلها النهائى على يد الإمام أبى يعقوب السكاكى .

---

(١) تنوء به : تنهض مثقلة .

(٢) شرى : جبل بنجد ، خفية : أجمة بالكوفة . الحرد : الغضب .

(٣) البيان والتبيان ٤/٥٥ .

(٤) انظر الاشارات والتنبيهات ص٢٥٧ . والإيضاح ٤/٥ .

ويتضح من خلال المعنيين ـ اللغوى ، والاصطلاحى ـ عدة أمور :

أولها : أن الإبداع فى الفنون والآداب ـ بمعنى إنشائها على وجه جديد مبتكر خال من التقليد أو المحاكاة ـ داخل فى المعنى اللغوى لهذه المادة .

ثانيها : أن علماء اللغة كانوا على علم بدوران كلمة « البديع » واستعمالها فى مجال الأدب والشعر ، خلافا لما ذهب إليه ابن المعتز ، فقد أنكر على علماء اللغة معرفتهم بهذا الاسم ودرايتهم به ، حيث قال : « البديع اسم موضوع لفنون من الشعر يذكرها الشعراء ونقاد المتأدبين ، فأما العلماء باللغة والشعر القديم فلا يعرفون هذا الاسم ولا يدرون ما هو »[1] .

وقد يعتذر عن ابن المعتز بأن استعمال اللغويين لهذه الكلمة ، ودورانها على ألسنتهم مرجعه اصطلاح الأدباء والرواة الذين أطلقوا اسم البديع على محسنات الكلام المخصوصة ، ويكون ذكره فى اللغة كما يذكر مصطلح العروضيين والنحويين وغير ذلك[2] .

ثالثها : المناسبة بين معنى البديع فى لغة العرب ، وبين إطلاقه على المحسنات البديعية المخصوصة مناسبة واضحة ظاهرة ودقيقة أيضاً ، لأن الشىء المبدع المبتكر لا يخلو من الحسن والروعة ، والانبهار والطرافة ، كما أن ألوان الكلام التى أطلق عليها المحدثون اسم البديع تكسب الكلام حسناً وجمالا ، وتخلع عليه بهجة وجلالا .

❁ ❁ ❁

---

(١) البديع ص ١ .

(٢) انظر الصبغ البديعى ص ١٤ « هامش » .

البديع والجمال اللغوى

يختلف علماء المسلمين حول واضع اللغة ، أتوقيف هى ووحى من عند الله ، أم تواطؤ واصطلاح من البشر ؟ .

فيذهب فريق منهم — كابن فارس — إلى أن اللغة توقيف ووحى من الله سبحانه وتعالى ، بينما يذهب فريق آخر — منهم ابن جنى وشيخه أبو على الفارسى — إلى أن اللغة تواضع واصطلاح ، لاوحى وتوقيف .

وسواء كانت اللغة توقيفاً ووحياً من الله أم تواطؤاً واصطلاحاً من البشر فإن علماء المسلمين يرون أن اللسان الذى نزل به آدم إلى الأرض كان عربياً .

فقد أخرج ابن عساكر فى التاريخ عن ابن عباس أن آدم عليه السلام كانت لغته فى الجنة العربية ، فلما عصى سلبه الله العربية فتكلم بالسريانية ، وقال مثل هذا عبد الملك بن حبيب

ونحن لا نسوق هذا الكلام فى غير موضعه ؛ ولكن لنؤكد أن الجمال اللغوى فى اللسان العربى جمال من أصل الوضع ، قامت عليه حكمة الواضع .

فالله - سبحانه وتعالى - عندما قضت حكمته خلق آدم ليكون خليفة فى الأرض أراد لهذه الخلقة أن تكون فى أحسن صورة . وفى أحسن تقويم وجمال الصورة وحسن التقويم يقتضيان أن يختار الله أجمل لسان وأحسن لغة لتكتمل الصورة وتجمل الخلقة . قال تعالى : « الذى خلقك فسواك فعدلك . فى أى صورة ما شاء ركبك »[1] . وقال : « لقد خلقنا الإنسان

---

(١) الانفطار . ى : ٧ ، ٨ .

فى أحسن تقويم »[١] . فكان نطقه بهذه اللغة دليلا على جمالها وكمالها وحسن تكوينها .

ويؤكد هذه الحقيقة اختيار الله لها لتكون لغة لكلامه ، فأنزل بها قرآنه ، وجعله معجزة خالدة باقية على صدق رسوله محمد ﷺ إلى يوم القيامة .

ولا نريد أن نعود إلى هذه الأعماق البعيدة من الزمن التى شهدت الخطوات الأولى لوضع هذه اللغة ، وليس من شأننا ـ فى هذا المقام ـ أن نسجل الأطوار التى مرت بها ، ويكفى ـ فقط ـ أن نؤكد على أن اختيار الله لها لتكون لغة لآدم ـ عليه السلام ـ قبل وقوع المعصية ، ثم اختياره لها لتكون لغة لكلامه المنزل على خير البشر لخير دليل على أن هذه اللغة حوت من عناصر الجمال والروعة ما ليس لغيرها من لغات الأمم .

وقد اختصت اللغة العربية بمميزات وخصائص جعلتها أكثر مرونة وقابلية للاتساع والشمول لتواكب حركة الحياة ، كما جعلت منها لغة حلوة المذاق ترطب لسان الناطق بها وتلذ لها أذن سامعيها .

ومن هذه الخصائص والمميزات : الارتجال[٢]، والاشتقاق[٣]، والقلب[٤]

---

(١) التين . ى : ٤ .

(٢) هو : وضع ألفاظ جديدة للدلالة على المعانى الطارئة المراد التعبير عنها .

(٣) هو : تحويل اللفظ الواحد إلى صيغ مختلفة ، ليدل على ما لم يستدل عليه باللفظ الأصلى .

(٤) ويسمى الاشتقاق الكبير ، وهو أن يكون بين اللفظين تناسب فى اللفظ والمعنى دون الترتيب ، مثل كلمة : أوشاب — يعنى أخلاط الناس — فإن أصلها من الشوب ، وهو الخلط .

والإبدال (١) ، والنحت (٢) ، والتعريب (٣) .

وفضلا عما يدل عليه التعريب من مرونة هذه اللغة ورحابة صدرها فإنه يدل على عشق هذه اللغة لكل جميل ، فتلقيح اللغة العربية ببعض الألفاظ الأعجمية يكسبها — ولا شك — جمالا وروعة ، خصوصاً إذا علمنا أن الألفاظ التى قبلتها اللغة العربية وأدخلتها ضمن مفرداتها ألفاظ لها إيحاءات خاصة فى النفوس وجرس رطيب فى الآذان .

ومن أبرز هذه الخصائص الوجوه التى تحسن الكلام وتزينه ، وتجعل له فى القلب موقعاً جميلا ، وفى الأذن مذاقاً حلواً ، والتى انتظمت تحت اسم « البديع » فاللغة العربية لها من هذه الوجوه فضل اختصاص ، كما أن لها منها ألواناً لم تحص عداً على كثرة الدراسات حولها وتوفر الدارسين عليها .

يقول الجاحظ . « ونحن — أبقاك الله — إذا ادعينا للعرب أصناف البلاغة من القصيد والأرجاز ، ومن المنثور والأسجاع ، ومن المزدوج وما لا يزدوج ، فمعنا العلم أن ذلك لهم شاهد صادق من الديباجة الكريمة ،

---

(١) ويسمى الاشتقاق الأكبر ، وهو أن يكون بين اللفظين تناسب فى المعنى والمخرج ، نحو نعق ونهق ومعناهما متقارب ، إذ يدلان على الصوت المكرر والمستبشع ، وليس بينهما تناسب فى اللفظ ، ويصعب معرفة أى هذين اللفظين أصل للآخر .

(٢) النحت . وهو نوع من الاشتقاق ، وهو : أن تعمد إلى كلمة أو جملة كلمات فتنتزع من مجموع حروف كلماتها واحدة تدل على ما كانت تدل عليه الجملة كلها ، كحوقل من قولك : لا حول ولا قوة إلا بالله .

(٣) وهو تحويل كلمة أعجمية إلى العربية ، وقد قطع العرب فى هذا السبيل شوطاً بعيداً .

والرونق العجيب والسبك والنحت ، الذى لا يستطيع أشعر الناس اليوم ، ولا أرفعهم فى البيان أن يقول مثل ذلك إلا فى اليسير ، والنبذ القليل . ومتى أخذت بيد الشعوبى فأدخلته بلاد الأعراب الخلص ومعدن الفصاحة التامة ، وأوقفته على شاعر مفلق ، أو خطيب مصقع علم أن الذى قلته هو الحق ، وأبصر الشاهد عياناً ، فهذا فرق ما بيننا وبينهم[١] .

وقد قرر الجاحظ فى صراحة أن « البديع مقصور على العرب ، ومن أجله فاقت لغتهم كل لغة ، وأربت على كل لسان[٢] » . وسبقت الإشارة إلى أن البديع عنى به الجاحظ محاسن الكلام وخصائص الأدب المميزة له .

وعلى قدر اهتمام الشاعر بالبديع فى شعره على قدر ما يحكم له بالجودة ، وبشار بلفظه وشعره . فالراعى كثير البديع فى شعره ، وبشار حسن البديع ولم يكن من المولدين أصوب بديعاً من بشار وابن هرمة ، والعتابى يذهب شعره فى البديع ، وعلى ألفاظه وحذوه فى البديع يقول جميع من يتكلف مثل ذلك من شعراء المولدين كنحو منصور النمرى ، ومسلم بن الوليد وأشباههما[٣] .

ولسنا بحاجة إلى أن نلفت الأنظار إلى أن البديع الذى يكسب المعنى فخامة وجلالا ، واللفظ رواء وبهاء هو البديع الذى جاء عن طبع ، ودون تكلف أو تعمل ، وهذا ما نفسر به قول الجرجانى : « وكانت العرب إنما تفاضل بين الشعراء فى الجودة والحسن بشرف المعنى وصحته ، وجزالة

---

(١) انظر البيان والتبيين ٣/٢٩ .
(٢) البيان والتبيين ٣/٥٥ ، ٥٦ .
(٣) انظر المرجع السابق ـ الموضع السابق .

اللفظ واستقامته ، وتسلم السبق فيه لمن وصف فأصاب ، وشبه فقارب ، وبده فأغزر ، ولمن كثرت سوائر أمثاله وشوارد أبياته . ولم تكن تعبأ بالتجنيس والمطابقة ، ولا تحفل بالإبداع والاستعارة إذا حصل لها عمود الشعر ونظام القريض ، وقد كان يقع ذلك فى خلال قصائدها ويتفق لها فى البيت بعد البيت على غير تعمد وقصد ، فلما أفضى الشعر إلى المحدثين ورأوا مواقع تلك الأبيات من الغرابة والحسن ، وتميزها عن أخواتها فى الرشاقة واللطف تكلفوا الاحتذاء عليها فسموه « البديع » فمن محسن ومسىء ومحمود ومذموم ومقتصد ومفرط[٣] » .

والتكلف مذموم ليس فى البديع وحده ، وإنما فى كل شىء ، وقد سوى الجرجانى فى كلامه بين البديع وغيره مما جاء متكلفاً فجاء معيباً مستهجناً ، فالذم موجه إلى التكلف والتصنع وليس إلى ألوان البديع فى ذواتها

وقد نبه إمام البلاغة ورائدها الشيخ عبد القاهر الجرجانى إلى أن التكلف فى البديع يفقده ماءه ورواءه فى قوله : « لن تجد أيمن طائراً وأحسن أولا وآخراً وأهدى إلى الإحسان وأجلب للاستحسان من أن ترسل المعانى على سجيتها وتدعها تطلب لأنفسها الألفاظ ، فإنها إذا تركت وما تريد لم تكتس إلا ما يليق بها ، ولم تلبس من المعارض إلا ما يزينها ، فأما أن تضع نفسك أنه لا بد من أن تجنس أو تسجع بلفظين مخصوصين فهو الذى أنت فيه بعرض الاستكراه ، وعلى خطر من الخطأ والوقوع فى الذم فإن ساعدك الحظ كما ساعد فى قوله : « أو دعانى أمت بما أو دعانى » ، وكما ساعد أبا تمام فى نحو قوله :

وأنجدتم من بعد إتهام داركم   فيادمع أنجدنى على ساكنى نجد

---

(١) الوساطة ص ٣٧

وقوله :

هن الحمام فإن كسرت عيافة من حائهن فإنهن حمـــام

فذاك ، وإلا أطلقت ألسنة العيب وأفضى بك طلب الإحسان من حيث لم يحسن الطلب إلى أفحش الإساءة وأكبر الذنب ، ووقعت فيما ترى ، من ينصرك لا يرى أحسن من ألا يرويه لك ، ويود لو قدر على نفيه عنك ، وذلك كما تجده لأبى تمام ، إذا أسلم نفسه للتكلف ، ويرى أنه إن مر على إسم موضع يحتاج إلى ذكره ، أو يتصل بقصة يذكرها فى شعره ، من دون أن يشتق منه تجنيسا ، أو يعمل فيه بديعاً فقد باء بإثم ، وأخل بغرض حتم[1] .

* * *

---

(١) أسرار البلاغة ١ / ١٠٦ ، ١٠٧ .

البديع في سجل التاريخ

الأدب العربي جاء - منذ الجاهلية - صورة حية لحيـــاة العرب ، وصدقهم في نقل مشاعرهم وأحاسيسهم ، كما جاء معبراً عن طبيعة القوم وميلهم إلى الاسترسال والطبع ، والبعد عن التكلف والصنعة .

فهو يصور البداوة وما فيها من خشونة وشظف ورعونة واضطراب ، وما فيها من رقة المشاعر وإرهاف الملكات ودقة الحس ، فأدبهم مرآة انعكست عليها أخلاقهم ، وتمثلت فيها حقيقة حالهم ؛ ولذا كان له سحر أخذ الألباب والعقول ، فهم إذا خطبوا أثاروا المشاعر وأيقظوا الوجدان ، وألهبوا النفوس ، وإذا نظموا القصيد أخذوا بمجامع القلوب وسحروا الألباب والأفئدة ، ســـالكين أقرب السبل لا يتعملون ولا يتكلفون ولا يتأنقون .

يقول الجاحظ : « كل شيء للعرب إنما هو بديهة وارتجال ، وكأنه إلهام ، وليست هناك معاناة ، ولا مكابدة ولا إجالة فكرة ، ولا استعانة ، وإنما هو أن يصرف همه إلى الكلام ، وإلى رجز يوم الخصام ، أو حين يمتح على رأس بئر أو يحدو ببعير فما هو إلا أن يصرف وهمه إلى جملة المذهب وإلى العمود الذي إليه يقصد فتأتيه المعاني إرسالا وتنثال عليه الألفاظ انثيالا »[1] .

وعلى الرغم من وجود طائفة من الشعراء عنوا بشعرهم وحرصوا على تجويده ، فلا يخرج على الناس إلا بعد تثقيفه وتهذيبه فإن حرص هؤلاء

---

(١) البيان والتبيين ٢ / ٢٠ .

وعنايتهم ليست إلا إعادة نظر فى الشعر بعد إنشائه حتى إنهم كانوا يدعون القصيدة تمكث عندهم حولا كاملا ، يرددون فيها النظر ويقلبون فيها الرأى ، فلم يخرج صنيعهم هذا عن دائرة الطبع وكان من هؤلاء زهير والنابغة والحطيئة ، وأطلق عليهم إسم « عبيد الشعر » .

وانسياق الشعراء مع الطبع ونبذهم التكلف جعلهم لا يهتمون بالصنعة البديعية فلم يتعمدوا جناساً ، ولم يقصدوا إلى توريه ، ولم يتكلفوا طباقاً ، ولم ينقبوا عن سجع عدا طائفة من الكهان اشتهرت بحرصها على نوع من السجع أطلق عليه : سجع الكهان .

ومع ذلك فقد كثر فى أدبهم ألوان البديع التى جاءت عفو الخاطر من غير أن يعرفوا لها أسماءها التى أطلقت عليها فيما بعد .

فقد جاء الطباق فى قول امرىء القيس :

مكر مفر مقبل مدبر معاً   كجلمود صخر حطه السيل من عل

وقول زهير :

ليث بعثر يصطاد الرجال إذا   ما كذب الليث عن أقرانه صدقا

وجاءت المشاكلة فى قول عمرو بن كلثوم :

ألا لا يجهلن أحد علينا   فنجهل فوق جهل الجاهلينا

كما جاء اللف والنشر فى قول امرىء القيس :

كأن قلوب الطير رطباً ويابساً   لدى وكرها العناب والحشف البالى

وجاء التقسيم فى قول زهير :

فإن الحق مقطعه ثلاث   يمين أو نفار أو جلاء

والمبالغة فى قول المهلهل :

فلولا الريح أسمع من بحجر صليل البيض تقرع بالذكور

وتأكيد المدح بما يشبه الذم فى قول النابغة الذبيانى :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب

وغير ذلك من الألوان التى تناثرت بكثرة وكثرت أمثلتها فى الشعر الجاهلى ، ولم يقصد الشعراء إليها قصداً ، وإنما جاءت عفو الخاطر دون تعمل أو تكلف .

ولما جاء الإسلام ونزل القرآن الكريم ، كان للدين الجديد والقرآن الكريم أثرها الذى لا يجحد على عواطف العرب ومشاعرهم ، وجميع مناحى حياتهم ، فهدأ عواطفهم الثائرة ، وأرهف مشاعرهم ، وتشربت جوانب حياتهم روح القرآن ومعانيه .

ولا عجب إذا ظهر أثر القرآن ومعانيه وروحه فى أدبهم ، فجاء شعرهم مهذباً فى لفظه وأساليبه ، فرقت الألفاظ وأحكمت الأساليب ، فضلا عن المعانى والأغراض التى دارت حول الدعوة وصاحبها وحول القرآن الكريم الذى أدهشهم وملك عقولهم ، وإن كان الطابع العام للشعر الإسلامى بقى كما كان فى العصر الجاهلى ، فلم يبتكر شعراء الإسلام مذهباً جديداً فى الشعر ، كما بقيت الصناعة اللفظية كما هى موضع اهتمام القوم دون تعمل أو استكراه .

ولو فتشنا عن ألوان البديع ن هذا العصر وجدنا أن القرآن الكريم اشتملت آياته على كثير من الألوان البديعية التى جاءت فى أعلى درجات الروعة والجمال .

فمن الطباق جاء قوله تعالى : « قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير[١] ».

ومن المقابلة قوله : « فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيرا »[٢] .

ومن مراعاة النظير جاء قوله : « الشمس والقمر بحسبان والنجم والشجر يسجدان »[٣] .

ومن الإرصاد قوله تعالى : « وما كان الله ليظلمهم وما كانوا أنفسهم يظلمون »[٤] .

وغير ذلك كثير فى القرآن الكريم .

وفى أحاديث النبى ﷺ جاءت المقابلة الرائعة فى قوله لأصحابه : « إنكم لتكثرون عند الفزع وتقلون عند الطمع » .

وجاء العكس والتبديل فى قوله ﷺ « جار الدار أحق بدار الجار » .

وجاء الجمع فى قوله « من أصبح آمناً فى سربه معافى فى بدنه ، عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها » .

وهذا قليل من كثير من الألوان البديعية التى زخر بها الحديث النبوى الشريف .

كما جاء الأدب الإسلامى — شعره ونثره — وقد تناثرت فيه ألوان البديع التى جاءت على سجية القوم وفطرتهم ، ولا غرابة أن تبقى الفطرة العربية الخالصة هى المسيطرة وهى الموجهة ، فالقوم ما زالوا يعتزون

---

(١) آل عمران . ى : ٢٦ .
(٢) التوبة . ى : ٨٢ .
(٣) الرحمن . ى : ٥ ، ٦ .
(٤) العنكبوت . ى : ٤٠ .

بعروبتهم ويفخرون بها ، ولا تزال الصحراء هي مقام الكثيرين منهم ، ولم يكن قد بعد عهدهم بها ، كما كانوا يأنفون من مخالطة غيرهم من الأعاجم .

فمن ألوان البديع العكس والتبديل فى قول عبد الله بن الزبير :

فرد شعورهن السود بيضاً ورد وجوههن البيض سودا

والطباق فى قول الفرزدق :

لعن الإله بنى كليب إنهم لا يغدرون ولا يفون لجار
يستيقظون على نهيق حمارهم وتنام أعينهم عن الأوتار

والجناس فى قول جرير :

وما زال معقولا عقال عن الندى وما زال محبوساً عن المجد حابس

والإرصاد فى قول عدى بن الرقاع :

تزجى أغن كأن إبرة روقه قلم أصاب من الدواة مدادها

وجاء التقسيم فى قول قتيبة بن مسلم الباهلى : « من كان فى يده من مال عبد الله بن حازم شىء فلينبذه ، وإن كان فى فمه فليلفظه ، وإن كان فى صدره فلينفثه .

ومنه قول أعرابى وقف على مجلس الحسن البصرى فقال « رحم الله عبداً أعطى من سعة أو آسى من كفاف أو آثر من قلة » فقال الحسن : « ما ترك لأحد عذراً »[1] .

وغير ذلك من الألوان البديعية التى كثرت كثرة فائقة فى الأدب الإسلامى،

---

(١) انظر المثل السائر ص ٢٩٣ .

لكنها - كما أشرنا - لم تأت عن تعمل أو تكلف ، ولكنها سايرت الطبع العربي السليم ، والفطرة النقية المستقيمة .

ثم أخذت الحياة العربية تسير بخطا واسعة ، وتقفز قفزات سريعة ، فما أن جاءت الدولة العباسية حتى وجد العرب أمامهم أبواباً من الرفاهية والترف والحضارة صبغت حياتهم بصبغة جديدة . ووجدوا أمامهم علوم الأمم التي فتحوها وثقافات تلك الأمم فانكبوا عليها يحصلونها جادين متلهفين ، كما زاولوا صناعات تلك الأمم ومهاراتهم ونقلوها عنهم ، كل ذلك جعلهم في أسمى درجات الحضارة ، وأرفع قمم المدنية ، فعم الأمن وكثر الخير ، وتعددت مناحي الرزق ، فرتعوا في بحبوحة العيش ، ورفلوا في أبهى أنواع الحلل فارتدوا الخز والديباج ، واستبدلوا بالعباءة المطارف والغلائل كما تغيرت أصول عاداتهم وأخلاقهم ، ففشا المجون وانتشرت الزندقة وشاع الجهر بالفسق ، وتعقدت الحياة العربية وطغت عليها أساليب المدنية والتحضر .

والشعر — كما هو معروف — مرآة تنعكس عليها حياة الأمة ، ولسان يترجم عن أحوالها وجوانب حياتها ، ومن الطبيعي أن يتأثر الشعر بهذه الحياة الجديدة فيلبس حللا من الزخرف والزينة والتنميق .

ونظر الشعراء في شعر أسلافهم الأقدمين ، فوجدوا أن الأقدمين صرفوا همهم إلى المعاني ، وكان لهم بها فضل عناية ، فمعاني الفخر والمديح والغزل والرثاء وغيرها طرقت منذ قرون ، كما وجدوا أن الأقدمين سبقوا إلى الألفاظ القوية والعبارات الجزلة والأساليب المرضية ، فصرفوا همهم إلى الصياغة ليلبسوها أبهى حلل البيان ، وأسمى صفات الكلام ، وذلك لا يتأتى إلا بالزخرف والزينة والبهرج والتوليد في المعاني فكلفوا بها وتعمدوها ،

وقصدوا إلى الشعر القديم يلتمسون منه هذه الألوان ويتفننوا فيها فاجتمع لهم منها الكثير من طباق إلى جناس إلى تورية إلى مشاكلة وغير ذلك، وأطلقوا عليه إسم « البديع ».

وشتان بين هذه الألوان فى شعر الأقدمين وشعر المحدثين، فقد جاءت فى شعر الأقدمين تساير الطبع وتقع موقعها، دون قصد لها أو تكلف بينما جاءت فى شعر المحدثين عن تعمل وقصد وتكلف.

قال صاحب الوساطة: « فلما أفضى الشعر إلى المحدثين، ورأوا مواقع تلك الأبيات من الغرابة والحسن، وتميزها عن أخواتها فى الرشاقة واللطف تكلفوا الاحتذاء عليها فسموه « البديع » فمن محسن ومسيء ومحمود ومذموم ومقتصد ومفرط[1] ».

وأصبح البديع — بذلك صنعة لها روادها من أمثال بشار بن برد ومسلم بن الوليد والعتابى، ومنصور النمرى، وأبو نواس، وأبو تمام، والبحترى وعبد الله بن المعتز. فقد كان الواحد من هؤلاء يقصد إلى تلك الأصباغ ويكثر منها فى شعره، ولكنهم لم يكونوا سواء فى تلك الصنعة من حيث الإقلال والإكثار والتسهيل والتوعر والطابع والاتجاه.

فمنصور النمرى من شعراء البديع، استقى من بديع العتابى وذهب مذهبه وأربى عليه فى المبالغة. قال صاحب الأغانى: « كان منصور شاعراً من شعراء الدولة العباسية من أهل الجزيرة، وهو تلميذ كلثوم بن عمرو العتابى وروايته. وعنه أخذ ومن بحره استقى وبمذهبه تشبه »[2]. فمن طباقه ومبالغاته قوله يمدح الرشيد:

---

(١) الوساطة ص ٣٤٠.
(٢) الأغانى ١٢ / ١٦.

إذا رفعت أمراً فالله يرفعه ... ومن وضعت من الأقوام متضع
من لم يكن بأمين الله معتصما ... فليس بالصلوات الخمس ينتفع
إن أخلف الغيث لم تخلف أنامله ... أو ضاق أمر ذكرناه فيتسع

طابق فى البيت الأول بين الرفع والوضع ، وفى الثالث بين الضيق والاتساع ، والإختلاف وعدمه فى أسلوب مسرف فى المبالغة إسرافاً شديداً لا يجاوزه سوى قول أبى نواس فى مدح الرشيد أيضاً وفيه المطابقة :

لقد أتقيت الله حق تقاته ... وجهدنا فيه فوق جهد المتقى
وأخفت أهل الشرك حتى إنه ... لتخافك النطف التى لم تخلق
وبضاعة الشعراء إن أنفقتها ... نفقت وإن أكسدتها لم تنفق

طابق بين الإنفاق والإكساد فى أسلوب يعتمد على المغالاة .

وقد أدى هيام الشعراء بهذه الألوان وإفراطهم فى تناولها إلى تركهم جانب المعانى ، وعدم إكتراثهم بجزالة الألفاظ واستقامتها ، مما حدا بكثير من علماء اللغة والأدب أن ينتصروا للقديم ويتعصبوا له ، وأن يقفوا فى وجه كل جديد موقفاً متشدداً مقللين من شأن ما يأتى به المحدثون ، منكرين عليهم إكثارهم من ألوان البديع وكلفهم بها .

وقد بالغ كثير من النقاد وعلماء اللغة فى التعصب للقديم والميل إليه ، حتى إن بعضهم كان يستحسن القديم لقدمه ويستهجن المحدث لحداثته ، دون نظر لعناصر الجمال أو القبح فى هذا أو ذاك .

قال صاحب الوساطة : « وما أكثر من نرى ونسمع من حفاظ اللغة ومن جلة الرواة من يلهج بعيب المتأخرين أن أحدهم ينشد البيت فيستحسنه

ويستجيده ويعجب منه ويختاره ، فإذا نسب إلى بعض أهل عصره ، وشعراء زمانه كذب نفسه ونقض قوله . ورأى تلك الغضاضة أهون محلا وأقل مرزئة من تسليم فضيلة لمحدث ، والإقرار بالإحسان لمولد . حكى عن إسحاق ابن ابراهيم الموصلي أنه قال أنشدت الأصمعي :

هل إلى نظرة إليك سبيل   فيبل الصدى ويشفى الغليل
إن ماقل منك يكثر عندى   وكثير ممن تحب القليل

فقال : والله هذا الديباج الخسرواني ، لمن تنشدني ؟ فقلت : إنهما لليلتهما . فقال : لا جرم . والله إن أثر التكلف فيهما ظاهر [1] .

وإلى جانب هذه الطائفة التي تعصبت القديم طائفة أخرى من الشعراء والنقاد تعصبوا للمحدثين وانتصروا للبديع وعدوا الاكثار منه في الشعر تفننا في ضروب القول ، ودليلا على شاعرية الشاعر .

وعلى أي حال فإن هذه المعركة بين أنصار القديم وأنصار الحديث لم تذهب أدراج الرياح ، بل أثمرت ثمرة طيبة كان لها قيمتها في تاريخ هذا الفن .

ذلك أن أحد المولعين بالأصباغ البديعية ، وهو الشاعر الخليفة عبدالله ابن المعتز (ت ٢٩٦ هـ) عن له أن يسجل ألوان البديع التي كثرت في الشعر وأن يحولها إلى قواعد وأصول ، فكان له ما أراد بكتابه الذي يعد بداية التأليف في هذا العلم وهو كتابه « البديع » ، وتحول البديع بهذا المؤلف من أصباغ تتناثر في الشعر ويهتم بها الشعراء وحدهم إلى قواعد وأصول يضمها

---

(١) الوساطة . ص : ٥٠ .

كتاب مستقل ، ويعضدها بالشواهد والمثل التى توضح معانيها وتبين طرائقها .

وكان الباعث على تأليف هذا الكتاب هو الدفاع عن أنصار البديع ، وأن يثبت أن هذه الألوان معروفة فى العربية منذ القديم ، وأن كثيراً منها ورد فى القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف .

وقد صرح بهذا الهدف فى مقدمة كتابه بقوله . « إنما غرضنا فى هذا الكتاب تعريف الناس أن المحدثين لم يسبقوا المتقدمين إلى شىء من أبواب البديع ، وفى دون ما ذكرنا مبلغ الغاية التى قصدنا إليها[1] .

ويذهب صاحب « البيان العربى » إلى أن بديع ابن المعتز هو أول كتاب فى البلاغة العربية بالمعنى الصحيح ، حيث لم يجاوز فى موضوعاته وفنونه دائرة البحث البلاغى[2] .

ويصرح هذا الكاتب — فى موضع آخر من كتابه — بأن كتاب البديع أثر من آثار « البيان والتبيين » للجاحظ ، فقد كان ابن المعتز واحداً من علماء اللغة والأدب الذين أثارهم بيان الجاحظ - بعد أن وعوه وفهموه - فقدم لنا كتابه « البديع » وأودعه ثقافته البيانية وما تأثر به من المسائل البيانية والبلاغية التى أثارها الجاحظ فى كتابه[3] .

بل أكثر من هذا نجد هذا الكاتب يصرح بأن كلمة « البديع » التى وضعت عنوانا لكتاب ابن المعتز لم يكن هو أول مستعمل لها ، بل استعملت هذه الكلمة فى معناها الأدبى قبل ابن المعتز ، فقد ذكرها الجاحظ

---

(١) البديع . ص : ٢ . (٢) البيان العربى . ص : ١٢٧ .
(٣) المرجع السابق . ص : ١٢٨ .

حين ذهب إلى أن البديع مقصور على العرب ، ومن أجله فاقت لغتهم كل لغة ، وأربت على كل لسان ، وذكر جماعة من الشعراء العباسيين اشتهروا بالبديع ، ونسب هذه التسمية إلى الرواة[١] .

والواقع أن من يطالع كتاب البديع ، ويتعرف الغاية التي هدف إليها ابن المعتز من تأليفه له ، ويقارن بين ما كتبه فيه من فنون البديع وموضوعاته وبين ما نثره الجاحظ في « البيان والتبيين » من هذه الموضوعات يدرك بأدنى تأمل أن ابن المعتز اهتم بجانب من جوانب « البيان والتبيين » وهو ما نثره الجاحظ في كتابه من وسائل تصفيح الأدب ، وما به يحسن الكلام ويزداد رونقاً وبهاء ، فتأثر ابن المعتز بهذا الجانب ودرسه وشرحه وقدمه في كتابه[٢] .

وقد استقصى ابن المعتز ما في الشعر من المحسنات البديعية على أمكنه واتسع له وقته وهدى إليه وأثبت ما جمعه في كتابه ، وكان مجموع ما ذكره في هذا المؤلف سبعة عشر نوعاً من المحسنات ، جعل منها الاستعارة والكناية وقال : « ما جمع قبلي فنون البديع أحد ولا سبقني إلى تأليفه مؤلف ، ومن رأى أن يقتصر على ما اخترنا فليفعل ، ومن رأى إضافة شيء من المحاسن إليه فله اختياره »[٣] .

ثم جاء معاصره قدامة بن جعفر الكاتب (ت ٣٣٧ هـ) فجمع منها عشرين لونا في كتابه « نقد الشعر » ، وقد توارد مع ابن المعتز على سبعة منها وسلم له ثلاثة عشر ، فتكامل لهما ثلاثون نوعاً .

---

(١) المرجع السابق . ص ١٣٧ .

(٢) انظر كتابنا المقاييس البلاغية عند الجاحظ ص ٣١٣ .

(٣) البديع . ص ٣ .

ثم اقتدى الناس بهما في التأليف في البديع ، فأفرد أبو هلال العسكري (ت ٣٩٥ هـ) جزءاً من كتابه الصناعتين لألوان البديع ، وكان غاية ما جمعه أبو هلال سبعة وثلاثين نوعا .

ثم جاء ابن رشيق القيرواني (ت ٤٦٣ هـ) فجمع في كتابه العمدة مثلما جمع أبو هلال ، وأضاف إليها ثلاثة وثلاثين بابا في فضائل الشعر وصفاته وأعراضه وعيوبه وسرقاته وغير ذلك من أنساب الشعراء وأحوالهم مالا تعلق له بالبديع .

ثم تلاه شرف الدين التيفاشي (ت ٦٥١ هـ) فبلغ بهذه الألوان السبعين .

ثم تصدى للبديع الشيخ زكي الدين بن أبي الإصبع ، (ت ٦٥٤ هـ) فأوصلها إلى التسعين ، وأضاف إليها من مستخرجاته ثلاثين ، سلم له فيها عشرون ، وباقيها مسبوق إليه أو متداخل عليه ، وكتابه المسمى « تحرير التحبير » أصح كتاب ألف في هذا العلم . لأنه لم يتكل على النقل دون النقد ، فقد كان كثير النظر والتعليق لكل ما جمعه في كتابه من ألوان البديع .

ثم جاء صفي الدين الحلي (ت ٧٥٠ هـ) فأوصلها إلى مائة وأربعين . ونظم قصيدة ميمية في مديح المصطفى عليه الصلاة والسلام ، وذكر في كل بيت من أبيات هذه المنظومة اسم نوع المحسنات .

ومن بعده جاء عز الدين الموصلي (ت ٧٨٩ هـ) فذكر مثلما ذكره صفي الدين مع زيادة بعض الأنواع من ابتكاره .

وهكذا ارتقت التواليف في البديع ، وسارت قدماً بألوان مختلفة

وتفنن فى التأليف ، وجمع الأنواع والتمثيل لها ، وزيدت الأنواع وكثرت البديعيات .

ولعل بديعية ابن حجة الحموى (ت ٨٢٧ هـ) تعد أشهر هذه البديعيات، وقد شرحها فى مؤلف كبير سماه خزانة الأدب .

ثم جاء جلال الدين السيوطى (ت ٩١١ هـ) فابتكر فى البديع عدة ألوان أوردها فى كتابه « عقود الجمان » ، وألف الشيخ عبد الرحمن الحميدى (ت ١٠٠٥ هـ) بديعية أسماها « تمليح البديع بمدح الشفيع » وله عليها شرح ومختصر وقال « لقد زدت ـ والحمد لله ـ فى بديعيتى أنواعاً لم يسبقنى الحلى فيها ومتابعوه ولا السيوطى ومتابعوه » .

وكانت كثرة البديعيات كثرة فائقة سبباً فى إسفافها وانحطاطها ، وتجريد ألوان البديع من الروعة والرواء سواء من الناحية الأدبية أو العلمية .

أما الأدبية فقد هبطت بالشعر وجملته فى أحط درجاته وأذهبت بمائه ورواثه ، وأما الناحية العلمية بأنها ذهبت بالبديع مذاهب التشعيب والتخليط عادا عليه بالضعة والهـــوان عند ذوى الصفاء من البلغاء والمتأدبين

ومن أبرز أصحاب البديعيات فى العصر الحديث محمـــود الساعاتى (ت ١٢٩٨ هـ) ، وعبد الهادى الابيارى (ت ١٣٠٥ هـ) ، والشيخ عبـــد القادر الطرابلسى (ت ١٣٠٩ هـ) والشيخ طاهر الجزائرى (ت ١٣٤١ هـ) وغيرهم كثير من كتبوا فى ألوان البديع وبالغوا فى جمعها واستقصائها .

❋ ❋ ❋

منزلة البديع بين الدراسات البلاغية

علم البديع - كما هو معروف - واحد من علوم البلاغة الثلاثة : المعانى والبيان والبديع ، وتحتل هذه العلوم مكانة سامية ومرتبة رفيعة بين العلوم مكانة سامية ومرتبه رفيعة بين العلوم الإسلامية والعربية على السواء ، فموضع هـــذه العلوم من علوم العربية أو العلوم الإسلامية موضع الرأس من الإنسان ، أو اليتيمة من قلائد العقيان ، فهى مستودع سرها ، ومظهر جمالها وجلالها ، فلا فضيلة لكلام على كلام إلا بما يحويه من لطائفها ، ويودع فيه من مزاياها وخصائصها ، ولا تبريز لمتكلم على آخر إلا بما يحوكه من وشيها ويلفظه من درها ، وينفثه من سحرها . ويجنيه من يانع ثمرها .

فعلوم البلاغة تعد وسيلة لمعرفة إعجاز القرآن الكريم ، فإذا أغفل الإنسان علم البلاغة وأخل بمعرفة قواعدها لم يستطع أن يدرك سر إعجاز القرآن الكريم ولم يعرف من أى جهة أعجز الله العرب عن أن يأتوا بسورة واحدة مثله .

وكما أنها تعد وسيلة لمعرفة الإعجاز القرآنى فإن هذه العلوم لا غنى عنها لمن أراد أن يفهم كتاب الله ويعرف أحكامه ، ويتبين حلاله وحرامه ، وغير ذلك من علوم القرآن ومعارف الذكر الحكيم .

يقول العلامة صفى الدين الحلى : « إن أحق العلوم بالتقديم وأجدرها بالاقتباس والتعليم ، بعد معرفة الله العظيم معرفة حقائق كلامه الكريم ، وفهم ما أنزل فى الذكر الحكيم ، لتؤمن غائلة الشك والتوهم «أفمن يمشى مكبا على وجهه أهدى أمن يمشى سويا على صراط مستقيم» ، ولا سبيل إلى ذلك إلا بمعرفة علم البلاغة وتوابعها من محاسن البديع اللذين بهما

يعرف وجه إعجاز القرآن ، وصحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم بالدليل والبرهان [١] » .

وقال مثل هـذا كثيرون ، منهم أبو هلال العسكري[٢] ، والإمام عبد القاهر الجرجاني[٣] ، والعلامة جار الله الزمخشري[٤] ، وأبو يعقوب السكاكي وغيرهم[٥] .

وصاحب اللسان العربي إذا أراد أن ينشيء أدبا ـ شعراً كان أو نثراً ـ لا يتسنى له ذلك إلا إذا ألم بقواعد علوم البلاغة ، وجعله مصباحاً يهدي خطاه ويسدد قلمه بما يعرفه من تركيب الأساليب الرفيعة وأسباب رفعتها وجمالها .

والناقد الأدبي يتخذ من هذه العلوم أمضى أسلحته ، فهي هاديه في إدراك الجمال وتذوق الحسن في ألوان الكلام ، ولا يمكنه أن يفاضل بين كلام وكلام ، ولا أن يبرز ما تضمنه العمل الأدبي من أسباب الجودة أو الرداءة إلا بالوقوف على قواعد هـذه العلوم ، حتى تأتي أحكامه بعيدة عن الفوضى والتخليط .

تلك ـ بإيجاز ـ منزلة علوم البلاغة وأهميتها في مجال الدراسات الإسلامية والعربية جميعا ، وعلم البديع له هذه المكانة وتلك المنزلة بين العلوم الأخرى باعتباره واحداً من هذه العلوم الثلاثة .

---

(١) شرح الكافية البديعية ص ٥١ : ٥٢ .
(٢) الصناعتين . ص . ٧ ، ٨ .
(٣) دلائل الاعجاز . ص : ٨ ، ٩ .
(٤) الكشاف ١/٢ .
(٥) مفتاح العلوم . ص : ٧٠ .

لكن إذا كانت هـذه منزلة علم البديع بين سائر العلوم المختلفة فما منزلته بين الدراسات البلاغية ، أو بين علوم البلاغة الثلاثة ؟ ؟ ؟

جعل أبو يعقوب السكاكى منزلة هذا العلم بعد منزلة على المعانى والبيان ، واقتدى به المتأخرون من علماء البلاغة ، فعدوا ألوان البديع وفنونه ذيلا من ذيول البلاغة وتابعاً من توابعها ، فعلم البلاغة ـ عندهم ـ مقصور على علمى المعانى والبيان .

والذى جعلهم يضعون علم البديع هذا الموضع ، ويوقعون عليه هذا الظلم تعريفهم لبلاغة الكلام ، فبلاغة الكلام عندهم معناها : مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته وفصاحة أجزائه فمرجعها أمران : الأول ، الاحتراز عن الخطأ فى تأدية المعنى المراد ، والثانى : تمييز الكلام الفصيح من غيره ، والثانى ـ وهو التمييز ـ منه ما يتبين فى علم متن اللغة ، أو التصريف ، أو النحو ، أو يدرك بالحس ، وهو ماعدا التعقيد المعنوى ، وما يحترز به عن الأول ـ وهو الخطأ ـ هو علم المعانى ، وما يحترز به عن الثانى ـ وهو التعقيد المعنوى ـ هو علم البيان . فظهر أن علم البلاغة منحصر فى علمى المعانى والبيان(١) .

وعلى هذا جاء تعريفهم لهذا العلم مبعداً له عن البلاغة وجاعلا إياه ذنباً وتابعاً لعلميها ، فهو فى نظرهم وشى وزينة ، وحسنه عرضى لا ذاتى . فقد عرفه الخطيب القزوينى بقوله « هو علم يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية المطابقة ووضوح الدلالة(٢) » .

---

(١) انظر الإيضاح ٣١/١ ، المطول . ص : ٣١ .
(٢) الإيضاح ٢/٤ .

وعلق السعد التفتازانى على تعريف الخطيب بقوله : « فقوله بعد رعاية المطابقة ووضوح الدلالة تنبيه على أن هذه الوجوه إنما تعد محسنة للكلام بعد رعاية الأمرين » (١) .

ومعنى هذا أن الكلام الذى خلا من هذه الألوان وروعى فيه الأمران - أعنى المطابقة ووضوح الدلالة - كلام لا غبار عليه ، كما أن الكلام العارى عن واحد من هذين الأمرين ، أو عنهما معاً يعد كلاماً ساقطاً ، مهما اشتمل على ألوان البديع وفنونه .

وهذا مبنى على أن البديع لا صلة له ببلاغة الكلام . وأنه خارج عنها ، كما صرح بذلك حسن جلبى ، أحد شراح المطول فى قوله تعليقا على قول السعد « هذا إنما يظهر عند التأمل والتذكر للأحكام المذكورة فى علمى والبيان . يقول حسن جلبى ، « إنما لم يتعرض للبديع لكونه خارجا عن البلاغة » (٢) .

وقد أفصح عن هذا أحد الكاتبين ، معلقاً على تعريف المتأخرين لعلم البديع ، وتحديدهم لمنزلته من العلمين الآخرين ، وذلك قوله : « منزلة هذا العلم من علمى المعانى والبيان منزلة الطلاء يأتى بعد تمام البناء ، ذلك أن هذين العلمين يبحثان صلب المعنى من حيث المطابقة ووضوح الدلالة ، فتحسينها للكلام ذاتى لأنه راجع إلى ذات المعنى ، أما البديع فتحسينه للكلام ذاتى لأنه راجع إلى ذات المعنى ، أما البديع فتحسينه عرضى لأنه يأتى بعد تحقيق ثمرة العلمين الآخرين . معنى هذا أنه اذا خلا الكلام

---

(١) المطول . ص : ٤١٦ .

(٢) انظر حاشية حسن جلبى على المطول . ص : ٥٨٦ ، والمطول . ص ٤٨٢ .

من رعاية المطابقة لمقتضى الحال ـ التى هى ثمرة علم المعانى ـ أو من رعاية وضوح الدلالة على المعنى المراد ـ التى هى ثمرة علم البيان ـ كان كلاما ساقطاً لا يعتد به لأنه فقد شرطى البلاغة أو أحدهما ، ويكون اشتماله فى هذه الحالة على البديع كتعليق الدر على أعناق الخنازير أما إذا روعى فى الكلام ثمرة العلمين فإن البديع يكون معهما بمثابة العقد النفيس يزين جيد الحسناء الفاتنة(١) » .

ومع تصريحهم بتبعية علم البديع لعلمى المعانى والبيان ! نجدهم يختلفون فى جهة هذه التبعية ، فجمهورهم يرى أن هذه التبعية معناها أن هذا العلم لا يمت إلى بلاغة الكلام بصلة ، وأن إتصاله بالعلمين المختصين بالبلاغة من جهة أنه حلية ونقش وزينه للكلام ، ويشذ بعضهم فيرى أن هذه التبعية تعنى أن كلا من المعانى والبيان جزء من علم البديع ، وأن مسائلهما داخلة فيه ، وبعضهم يرى أن المعانى والبيان مقدمتان لا بد منهما لعلم البديع ، بجعله ـ دون قصد ـ أصلا مقصوداً لذاته .

وقد صرح بهذا الاختلاف بهاء الدين السبكى فى تعليقه على تعريف الخطيب البديع فقال : « يحتمل أن يراد بعد معرفة رعاية تطبيقه ووضوح الدلالة ويكون المراد : هو قواعد يعرف بها وجوه التحسين فيكون المعانى والبيان جزءين للبديع ، ويحتمل أن يراد قواعد يعرف بها بعد معرفة التطبيق والوضوح وجوه التحسين ، فلا يكون المعانى والبيان جزءين للبديع ، بل مقدمتين له وقد صرحوا بأن المراد هو الأول ، وفى استخراجه من منطوق عبارة المصنف عسر لأنك إذا قلت : عرفت زيداً بعد معرفتى

---

(١) الكفاية والبديع . ص : ٥١ ، ٥٢ .

لعمرو فالخبر به معرفة زيد مقيدة بسبق معرفة عمرو ، لا معرفة زيد وعمرو »[1] .

وبالغ بعض المتأخرين فى البعد بين وجوه البديع والبلاغة ، فعلم البلاغة - يعنى المعانى والبيان - جوهر وصلب وأصل ، والبديع نقش وحلية وزينة ، فتارة يوقعون عليها اسم الحلية والعرض ، وتارة يطلقون عليها اسم اللاحق والذنب الذى لايمس صميما ولا يمثل غرضا .

والذى حملهم على هذا أنهم رأووا نماذج للشعراء والمتأدبين طرقوا فيها بعض فنون البديع فجنحوا به عن جادة الصواب ، وأساءوا إلى البديع بقدر ما أحسنوا إليهم ، كما أن الاسراف فى تعدد الفنون البديعية كان له دور بعيد المدى فى النظرة إلى هذا الفن . فجاء - عندهم - حلية وعرضا وذيلا وطرفا ، وأنزلوه فى غير منزلته »[1] .

هذا رأى المتأخرين ومذهبهم فى النظر إلى البديع وفنونه . ونحن لا نسلم لهم هذه النظرة وذلك الرأى ؛ لأن كلامهم هذا قائم على أساس نظرى لا دليل عليه ولا برهان لهم إلا تحديدهم للحدود وتعقيدهم للقواعد ، فهم بتعريفهم لبلاغة الكلام ، ثم تحديدهم لعلمى المعانى والبيان تحديدا قائما على تفسيرهم لمعنى بلاغة الكلام . بهذا الصنيع أخرجوا علم البديع عن بلاغة الكلام ، وجعلوا له هذه المنزلة الوضيعة .

ومنزلة علم البديع ينبغى أن تتحدد - فى رأينا - بأمرين ، أولهما : أثر ألوانه وفنونه فى قوة الكلام وبلاغته ، وثانيهما : مدخله فى الاعجاز القرآنى . فاذا رأينا لهذه الألوان أثرا فى بلاغة الكلام ، بحيث إذا

---

(١) البديع من المعانى والألفاظ ، ص : ٦ .

فقد الكلام ما حواه من هذه الألوان فقد بلاغته كان هذا حكما على ماذهب إليه المتأخرون بالبطلان ، وثبت لألوان البديع منزلة ومكانة لا تقل عن منزلة علمى المعانى والبيان ومكانتهما ، وكذا إلى ثبت أن لهذه الألوان مدخلها فى إعجاز القرآن الكريم .

وإذا أردنا أن نبحث عن الأمر الأول فلنأخذ بعض الأمثلة البديعية لنتبين هل لهذه الألوان أثر فى بلاغة الأسلوب وقوته أم ليس لها مدخل فيهما ؟

خذ المبالغة التى سموها « التبليغ » فى قول ابن الرومى :

لو أن بيتك يا ابن يوسف ممتل   إبرأ يضيق بها فناء المنزل

وأتاك يوسف يستعيرك إبرة   ليخيط قد قميصه لم تفعل

وانظر إلى غرض الشاعر من وصف مهجوه بصفة البخل ترى أن الشاعر لم يقصد إلى وصف هذا البخيل بمجرد الصفة ، لأنها فيه مشهورة معروفة ، ولكنه قصد إلى وصفه بمنتهى البخل والبلوغ فى هذا الوصف أحط درجاته ، فاختار من المعانى ما يؤدى هذا الغرض ويطابقه ، فليس أهون من الإبر فى البذل والعطاء ، خصوصاً إذا كانت كثيرة يضيق بها فناء المنزل ، وليس أمعن فى البخل والشح ، وأبلغ فى الخسة واللؤم من الضن بإبرة واحدة على من يستوجب حالة الإيثار والبذل لرتق الخرق ، وضم الممزق ، ولا سيما إذا كان الطالب لهذا الشيء الحقير هو أباه .

ولئن كان الشاعر مبالغاً فى هذا الوصف فان المقام - أعنى مقام الهجاء اللاذع - مما يستدعى توجيه أشنع صفات الذم للمذموم والمبالغة فيها ، ولو نقص الشاعر عن هذه الدرجة التى وصم بها مهجوه من البخل

لما وصل إلى غرضه ، فالمبالغة فيها داخله فى غرض الشاعر مرتبطة بالحال التى أراد لكلامه أن يجىء مطابقا لها ، حتى يوصف بصفة البلاغة .

وقس على هذا المثال جميع أمثلة المبالغة ، وستجدها مرتبطة بالحال والمقام والأغراض التى قيلت فيها .

وخذ أسلوب « الاستخدام » فى قول الشاعر :

إذا نزل السماء بأرض قوم رعيناه وإن كانوا غضابا

فقد قالوا : أراد بالسماء الغيث ، وبضميره فى رعيناه النبت[1] . وواضح أن إطلاق السماء وإرادة الغيث مجاز مرسل علاقته المجاورة ، كما أن إطلاق الغيث — يعنى الضمير فى رعيناه — على النبات مجاز مرسل علاقته المسببة وأيضاً إسناد الرعى إلى ضمير المتكلمين فيه إيجاز بالحذف ، أى رعته ابلنا ومواشينا ، وأيضاً قوله : رعيناه أخصر وأوجز من قوله : رعينا النبات الناشىء عن المطر .

أليست كل هذه الألوان فى البيت — والتى كان لأسلوب الإستخدام مدخل فيها — مما اتفقوا على أنها عن علمى المعانى والبيان ؟ . ثم فوق هذا فالبيت كله كناية عن شرف هؤلاء القوم ووصفهم بالرياسة وشمول السيادة والسلطان .

إذن لو افتقد البيت هذا اللون لأخل بكل هذه المعانى التى قصد إليها الشاعر قصداً ، تأدية لغرضه ، ومطابقة للحال التى ساق فيها هذا البيت .

وخذ « حسن التعليل » فى قول أبى الطيب المتنبى : —

---

(١) الايضاح ٤/٢٤ .

ما به قتـــل أعاديه ولكن يتقى إخلاف ماترجو الذئاب

فقد قالوا إن الباعث على سفك دماء الأعداء هو إهلاكهم والتخلص منهم حتى يصفو الجو وتأمن النفس غائلتهم ، ولكن الشاعر يرى أن هذا ليس علة لقتل الممدوح أعداءه ، وإنما باعثه على قتلهم هو تمكن الكرم من نفسه حتى صار يتقى إخلاف ما تؤمله الذئاب على يديه من اتساع رزقها من قتلاه .

ولو تأملت ما قالوه لوجدت أن هذا الصنيع الذى لجأ إليه الشاعر لم يكن لكلامه أن يقوى ، ولا أن يقع موقعه من البلاغة بدونه ، فهذا الأسلوب — أعنى حسن التعليل — داخل فى بلاغة الكلام فى صميمها ، ويكفى ما علق به إمام البلاغيين عبد القاهر الجرجانى على هذا البيت تدليلا على ما نقول . فقد قال « أعلم أن هذا لا يكون حتى يكون استئناف هذه العلة المدعاة فائدة شريفة فيما يتصل بالممدوح ، أو يكون لها تأثير فى الذم ، كقصد المتنبى ههنا فى أن يبالغ فى وصفه بالسخاء والجود وأن طبيعة الكرم قد غلبت عليه ومحبته أن يصدق رجاء الراجين وأن يجنبهم الخيبة فى آمالهم قد بلغت به هذا الحد ، فلما علم أنه إذا غدا للحرب غدت الذئاب تتوقع أن يتسع عليها الرزق ويخصب لها الوقت من قتلى عداه كره أن يخلفها ، وأن يخيب رجاءها ولا يسعفها ، وفيه نوع آخر من المدح ، وهو أنه يهزم العدا ويكسرهم كسراً لا يطمعون بعده فى المعاودة فيستغنى بذلك عن قتلهم وإراقة دمائهم ، وأنه ليس ممن يسرف فى القتل طاعة للغيظ والحنق[1] » .

ولو تتبعنا هذا اللون فى كل الأساليب لوجدنا تحته من الأسرار والنكت ما يضع يديك على أثر هذا اللون فى قوة الأساليب وبلاغتها .

---

(١) أسرار البلاغة ٢/١٥٨ .

ولو نظرنا إلى أساليب المشاكلة نجد تحتها أغراضاً ومقاصد لا تؤدى بدونها .

فالمثال المشهور فى المشاكلة قول الأنطاكى[1] :—

قالوا : أقترح شيئاً نجد لك طبخه   قلت : اطبخوا لى جبة وقميصا

ذكر الشاعر خياطة الجبة بلفظ الطبخ لوقوعه فى صحبة الطبخ الحقيقى وهذا هو معنى المشاكلة عند البلاغيين .

وإذا نظرنا فى ملابسات هذا القول — وهو أمر لا يصح إغفاله لأنه يحدد المقام الذى قيل فيه هذا القول — نجد أن الشاعر كان له إخوان أربعة ينادمهم أيام كافور الإخشيدى فجاءه رسولهم فى يوم قارس البرد ، وليست له كسوة تقيه شره ، فقال له : إخوانك يقرؤنك السلام ويقولون لك : قد اصطحبنا اليـــوم وذبحنا شاة سمينة فاشتهِ ما نطبخ لك منها ، فكتب إليهم :—

إخواننا قصدوا الصبوح بسحرة   فأتى رسولهم إلى خصوصا

قالوا : اقترح . . . البيت .

فقد عبر الشاعر عن الخياطة بالطبخ تشبيها لها به فى كونها مما ينبغى أن تكون موضع رغبتهم ومحل عنايتهم ، فإذا كانت رغبتهم متجهة إلى الطبخ ليأكل ما طبخوه فينبغى أن تكون منهم تلك الرغبة فى خياطة جبة وقميص يقيانه شر البرد ، ويعتصم بهما من أذاه .

فقد وصل الشاعر إلى غرضه بتنبيهم إلى ما يريد بهذا الأسلوب ،

---

(١) هو : أحمد بن محمد الأنطاكى من شعراء اليتيمية (ت٣٩٩ هـ) .

مع ما اشتمل عليه من الاستعارة الرائعة أليس هذا كافياً فى أن تكون المشاكلة لها قوة وأثر فى بلاغة الأسلوب وسموه ورفعته ؟ وأبعد من هذا فإن أساليب المشاكلة موجودة فى المجاز المرسل ، وإذا رجعت إلى الأمثلة التى ذكرها البلاغيون فى هذا النوع من المجاز لعلاقة السببية لوجدتها جميعها أمثلة للمشاكلة .

وما قيل فيما عرضنا له من الألوان يقال فى كل ألوان البديع وأساليبه ، ولذا فإنا نكتفى بهذا القدر من الأمثلة دليلا على أن البديع لا يكون فى الكلام إلا ووراءه حال تقتضيه ، وتحته ملحظ يدعو إليه وإذا اقتضته الحال ودعا إليه غرض أو مقصد صار حسنه ذاتياً يهبط الكلام إذا فقده ومن ثم فإن لهذه الألوان أثراً فى قوة الكلام ومدخلا فى بلاغته .

وقد أكمل الفخر الرازى فى نهاية الإيجاز نظرة الشيخ عبد القاهر فى « باب النظم » الذى يتحد فى الوضع ويدق فيه الصنع ، فأدرج الطباق والمقابلة ومراعاة النظر وبعض الألوان البديعية الأخرى من مقتضيات الأحوال وموجبات الأغراض[1] .

ولذا فليس بغريب أن نجد واحداً من البلاغيين — وهو صاحب الطراز — يربط بين البديع والمجاز ، فيشترط فى البديع أن يكون الكلام فى مرتبة المجاز ، لأن المجاز يقوم على الاتساع فى الكلام والافتنان فيه ، فيقول ، « من شروط البديع أن يكون وارداً فى المجاز ، فلا يعقل البديع إلا إذا كان الكلام واقعاً فى رتبة المجاز ، فأما ما كان من الكلام موضوعاً على أصل حقيقته فلا مدخل له فيه ، ويؤيد ما ذكرناه ويوضحه أن السعة

---

(١) أنظر نهاية الايجاز فى دراية الإعجاز ص ١١٠ ، ١١١ .

فى الـكلام والافتتان فيه إنما يكون حاصلا بالدخول فى الأنواع المجازية ، فأما الحقائق فهى قليلة بالإضافة إلى المضطربات المجازية ، وهو الذى أوجب انشعاب البديع إلى تلك الأصناف التى أسلفناها ، فإنه لم يقع اختلافها إلا لما تعلق بها من التصرف فى المجاز والدخول فيه كل مدخل ، ولهذا فإن العرب يمتازون فى كلامهم على العجم بهذه الخصلة[١] » .

فإذا انتقلنا إلى الأمر الثانى ، وهو مدخل البديع فى الإعجاز القرآنى نجد أن فنون البديع لا تقل شأناً فى إظهار روعة القرآن الـكريم وسر فصاحته وبلاغته عن مسائل علمى المعانى والبيان ، وأنها ألوان — أعنى ألوان البديع — يستدل بها على إعجاز القرآن الـكريم كما يستدل على إعجازه بمسائل التقديم والتأخير والحذف والتشبيه والإستعارة وما إلى ذلك من مسائل العلمين : المعانى والبيان . ولنأخذ بعض الأمثلة على ذلك .

خذ الطباق فى قوله تعالى « قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شىء قدير »[٢] نجد الآية قابلت بين تؤتى وتنزع ، وبين تعز وتذل ، وإذا عرفنا أن الغرض من الآية هو تصوير القدرة فى أوسع معانيها ، وبيان السلطان فى أشمل مظاهرة وأكملها ، فإننا ندرك أن هذا الغرض لا يتم إلا بالجمع بين الضدين ، والحكم بأنه يقدر على الأمرين ، الإيتاء أو ما فى معناه والنزع أو ما فى معناه ، وكذلك الإعزاز والإذلال ، ولما كان مقياس الذاتية والفرضية عند المتأخرين من علماء البلاغة هو عدم استقامة الأغراض بفقدان الاول ، واستقامتها بفقدان الثانى كان جديراً بنا أن نعرض الطباق على هذا المقياس ونجعله حكما فيه ، فإنك إذا طبقت هذا على

(١) الطراز ٣/٢١١ .

(٢) آل عمران . ى : ٢٦

مثل تلك الآية الكريمة من أساليب اقتنعت بأن ذكر المقابل لا محيص عنه فى صياغة مثل هذا الغرض ، إذ قد يقدر شخص على الإيتاء ولكنه لا يقدر على النزع ، ويستطيع إنسان أن يعز ، ولكنه قد يعجز عن الإذلال ، ومع هذا لا تضن عليه بوصفه بالقدرة ، ولكن المضنون به عليه هو الحكم له بالقدرة التامة ، والسلطان الشامل ، فتلك هى تستحوذ على الامرين ، وتتعلق بالضدين . وهذا كاف فى إثبات التحسين الذاتى لأساليب الطباق ، وعلى غراره تجرى أساليب المقابلة .

ولو نظرنا إلى أساليب « مراعاة النظير » فى القرآن الكريم مثل قوله تعالى : « الشمس والقمر بحسبان »[1] نجد هذه الآية جمعت بين الشمس والقمر وهما متناسبان لتقارنهما فى الخيال ، وكونهما كوكبين سماويين يبددان ظلام الكون ، وإذا كان الغرض من هذا الجمع هو الحكم عليهما بأنهما يجريان فى بروجهما بحسبان معلوم المقدار لا يزيدان عليه ولا ينقصان عنه ، وفى ذلك نظام الكائنات واختلاف الفصول والاوقات وحساب الشهور والسنين كان ذلك الصنيع أخصر فى الطرق أداء هذا الغرض وإيصاله إلى إلى النفوس ، نعم يمكن أن يقال فى غير القرآن : الشمس بحسبان ، والقمر بحسبان ، فيكون لغواً من القول وباطلا من التأليف لأنه إطناب لا داعى له ، ولا غرض يستدعيه . فأساليب مراعاة النظير التى عمادها : جمع أمر وما يناسبه لا بالتضاد مما تقتضيها الاحوال وتستدعيها الاغراض .

وكذا لو تأملنا أسلوب « الإرصاد » فى قوله تعالى « وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » فغرض الآية — والله أعلم — نفى أن يكون من الله ظلم للعباد وإثبات ظلمهم لانفسهم ، وطبيعة الاسلوب الذى يؤدى به مثل ذلك الغرض أن يدل أوله على آخره : وسابقه على لاحقه .

---

(١) الرحمن . ى : ٥ .

ولذلك يقول السبكي : لو وقف القارىء على أنفسهم لفهم أن بعده يظلمون ... وروى أنه لما بلغت قراءة النبي ﷺ ثم أنشأناه خلقاً آخر، قال عبد الله بن أبي سرح « فتبارك الله أحسن الخالقين » فقال النبي ﷺ كذلك أنزلت[1] .

وإذا كان الغرض متعلقاً بمثل هذا كان ما دعوه باسم الإرصاد عائداً على الأسلوب بالتحسين الذاتي ، لأنه مما يقتضيه المقام[2] .

والأمثلة القرآنية المشتملة على ألوان البديع أكثر من أن يتسع لها هذا المقام فهي كثيرة ومبثوثة في أساليب القرآن وآياته ، وكلها تشهد بأن حسنها ذاتي داخل في صميم البلاغة ودال على عظمة القرآن وإعجازه .

وقد أكد الدكتور / محمد أبو موسى على أن البلاغة القرآنية يتساوى فيها ألوان البديع وفنون المعاني والبيان ، فبلاغة القرآن المعجزة تحيط بكل هذه الألوان والفنون وذلك في قوله عن ألوان البديع في تفسير الزمخشري « عرض الزمخشري للمشاكلة والطباق والجناس والمزاوجة والتقسيم وغير ذلك مما جعله المتأخرون من علم البديع ، كما عرض لفنون البيان والمعاني، ولا أجد من كلامه ما يدل على أن الألوان التي جعلها المتأخرون من علم البديع دون غيرها من فنون البيان والمعاني من حيث أثرها في قوة الكلام وبلاغته وقد نظرت في كتابه كله ، ووقفت عند كل لون ذكره من هذه الألوان فوجدته يشير إلى بلاغتها ، وإلى أنها فن من كلامهم بديع ، وطراز عجيب ، وأنها من مستغرب فنون البلاغة ، ثم يشيد ببلاغة القرآن المعجزة التي تحيط بكل هذه الفنون ، وتوجد فيها على أحسن صورة وأقوم منهج .

---

(١) أنظر عروس الأفراح ٤/٣٠٨ .

(٢) الصنع البديعي ٤٧٣ .

يقول فى المشاكلة ولله در التنزيل وإحاطته بفنون البلاغة وشعبها لا تكاد تستغرب منـــه فنا إلا عثرت عليه فيـه على أقوم مناهجه وأسد مدارجه

ويقول فى نوع من أنواع اللف إنه لطيف المسلك ، لا يكاد يهتدى إلى تبينه إلا النقاب المحدث من علماء البيان .

ويذكر إعجاب شريح القاضى ببلاغة الشاهد الذى راعى المشاكلة حين قال له شريح إنك لسبط الشهادة ، فقال الرجل : إنها لم تجعد عنى ، فقال له شريح لله بلادك وقبل شهادته .

ثم هو يبسط هذه الألوان ويحللها ، ويشرح أسلوبها ، وماتنطوى عليه من أسرار ونكت ، وهذه طريقته فى دراسة فنون البيان والمعانى[1] .

وقد صرح العلامة صفى الدين الحلى بأن محاسن البديع يعرف بها — كما يعرف بغيرها من ألوان المعانى والبيان ومسائلهما —وجه إعجاز القرآن الكريم ، وذلك فى قوله : « لا سبيل إلى فهم القرآن الكريم ومعرفة حقائقه إلا بمعرفة علم البلاغة وتوابعها من محاسن البديع اللتين بهما يعرف وجه إعجاز القرآن وصحة نبوة محمد ﷺ بالدليل والبرهان[2] .

مما سبق يتضح — بما لا يدع مجالا للشك — أن علم البديع لا يقل منزلة وشأناً عن العلمين الآخرين : المعانى والبيان ، فإن مدخله فى بلاغة الكلام وقوته ، وإعجاز القرآن الكريم وسر عظمته جعلا له من الفضل والمزية مالهما .

---

(١) البلاغة القرآنية فى تفسير الزمخشرى ص : ٤٧٩ .

(٢) شرح الكافية البديعية . ص : ٥٢ .

وقد سبقت الإشارة إلى أن البديع كان اسماً لكل فنون البلاغة وعناصر الجمال التي تميز الأدب من غيره . وهذا إمام البلاغيين عبد القاهر الجرجاني لا يرى البديع إلا وصفاً للبلاغة بمعناها العام ، فتراه يقول : « وأما التطبيق والاستعارة وسائر أنواع البديع فلا شبهة أن الحسن والقبح لا يعترض الكلام بهما إلا من جهة المعاني خاصة[1] » .

فالاستعارة عنده كالطباق وسائر ما يحسن الكلام ويجعل له أثراً في النفوس ومدخلا في بلاغته كلها ، يطلق عليه اسم البديع .

وإذا كان من فرق بين مسائل البديع ومسائل كل من المعاني والبيان فمن حيث طبيعة هذه الألوان وتلك ، فإن ألوان البديع لا ارتباط بينها ، فلا تعلق للون منها بالآخر . وعلى عكس ذلك مسائل المعاني والبيان التي نجدها مترابطة ومتشابكة ويتعلق بعضها بالبعض الآخر .

يقول الدكتور أبو موسى : « لا تحتاج ألوان البديع إلى ماتحتاج إليه فنون البيان من الدراسة والتحليل ، فكل لون منها مستقل عن صاحبه فدراسة الجناس غير مرتبطة بدراسة الطباق ، ودراسة المشاكلة غير مرتبطة بدراسة السجع ، فليس فن منها مبنيا على فن ، وليس فن منها قسيما لفن ، وذلك بخلاف ألوان البيان التي نجدها متشابكة ، فالاستعارة مبنية على التشبيه والتمثيل قسم من التشبيه ، والمجاز منه مجاز في الكلمة ومنه مجاز في الحكم ، والمجاز في الكلمة ينقسم إلى مجاز مرسل واستعارة ، والكناية أخت المجاز ، وغير ذلك من الروابط بين هذه الفنون التي يتفرع بعضها عن بعض ويستلزم بعضها بعضا ، لذلك كانت مباحث البيان كأنها مبحث

---

(١) أسرار البلاغة ١/١١٢ .

واحد ، وكانت مباحث البديع كأنها مباحث متفرقة[١] .

ومما تجدر الإشارة إليه أن عدم الترابط والتفرق بين ألوان البديع كانا سببا فى نضج هذه الألوان واكتمالها قبل ان تنضج مسائل المعانى والبيان وتكتمل ، ذلك لأن مسائل العلمين المعانى والبيان — نظراً للترابط القائم بينهما — بحاجة إلى نضج عقلى ومستوى من الذوق لم يكن ليتهيأ فى وقت مبكر ، ولم يتهيأ ذلك النضج العقلى والذوقى إلا فى منتصف القرن الخامس الهجرى على يد الإمام عبد القاهر الجرجانى ، بينما كانت مباحث البديع وفنونه قد اكتملت قبل بداية القرن الخامس ، ولذلك فإن عبد القاهر لم يشغل نفسه بهذه الألوان كما شغل نفسه بدراسة مسائل النظم وألوان البيان .

❁ ❁ ❁

---

(١) البلاغة القرآنية فى تفسير الزمخشرى . ص : ١٧٩ ، ١٨٠ .

أقسام المحسنات البديعية

قسم العلوى صاحب الطراز ألوان البديع ومحسناته إلى ثلاثة أضرب :

الأول : ما كان التحسين فيه راجعا إلى الفصاحة اللفظية ، ومنه ما يرد في المنظوم والمنثور كالتجنيس والترصيع ولزوم مالا يلزم ، وغير ذلك من أصناف البديع ، ومنه ما كان مختصا بالمنظوم كالتصريع ، فإنه مخصوص بالقوافي لا يرد إلا فيها .

وضابط هذا الضرب ـ عنده ـ أن كل ما كان متعلقه ما يرجع إلى الألفاظ فهو بفصاحة الألفاظ أشبه .

الثاني : ما كان التحسين فيه راجعاً إلى الفصاحة المعنوية كالتفويف والتوشيع وغير ذلك من الأصناف المتعلقة بعلوم البلاغة .

وضابط هذا الضرب أن كل ما كان متعلقاً بالمعاني فهو من باب الفصاحة المعنوية .

الثالث : ما كان التحسين فيه بمعزل عن الفصاحة اللفظية والفصاحة المعنوية على الخصوص ، ولكنه ينزل منزلة التتمة والتكملة لهما ، ويكون تحسينا لهما وتزيينا لمواقعهما ، وذكر منها الكمال والاستيعاب والإيضاح وغيرها[1] .

وواضح من تقسيم صاحب الطراز أن القسم الثاني الذي ذكره لاجدوى له ؛ لأن الأصناف التي أدخلها في هذا القسم بعضها مما يتصل بتحسين المعاني ، وبعضها مما يتصل بتحسين الألفاظ .

---

(١) انظر الطراز ٣/٢٠٧ وما بعدها .

ولذا فإن جمهور البلاغيين يقسمون هذه المحسنات إلى قسمين : —

أحدهما : محسنات معنوية ، وهى التى يكون التحسين فيها راجعاً إلى المعنى أولا وبالذات ، كالطباق والمقابلة وحسن التعليل وغيرها ، وإن كان بعضها قد يفيد تحسين اللفظ أيضاً ، لكن تحسينه للفظ لا يكون أصلا فى التحسين ، بل يأتى ثانيا وبالعرض ، وذلك كالمشاكلة التى هى : ذكر الشىء بلفظ غيره لوقوعه فى صحبته كما مر فى قول الأنطاكى : —

قالوا : اقترح شيئاً نجد لك طبخه　　قلت : اطبخوا لى جبة وقميصا

فقد عبر عن الخياطة بالطبخ لوقوعها فى صحبته ، فاللفظ حسن لما فيه من إيهام المجانسة اللفظية لأن المعنى مختلف واللفظ متفق ، لكن الغرض الأصلى جعل الخياطة كطبخ المطبوخ فى اقتراحهان ، لوقوعها فى صحبته . وكما فى العكس فى قولهم : عادات السادات سادات العادات ، فإن فى اللفظ شبه الجناس اللفظى لاختلاف المعنى ، ففيه التحسين اللفظى ، والغرض الأصلى الإخبار بعكس الإضافة مع وجود الصحة .

وضابط هذا النوع من المحسنات أنك لو غيرت بعض الألفاظ الدالة عليه والمؤدية له بما يرادفه لا يتخلف التحسين ، فلو قلت فى قول الشاعر :

وقد أطفأوا شمس النهار وأوقدوا　　نجوم العوالى فى سماء عجاج

حيث طابق بين أطفأوا وأوقدوا — لو قلت : وأضاءوا أو أشعلوا فإن التقابل لا يزال باقياً ، والحسن ما زال موجودا .

ثانيهما : محسنات لفظية ، وهى التى يكون التحسين فيها راجعاً إلى اللفظ أولا وبالذات وإن حسنت المعنى تبعاً وثانيا ، كالجناس فى قوله تعالى :

« ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون مالبثوا غير ساعة[1] » فالساعة الأولى يوم القيامة ، والساعة الثانية واحدة الساعات الزمانية ، فالتحسين - كما ترى - للفظ وإن كان له مدخل فى حسن المعنى وجماله .

وضابط هذا النوع أنك لو غيرت اللفظ بما يرادفه ذهب التحسين واختفى الحسن ، فلو قلت فى قول الشاعر : —

عضنـــا الدهر بنـــا به   ليـــت ما حـــل بنـــا

ليت ما أصابنا أصابه لذهب الجناس واختفى التحسين .

وسوف نعرض - فيما يلى - بعض هذه المحسنات ، متوخين السهولة والوضوح والإكثار من الشواهد قصد الكشف والتوضيح لهذه الألوان

❁ ❁ ❁

(١) الروم . ص ٥٥ .

أولا : المحسنات المعنوية

المحسنات المعنوية كثيرة ، لكنا سنقتصر على بعضها مما أشتهر أمره وذاع ذكره وكثر وروده فى الأدب العربى .

١ — الطبـــــاق

ويسمى المطابقة أو التضاد[١]

معناه فى اللغة :

الطباق والمطابقة كلاهما مصدر للفعل طابق ، يقال طابقت بين الشيئين إذا جعلتها على حذوٍ واحد وألزقتهما ، وطابق بين قميصين : ليس أحدهما على الآخر ، وطابق الفرس فى جريه : إذا وضع رجله فى موضع يده .

والطبق: غطاء كل شيء ، والجمع أطباق، وطبق كل شيء : ما ساواه ، وطبق الماء وجه الأرض : غطاه ، وأصبحت الأرض طبقا واحداً إذا تغشى وجهها بالماء ، وأصبح الماء طبقا للأرض . وفى حديث الاستسقاء : اللهم اسقنا غيثا مغيثا وطبقا ، أى : مالئا للأرض مغطيا لها .

والسموات الطباق : التى بعضها فوق بعض ، وفى التنزيل : « ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا[٢] » .

فالمادة إذن تدور حول الموافقة والمساواة والمناسبة .

---

(١) ويسمى أيضاً بالتطبيق ، والتكافؤ ، لأن المتكلم يكافىء بين اللفظين : أى يوافق بينهما . حاشية الدسوقى ٢٨٦/٤ .

(٢) نوح . ى : ١٥ .

والتضاد تفاعل من ضاد الشيء الشيء ، أو ضده فى الخصومة ، أى : خالفه فهما متضادان . وضد الشيء : خلافه والجمع أضداد .

معناه فى الاصطلاح :

الطباق فى اصطلاح البلاغيين هو أن تجمع فى الكلام الواحد — أو ما هو كالكلام الواحد فى الاتصال بين معنيين متقابلين فى الجملة .

والمراد بالتقابل — عند البلاغيين — أن يكون بين المعنين مطلق تنافى دون نظر إلى نوع هذا التنافى أو مقداره .

فالتقابل بهذا المعنى الواسع — لا يشترط أن يكون التنافى فيه من جميع الصور ، أو من كل الوجوه ، بل يكفى أن يكون فى الجملة ودون تفصيل ، ولذا كان التعريف مقيداً بهذا القيد الذى يفسح الدائرة ويوسعها لا ليغلقها أو يضيقها ، وهو قيد « فى الجملة » .

وقد أفاد التقييد بهذا القيد أمرين هامين : —

أولهما : ألا يشغل الدارسون بالهم بتعيين مقدار التنافى بين المعنيين ، كتحديد نوع العلاقة بينهما ، سواء كانت بالتضاد ، أو التناقض أو غيرهما إذ يكفى التنافى فى الجملة ليتحقق بين المعنيين مفهوم المطابقة .

ثانيهما : أن هذا القيد جعل التقابل ، والتنافى بين المعنيين يكفى أن يكون فى بعض الصور ، ومن المعلوم أن المتقابلين فى بعض الصور إنما يكون التنافى بينهما باعتبار ذلك البعض من الصور ، أما باقى الصور فلا ينظر إليها ، لعدم الحاجة إليها فى تحقيق المطابقة بين المعنيين .

وعلى هذا فإن التقابل يتسع ليشمل كل أنواع العلاقات بين المعنيين التى تجعل بينهما قدراً ما من التنافى ، ومن أهم هذه الأنواع : ـ

١ — التقابل الحقيقى . كتقابل الأمرين اللذين بينهما غاية الخلاف لذاتيهما ، كتقابل القدم والحدوث ، فلو جمع بين هذين المعنيين فى كلام أو ما يشبه الكلام فى الاتصال كان الكلام مشتملا على المطابقة وعليه مقابلة الإحسان بالإساءة فى قول الشاعر[1] :

يجزون من ظلم أهل الظلم مغفرة ومن إساءة أهل السوء إحسانا

فالإساءة والإحسان معينان بينهما غاية الخلاف لذاتيهما ، فكان تقابلهما تقابلا حقيقيا .

٢ — التقابل الإعتبارى كتقابل الإحياء والإماتة ، فليس بين الإحياء والإماتة تقابل حقيقى ؛ لأنهما لا يتقابلان إلا باعتبار بعض الصور ، وهو أن يتعلق الإحياء بحياة جرم فى وقت والإماتة بإماتته فى ذلك الوقت وإلا فلا تقابل بينهما باعتبار أنفسهما ، ولا باعتبار التعلق عند تعدد الوقت ، ومع ذلك فوجود هذا النوع من التقابل كاف فى تحقيق المطابقة متى وجد ، لذا نراه فى قوله تعالى « أو من كان ميتا فأحييناه[2] » .

٣ — التقابل بالتضاد . كتقابل البياض والسواد على الجرم الواحد الموجود بناء على أنهما وجوديان ، وذلك كقوله :

فالوجه مثل الصبح مبيض والفرع مثل الليل مسود
ضدان لما استجمعا حسنا والضد يظهر حسنه الضد

فالتقابل بين البياض والسود فى البيت حقق المطابقة بينهما .

---

(١) هو قريط بن أنيف العنبرى . الصناعتين ص ٣٢٥ .
(٢) الأنعام ى : ١٢٢ .

٤ — تقابل الإيجاب والسلب . كتقابل مطلق الوجود وسلبه ، كالذى نراه فى قوله تعالى « ولكن أكثر الناس لا يعلمون يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا[١] » . فهذه الآية ليس فيها تقابل على الحقيقة بين العلم المنفى والعلم المثبت ، ولكن بينهما تقابل فى الجملة إذا أخذا على الإطلاق[٢] .

٥ — تقابل العدم والملكة — كتقابل العمى والبصر ، والقدرة والعجز بناء على أن العجز نفى القدرة عمن من شأنه الاتصاف بالقدرة ، وعليه قوله تعالى : « قل هل يستوى الأعمى والبصير[٣] » فالأعمى والبصير بينهما مطابقة لأنهما متقابلان أو متنافيان لتنافى العمى والبصر .

٦ — تقابل التضايف — كتقابل الأبوة والبنوة — وقيل إن الجمع بين الأبوة والبنوة من باب مراعاة النظير وليس طباقاً ، ورد بأن مراعاة النظير يكون فيما لا تنافى فيه كالشمس والقمر ، بخلاف ما فيه التنافى كالأبوة والبنوة ، ونجد هذا النوع الذى تحقق به المطابقة فى قوله تعالى : « آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعا[٤] » .

وعلى الجملة فإن التقابل يشمل كل ما يشعر بالتنافى ، لاشتماله بوجه ما على ما يوجب التنافى ، كما نرى ذلك فى قوله[٥] :

مها الوحش إلا أن هاتا أوانس
قنا الخط إلا أن تلك ذوابل

---

(١) الروم . ى : ٦ ، ٧ .
(٢) عروس الأفراح ٤/٢٨٦ .
(٣) الرعد . ى : ١٦ .
(٤) النساء . ى : ١١ .
(٥) هو أبو تمام . الايضاح ٤/٧ .

فقد طابق الشاعر بين هاتا وتلك ، لما في هاتا من القرب وتلك من البعد ، وهذا كاف في تحقيق التنافي الموجب للمطابقة .

ومن ثم فقد جاء تعريف الآمدي للطباق مؤكداً لهذا العموم في التنافي حيث عرفه بأنه : مقابلة الحرف بضده أو ما يقارب الضد[1] .

وما سبق ليس تقسيماً للطباق ، أو للعلاقة التي تكون بين معنيين متقابلين ، وإنما هو محاولة لحصر أنواع العلاقة بين المعنيين ، أو ذلك القدر من التنافي الذي يحقق المطابقة بين معنيين .

المناسبة بين المعنى اللغوي والمعنى الاصطلاحي :

إذا نظرنا إلى معنى المطابقة في لغة العرب ، ومعناها في اصطلاح البلاغيين نجد المناسبة بين المعنيين واضحة جليه ، ومتينة قوية ، لأن المتكلم وفق بين المعنيين المتقابلين كما يوافق بين الشيئين المختلفين فيجعلا على حذو واحد . أو كما يوفق بين القميصين فيجعل أحدهما فوق الآخر .

وجعل المتكلم الضدين متوافقين حيث وفقا في جملة واحدة ، واستويا في ذلك مع بعد الموافقة بينهما أشبه بوضع الغطاء على الشيء حيث جعل الشيء متوافقاً مع غطائه وملتحماً معه ، كما أنه أشبه بوضع الفرس رجله موضع يده ، لأن يده ورجله المتقابلتين إذا التقتا في موطىء واحد ، وجمعا في مجمع واحد فقد حصل بينهما توافق وتناسب[2] .

وعلى الجملة فإن مادة المطابقة إذا كانت تدور في لغة العرب حول الموافقة

---

(١) الموازنة ١/٢٨٠ .
(٢) انظر مواهب الفتاح ٤/٢٨٦ .

والمساواة فإن المتكلم المطـــابق فى كلامه يوافق بين المعنيين المتقابلين ويسوى بينهما .

ومناسبة معنى التضاد اللغوى ومعناه الاصطلاحى أيضاً واضحة : لأن كلا المعنيين ضد الآخر ومخالف له ، وإن كان قد حصل بينهما جمع وتوفيق فى كلام واحد .

معنى الطباق عند قدامة بن جعفر :

ما سبق من تعريف الطباق عند البلاغيين هو ما ذهب إليه جمهورهم ، لكن قدامة بن جعفر الكاتب ومعه قوم ذهبوا إلى أن الطباق هو : اتحاد الكلمتين فى اللفظ مع اختلافهما فى المعنى . وقد استشهد قدامة للطباق بشواهد منها قول الأفوه الأزدى :

وأقطع الهـــوجل مستأنساً بهوجل عيرانة عنتريس[1]

فقد جاءت لفظة الهوجل فى هذا البيت واحدة ، ولكنها ذات معنيين لأن الأولى معناها الأرض ، والثانية معناها الناقة .

وكذلك قول أبى دواود الإيادى :

عهـــدت لها منزلا داثراً وإلا على الماء يحملن إلا

فإلا الأولى فى المعنى غير الثانية ، لأن الأولى أعمدة الخيام ، والثانية ما يرفع الشخوص من السراب[2]

هذا هو معنى الطباق عند قدامة ومن تبعه ، وإن كان الآمدى يرى أنه

---

(١) عيرانه عنتريس : الناقة السريعة الممتلئة .

(٢) انظر نقد الشعر ص ١٦٢ ، ١٦٣ .

لم يذهب هذا المذهب فى مخالفة الجمهور غير قدامة حيث قال : « ما علمت أن أحداً فعل هذا غير أبى الفرج[١] » . ولئن كان صاحب العمدة يرى أن جماعة تبعوا قدامة فيما ذهبوا إليهم منهم النحاس[٢] .

ولا يخفى أن هذا الذى سماه قدامة طباقاً هو « الجناس » عند جمهور البلاغيين ، أما الطباق عند جمهور البلاغيين فقد نعته قدامة بـ « التكافؤ » وخصه بهذا الإسم .

وهذا الذى صنعه قدامة وأتباعه لم يعجب كثيراً من نقاد الأدب منهم أبو بشر الآمدى ، فقد علق على هذا الصنيع بقوله : « لم أكن أحب له أن يخالف من تقدمه ، مثل أبى العباس عبد الله بن المعتز وغيره ممن تكلم فى هذه الأنواع وألف فيها ، إذ قد سبقوا إلى التلقيب[٣] .

أثر الطباق وبلاغته فى الكلام :

الجمع بين المتقابلين من الأمور الفطرية المركوزة فى الطباع ولها تعلق وثيق ببلاغة الكلام وأثر فى النفوس ، فما جاء طباق فى الكلام إلا وتعلق به غرض من الأغراض ، لا يؤدى ذلك الغرض بدونه ، وهذا هو معنى الذاتية ، والأصالة التى تكلم عنها علماء البلاغة عندما أشاروا إلى أن مسائل التقديم والتأخير والذكر والحذف والتشبيه والاستعارة وغير ذلك من ألوان علمى المعانى والبيان لها مدخل فى بلاغة الكلام لأن حسنها ذاتى أصيل .

---

(١) الموازنة ١/٢٩١ .
(٢) انظر العمدة ٢/٥ .
(٣) الموازنة ١/٢٩٢ .

ونحن إذا تأملنا أساليب الطباق وجدنا لهذا اللون مدخلا فى بلاغة هذه الأساليب وأثراً فى قوتها ، وأن فقدانه يخل بهذه الأساليب ولا يجعلها مستقيمة ، وقد سبقت الإشارة إلى بلاغة الطباق فى قوله تعالى : « قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء »[1] .

وحتى يزداد الأمر وضوحاً انظر إلى قول الفرزدق :

لعن الإله بنى كليب إنهم   لا يغدرون ولا يفون لجار
يستيقظون على نهيق حمارهم   وتنام أعينهم عن الأوتار

فالغرض الذى قصده الشاعر هو الحط من شأن هؤلاء القوم والكشف عن ذلتهم وهوانهم ، وأن أفعالهم مثيرة للسخرية والاستهزاء وقد حقق له الطباق ما أراد ، ولولا الطباق ما استطاع الشاعر أن يكشف عن غرضه ، فهؤلاء القوم عاجزون ، والعاجز عادة لا يقدر أن يفعل الشىء وضده ، فهم - إزاء جارهم - لا يقدرون على الوفاء له أو الغدر به ، كما كان ذكر الأمرين المتناقضين فى البيت الثانى دليلا على هوانهم وأنهم موضع السخرية ، فهم يستيقظون - منزعجين - إذا نهق حمارهم حذراً من أن يكون هناك لص يأخذ بعض متاعهم ، لأنهم يخافون عليها خوفاً شديداً ، بينما هم لا يبالون بكرامتهم أن تنتهك ، فأعينهم نائمة عن الثأر لا يعنيهم أن يأخذوا به ، وفى ذلك أكبر دليل على هوانهم .

فالطباق فى البيت الثانى - كما ترى - جعل الموازنة بين أفعالهم مثيرة للسخرية منهم ، عند الموازنة بين ما يستيقظون له ، وما ينامون عنه .

---

(١) آل عمران . ى : ٢٦ .

وهكذا يكون للطباق أثره فى إثارة الانفعالات المختلفة فى نفس القارىء أو السامع إزاء الأمور المتناقضة .

وهذا القدر كاف فى إثبات أن حسن الطباق حسن ذاتى أصيل ، وعلى غراره تجرى كل الأساليب المشتملة على هذا اللون .

وقد سبق أن ذكرنا أن الإمام فخر الدين الرازى فى نهاية الإيجاز أدرج هذا اللون ضمن مسائل النظم ، فهو من مقتضيات الأحوال ، وموجبات الأغراض[1] .

وفضلا عن هذا فإن الجمع بين الشىء وضده يضفى على الكلام رونقاً وبهاء ، ويكسب المعنى حسنا ونبلا ، فهو فوق تثبيته المعنى فى النفس ، - لأن الضد أقرب خطوراً بالبال عند ذكر ضده - يصف الشىء المتحدث عنه إزاء الضدين المتقابلين ، ويجعل لكل منهما حسنا لا يكون لهما إذا انفردا ، وهذا هو معنى قول القائل :

فالوجه مثل الصبح مبيض　　والفرع مثل الليل مسود
ضدان لما استجمعا حسنا　　والضد يظهر حسنه الضد

* * *

---

(١) نهاية الإيجاز ص ١١٠ ، ١١١ .

أقسام الطباق

للطباق تقسيمات كثيرة ، وتعدد تقسيماته بتعدد الاعتبارات التى يقوم عليها وأشهر هذه التقسيمات تقسيمان :

التقسيم الأول : ويكون باعتبار اشتمال أحد طرفيه على النفى من عدمه .

والطباق - بهذا الاعتبار - ينقسم إلى قسمين : طباق السلب وطباق الإيجاب .

فطباق السلب هو : أن تجمع بين فعلى مصدر واحد ، أحدهما مثبت والآخر منفى ، أو أحدهما أمر والثانى نهى . فهو نوعان :

النوع الأول : أن يكون أحد طرفيه مثبت والآخر منفى .

ومن أمثلته قوله تعالى : « ولـكن أكثر الناس لا يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا[1] » فقد جمع فى كلام واحد بين فعلين لمصدر واحد هو العلم ، وأحد الفعلين جاء منفيا والآخر جاء مثبتاً : ومثله قوله تعالى : « قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون »[2] .

وواضح أن الطرف المنفى جاء أولا فى الآية الأولى ، بينما جاء ثانياً فى الآية الثانية ، ولا فرق فى تحقق المطابقة بينهما .

ومنه قوله تعالى « واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئا وهم يخلقون »[3]

(١) الروم . ى ٦ ، ٧ .
(٢) الزمر . ى : ٩ .
(٣) الفرقان . ى : ٣ .

وقوله : « وما رميت إذ رميت »[1] ، وقول الحسن : « أما تستحيون من طول مالا تستحيون »[2] .

وقد جاء فى الأشعار فى قول السموأل :

ونـنكر إن شئنا على الناس قولهم　　ولا ينـكرون القول حين نقول

وقول البحترى :

يقيض لى من حيث لا أعلم الهوى　　ويسرى إلى الشوق من حيث أعلم

وقول أبى الطيب :

ولقد عرفت وما عرفت حقيقة　　ولقـد جهلت وما جهلت خمولا

وقول الآخر :

خلقوا وما خلقوا لمـكرمـة　　فـكأنهم *خلقوا وما خلقوا

رزقوا وما رزقوا سماح يد　　فـكأنهم رزقوا وما رزقوا

وقول جرير :

أتصحو أم فؤادك غير صاح　　عشية هم صحبك بالرواح

تلك بعض أمثلة النوع الأول من طباق السلب ، ومن اليسير الوقوف على ما فيها من المطابقة ، فطرفا المطابقة فى كل منها فعلان لمصدر واحد جاء أحـدهما مثبتا والآخر منفيا ، فالفعلان لا إختلاف بينهما وإنما الاختلاف من حيث إن أحدهما مثبت والآخر منفى .

---

(١) الأنفال . ى : ١٧ .

(٢) انظر الصناعتين ص ٣١٩ .

ومن هذا النوع ـ وإن لم يكن داخلا فى التعريف ـ قوله تعالى :
« ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة »[1] ، وقول بعض الأعراب :

أمؤثرة الرجال على ليـــلى ولم أوثر على ليلى النساء

وقول السيد أبى الحسن :

وأعلم أن المجـد شىء مخلد وأن الفتى والمـال غير مخلد

فالطباق فى الآية الكريمة بين « مخلقة » وهو مثبت « وغير مخلقة » وهو منفى وفى البيت الأول بين « مؤثرة » وهو مثبت « ولم أوثر » وهو منفى وفى قول أبى الحسن بين « مخلد » وهو مثبت « وغير مخلد » وهو منفى .

وإنما كان هذا ليس داخلا فى التعريف ، لأنهم خصوا طباق السلب بالأفعال دون الأسماء ، والأولى أن يقال فى تعريف هذا النوع : أن يجمع بين الثبوت والانتفاء ، ليشمل نحو ما سبق ، ويدخل فيه قولك :
أحسبك إنساناً ولست بإنسان ، ولست بعالم وأنا عالم ، ونحو ذلك[2] .

النوع الثانى : أن يكون أحد طرفيه أمراً والثانى نهيا .

ومن أمثلته قوله تعالى « فلا تخشوا الناس واخشون »[3] فقد جمع فى الآية بين فعلين لمصدر واحد وهو الخشية ، وأحد الفعلين أمر والآخر نهى ، ومثله قوله تعالى « فلا تلومونى ولوموا أنفسكم »[4] .

وعليه قول الشاعر :

لا تسألن بنى آدم حاجة وسل الذى أبوابه لا تحجب

---

(١) الحج ، ى : ٥ .
(٢) انظر حاشية الدسوقى ٤/٢٩٠ .
(٣) المائدة . ى : ٤٤ .
(٤) إبراهيم . ى : ٢٢ .

الله يغضب إن تركت سؤاله ‏ ‏ وبنو آدم حين يسأل يغضب

فالأول نهى من السؤال ، والثانى أمر به .

ولا يخفى أن مصدر الفعل الواحد لا يؤمر به وينهى عنه من جهة واحدة بل من جهتين كما فى الأمثلة المتقدمة ، فقد أمر بالخشية باعتبار كونها لله تعالى ، ونهى عنها باعتبار كونها للناس . وكذا يقال فى باقى الأمثلة . فالتنافى بين الأمر والنهى يكون باعتبار أصلهما ، لا باعتبار مادة إستعمالها فإنه لا يوجد إلا فرضا وتقديراً »[1] .

وطباق الايجاب هو : أن يجمع بين معنى وما يقابله لا بالنفى والإثبات أو الأمر والنهى ، وهو نوعان :

النوع الأول : أن يكون المعنيان قد دل عليهما بلفظين من نوع واحد، اسمين أو فعلين أو حرفين .

فما كان الطباق فيه بين اسمين نجده فى قوله تعالى « وتحسبهم أيقاظا وهم رقود »[2] فالطباق بين أيقاظا ، ورقود وهما إسمان . فإن اليقظ يقابل الراقد لتقابل اليقظة والرقاد وهو النوم ، ومنه قوله تعالى : « وقيل يا أرض إبلعى ماءك ويا سماء أقلعى وغيض الماء »[3] فالتقابل بين أرض وسماء ، وقوله : « أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى »[4] حيث قابل بين الضلالة والهدى ، وقوله : « الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور »[5] .

---

(١) انظر مواهب الفتاح ٤/٢٩١ .

(٢) الكهف . ى : ١٧ .

(٣) هود . ى : ٤٤ .

(٤) البقرة . ى : ١٦ .

(٥) البقرة . ى : ٢٥٧ .

ونظير ذلك قوله ﷺ: أوصاني ربي بتسع أوصيكم بها : أوصاني بالإخلاص في السر والعلن ، والعدل في الرضا والغضب والقصد في الفقر والغنى . . . الحديث ، فالطباق في الحديث الشريف بين السر والعلن ، والرضا والغضب، والفقر والغنى ، وهي معان متقابلة وكلها أسماء كما هو واضح .

وفي الشعر جاء قول ابن المعتز :

هواى هـــوى باطن ظاهر قديم حديث لطيف جليل

فقد طابق بين باطن وظاهر ، وبين قديم وحديث .

وقول امرىء القيس في وصف فرسه :

مـكر مفر مقبل مدبر معاً كجلمود صخر حطه السيل من عل

طابق بين مـكر ومفر ، وبين مقبل ومدبر .

وقوله أيضا :

بمـاء سحاب زل عن متن صخرة
إلى بطن أخرى طيب طعمه خصر

حيث طابق بين متن وبطن .

فالطباق في هذه الأبيات جاء بين لفظين من نوع واحد ، وهما إسمان .

وما كان الطباق فيه بين فعلين تراه في قوله تعالى «قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير »[1] فقد طابقت الآية الكريمة بين تؤتي وتنزع وبين تعز وتذل وهي أفعال .

ومنه قوله تعـالى : « وأنه هو أضحك وأبكى ، وأنه هو أمات

---

(١) آل عمران : ٢٦ .

وأحيا »[١] وقوله : « فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى »[٢] وقوله : « إذ قال إبراهيم ربى الذى يحيى ويميت »[٣] .

فالتقابل فى هذه الآيات الثلاث بين أمات وأحيا ، ويكفر ويؤمن ويحيى ويميت على الترتيب ، وكلها أفعال .

وعليه قوله ﷺ : « إياكم والمشارة فإنها تميت الغرة وتحيى العرة »[٤] فالتقابل بين تحيى وتميت كما هو واضح .

ومن هذا القبيل جاء قول أبى صخر الهذلى :

أما والذى أبكى وأضحك والذى
أمات وأحيا والذى أمره الأمر

لقد تركتنى أحسد الوحش أن أرى
أليفين منهما لا يروعهما الذعر

فقابل بين أبكى وأضحك ، وبين أمات وأحيا وهى أفعال .

ومنه قول زهير :

ليث بعثر يصطاد الرجال إذا ما الليث كذب عن أقرانه صدقا

وقول بشار :

إذا أيقظتك حروب العدا فنبه لهـــا عمراً ثم نم

---

(١) النجم . ى : ٤٣ ، ٤٤ .

(٢) البقرة . ى : ٢٥٦ .

(٣) البقرة . ى : ٢٥٨ .

(٤) المشارة : تفاعل من الشر ، والغرة : الحسن ، والعرة فى الأصل : القذر واستعير للمثالب . ينهى الرسول ﷺ عن إصطناع الشر فإنه يمحو المودة من القلوب ويوقد نار العداوة : أنظر النهاية لإبن الأثير ٣/٨٠ .

وقوله ابن مقروم الضبي :

فدعوا نزال فكنت أول نازل وعلام أركبه إذا لم أنزل

فالطباق في هذه الأبيات الثلاثة بين كذب وصدقا ، ونبه ونم ، وأركبه وأنزل على الترتيب .

وما كان الطباق فيه بين حرفين نجده في قوله تعالى : « لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت »[1] فلها تفيد المنفعة ، وعليها تتضمن المضرة ، والمعنى لا ينتفع بطاعتها ولا يتأذى بمعصيتها غيرها . فترى الآية قد طابقت بين معنى اللام ومعنى على ، وأكدت المطابقة بينهما بأن جعلت كسبت في جانب لها ، وهذا الفعل يغلب استعماله في جانب الخير ، وجعلت اكتسبت في جانب عليها ، وقد غلب في الاستعمال تخصيص الاكتساب بالشر .

ومن تقابل الحرفين قول مجنون ليلى :

على أنني راض بأن أحمل الهوى

وأخلص منه لا علي ولا ليا

لأن علي معناها المضرة ، وليا معناها المنفعة .

ولا يخفى أن الطباق ليس بين الحرفين على الحقيقة ، إذ ليس للحروف معان مستقلة كما هو معلوم ، وإنما الطباق حاصل بين متعلق الحرفين .

والنوع الثاني من نوعي طباق الإيجاب : أن يكون المعنيان قد دل عليهما بلفظين من نوعين مختلفين : اسم وفعل . أو فعل واسم .

---

(١) البقرة . ى ٢٨٦ .

وذلك كقوله تعالى : « أو من كان ميتاً فأحييناه »[1] فقد طابقت الآية بين ميتا وأحييناه ، وطرفا الطباق فيهما مختلفان ، الأول إسم والثاني فعل ، وفي قوله تعالى « وأحيي الموتى بإذن الله »[2] طابقت الآية بين أحيي والموتى والأول فعل والثاني إسم فهما مختلفان .

ومن هذا النوع قول الشاعر :

لقد كان يدعى لابس الصبر حازما

فأصبح يدعى حازماً حين يجزع

المطابقة بين الصبر - وهو إسم - ويجزع - وهو فعل .

ومنه قول طفيل الغنوي :

بساهم الوجـــه لم تقطع أباجله

يصان وهو ليوم الروع مبذول[1]

يصف فرسه بالقوة والعتاقة ، وأنه مع شدة حفاظه عليه وصيانته إياه يبذله في الحروب ، فأصبح هذا الجواد حصاناً مبذولا ، والشاعر هنا قد طابق بين يصان - وهو فعل - ومبذول - وهو إسم .

التقسيم الثاني : ويكون باعتبار الظهور والخفاء ، أعني ظهور التنافي بين طرفي الطباق أو خفاءه .

---

(١) الأنعام . ى : ١٢٢ .

(٢) آل عمران . ى . ٤٩ .

(٣) الأباجل : جمع أبجل وهو عرق في رجل الفرس أو يدها بمثابة الأكحل من الإنسان ، وساهم الوجه الفرس المتغير الوجه من شدة القتال .

والطباق بهذا الاعتبار ينقسم إلى أقسام ثلاثة :

الأول : الطباق الظاهر ، وهو : ما كان التنافى بين طرفيه واضحاً لا خفاء فيه ولا تأول ولا يحتاج إلى تدبر وفكر .

وهذا القسم يتحقق فى نوعين من أنواع التنافى :

النوع الأول : أن تكون العلاقة بين الطرفين هى علاقة الايجاب والسلب . وقد تقدمت أمثلتها .

النوع الثانى : أن يكون بين المتضادين تضاد حقيقى ، كما فى الألوان كقوله تعالى : « ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانه وغرابيب سود »[1] . فاجتماع هذه الألوان الثلاثة : البياض والحمرة والسواد فى الآية الكريمة جعل فيها طباقاً . وهو ظاهر واضح حيث كان بين الألوان تضاد حقيقى .

وعليه قول الحسن بن مطير :

مبتلة الأرداف زانت عقودها
بأحسن ما زينتها عقــودها

بصفر تراقيها وحمر أكفها
وسود نواصيها وبيض خدودها

فالتقابل واضح بين الألوان : الصفرة ، والحمــرة ، والبياض فى البيت الثانى .

---

(١) فاطر . ى : ٢٧ .

وإذا جاءت الالوان فى الكلام لا لقصد ذواتها ، بل بقصد الكناية أو التورية اختص الطباق باسم « التدبيج » .

وإليك تعريفه وأمثلته :

التدبيج فى اللغة : من دبج المطر الأرض أثر فيها وزينها بألوان النبات المزهر .

وفى الاصطلاح : أن يذكر فى معنى من المعانى التى يساق لها الكلام كالمدح وغيره لونان أو ألوان بقصد الكناية أو التورية .

والمناسبة بين المعنيين : أن اشتمال الكلام على لونين أو ألوان بقصد الكناية أو التورية يزيد من تزيين الكلام وتحسينه ، فيكون الكلام فى حسنه وزينته كالأرض المزينة بألوان الزهور وأصناف الورود .

فمن تدبيج الكناية قول أبى تمام يرثى ابن حميد الطوسى :

تردى ثياب الموت حمراً فما أتى ... لها الليل إلا وهى من سندس خضر

فثياب الموت الحمراء كناية عن أن المحدث عنه مات قتيلا وتلطخ بالدماء وسياق الكلام ومقام المدح يدلان على أنه استشهد وتبدل هذه الثياب عند الليل بسندس أخضر (وهى ثياب الجنة) كناية عن دخول الجنة . والمطابقة فى البيت بين اللونين : الحمرة والخضرة .

ومثله قوله تعالى : « يوم تبيض وجوه وتسود وجوه[1] ، فقد اشتملت الآية على لونين هما البياض والسواد ، والتقابل بينهما فى الآية ليس لذاتيهما

---

(١) آل عمران . ى : ١٠٦ .

بل كنى ببياض الوجوه عن السعادة والفوز فى الآخرة ، وبسوادها عن الخيبة والحسرة والخزى .

ومثل الآية والبيت قول ابن حيوس يصف قوماً بالشجاعة والكرم:

إن ترد علم حالهم عن يقين   فالقهم يوم نائل أو نزال
تلق بيض الوجوه سود مثار النقع   خضر الأكناف حمر النصال

بيض الوجوه كناية عن شرفهم وكرم نجارهم ، سود مثار النقع كناية على شدتهم فى القتال وأنهم أهل حرب ، وخضر الأكناف كناية عن أنهم لا يقاتلون إلا فى سبيل الحق ، فإذا قتلوا فهم شهداء من أهل الجنة . وحمر النصال كناية عن أنهم شجعان يعملون أسلحتهم فى أعدائهم فترتوى من دمائهم وتتلون بها ، فترى أن الشاعر جمع بين عدة ألوان البياض والسواد والخضرة والحمرة وهى متقابلة .

ومن تدبيج الكناية أيضاً قول عمرو بن كلثوم :

بأنا نورد الرايات بيضاً   ونصدرهن حمراً قد روينا

كنى ببياض الرايات عن عدم القتل ، وبحمرتها عن القتل .

ومن تدبيج التورية قول الحريرى : « فمذ ازور المحبوب الأصفر ، واغبر العيش الأخضر ، إسود يومى الأبيض وأبيض شعرى الأسود ، حتى رثى لى العدو الأزرق ، فياحبذا الموت الأحمر » .

فالمحبوب الأصفر له معنيان أحدهما قريب وهو إنسان فى لونه صفرة ، والآخر بعيد وهو الذهب الأصفر وهذا هو المراد وباقى النص ليس فيه تورية ، ولكن فيه كنايات بالألوان على غرار ما سبق فى قول ابن حيوس السابق ، فلك أن تعده من تدبيج الكناية .

وقد بات واضحاً بعد أن عرفنا معنى التدبيج ، ووقفنا على بعض أمثلته ، أن هذا اللون من أنواع الطباق ، داخل فى معناه ، وليس كما ذهب إليه بعض البلاغيين من أن التدبيج ملحق بالطباق .

القسم الثانى ، الطباق الخفى : وهو : ما كان التنافى بين طرفيه لا يدرك إلا بعد فكر وروية .

فقد يدق أمر الطباق فى بعض الصور فلا يصل إليه الفكر إلا بعد تأمل . وهذا النوع يتحقق فى عدة صور هى :

١ — أن يكون ملزوماً للتقابل لتعلقهما بالمفعول به « كقوله تعالى : « مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا ناراً[١] » . فالمطابقة بين « أغرقوا » وأدخلوا ناراً ، ولولا تعلق الفعلين بمفعوليهما لما تحقق بينهما تقابل[٢] .

٢ — أن لا يكون هناك تناف بين طرفى الطباق فى الحقيقة ونفس الأمر ولكن تعلقا بطرفين متقابلين ، وذلك كتقابل السماء والأرض فى قوله تعالى « فورب السماء والأرض إنه لحق[٣] » فالمطابقة بين السماء والأرض ليس لأنهما متنافيان على الحقيقة وإنما لتقابل طرفيهما وهما جهتا فوق وتحت[٤] .

ومثله قول أبى تمام :

مها الوحش إلا أن هاتا أوانس قنا الخط إلا أن تلك ذوابل

---

(١) نوح . ى : ٢٥ .
(٢) الاشارات والتنبيهات ص ٢٦٢ .
(٣) الذاريات . ى : ٢٣ .
(٤) الاشارات والتنبيهات ص ٢٦٢ .

فالمطابقة فى البيت بين هاتا وتلك لما فى هاتا من القرب ، وتلك من البعد[١] .

٣ ـ أن يجمع فى الكلام بين معنيين لا يتنافيان فى ذاتهما ، ولكن يتعلق أحدهما بما يقابل الآخر نوع تعلق مثل السببية أو اللزوم .

مثال السببية قوله تعالى « أشداء على الكفار رحماء بينهم[٢] » فقد طابقت الآية بين الشدة والرحمة ، ومعروف أن الشدة لا يقابلها الرحمة ، ولكن لما كانت الرحمة مسببة عن اللين الذى هو ضد الشدة ناسب أن يطابق بينهما .

ومثل الآية قول الشاعر :

فإن يك أنفى زال عنى جماله ... فما حسبى فى الصالحين بأجدعا

لما كان زوال الجمال عن أنفه مسبب عن جدعه ناسب أن يجعله فى مقابله نفى الجدع عن حسبه فكان طباقاً خفيا لطيفا .

ومثال اللزوم قوله تعالى : « ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله[٣] » .

الطباق فى الآية بين السكون وابتغاء الفضل . وابتغاء الفضل لا يقابل السكون ، وإنما الذى يقابل السكون هو الحركة ، لكن لما كان ابتغاء الفضل يستلزم الحركة صح أن يقابل بالسكون .

---

(١) مواهب الفتاح ٢٨٧/٤ .
(٢) الفتح . ى ٢٩ .
(٣) القصص . ى : ٧٣ .

ومنه قول هدبة بن خشرم :

فإن تقتلونا في الحديد فإننا قتلنا أخاكم مطلقا لم يكبل

لما كان قوله في الحديد ، يستلزم القيد والحبس وهو المقابل لقوله مطلقا لم يكبل ، كان في الجمع بينهما طباق خفي

٤ — ما يسمى « إيهام التضاد » وهو أن يجمع بين معنيين غير متقابلين عبر عنهما بلفظين يتقابل معناهما الحقيقيان .

ومثال ذلك قول دعبل الخزاعي :

لا تعجبي ياسلم من رجل ضحك المشيب برأسه فبكى

قد كان يضحك في شبيبته والآن يحسد كل من ضحكا

شبه ظهور الشيب في رأسه بالضحك ، فهو استعارة تبعية ، أما البكاء فعلى حقيقته . فضحك الشيب بمعنى ظهوره لا يتقابل مع البكاء ولكن الضحك بمعناه الحقيقي يقابل البكاء .

ومثل ذلك قول أبي تمام في الشيب :

له منظر في العين أبيض ناصع ولكنه في القلب أسود أسفع[1]

يصف الشيب بأنه جميل في مرأى العين ، ولكنه بغيض في القلب ، فعبر عن البغض بالسواد ، فالسواد بمعنى البغيض لا يقابل الأبيض الناصع ولكن بمعناه الحقيقي ، فهو ضده .

ومن إيهام التضاد قول أبي تمام أيضاً :

---

(١) أسفع : شديد السواد .

وتنظرى خبب الركاب ينصها محى القريض إلى مميت المال[١]

يقول : انتظرى إسراع الركائب فى سيرها يسوقها ويدفعها فى السير من يجيد الشعر إلى من يبذل المال بذل سخاء حتى يغنيه فمحيى القريض ومميت المال ، لا يتقابلان بمعناهما المجازى وهو إجاده القريض وإخفاء المال ، بذلا له ولكنهما يتقابلان بمعناهما الحقيقيان .

وسمى هذا « إيهام التضاد » لأن المعنيين وإن لم يكن بينهما تضاد على الحقيقة إلا أنهما ذكراً بلفظين يوهمان التضاد .

القسم الثالث : ما كان بين بين : أعنى ما كان وسطاً بين الظهور والخفاء ، وهو ما عدا القسمين السابقين ، وقد تقدمت له أمثلة كثيرة .

* * *

---

(١) وتنظرى : من النظرة . أى الانتظار ، يريد : انتظارى . خبب : الخبب : نوع من سير الإبل فيه سرعة ، والركاب : ما يركب ، يريد الركائب ، أى الإبل . ينصها . أى يسوقها ويدفعها فى السير ، أى يحملها على السرعة .

أمثلة من جيد الطباق

وها نحن قد فرغنا من تعريف الطباق وبيان أقسامه ، فلنأخذ فى عرض بعض النماذج مشفوعة بشىء من الشرح والتحليل لنتعرف على مادق ولطف من الطباق .

ومن أجود الطباق وأحلاه ما ورد منه فى القرآن الكريم ، فقد اشتملت كثير من أساليب القرآن الكريم على هذا المحسن البديعى فجاء على أحسن ما يكون روعة وإعجازاً .

فمن ذلك قوله تعالى : وما يستوى الأعمى والبصير ، ولا الظلمات ولا النور ـ ولا الظل ولا الحرور ـ وما يستوى الأحياء ولا الأموات إن الله يسمع من يشاء وما أنت بمسمع من فى القبور[1] .

والآيات تيئيس للمشركين الذين استولى عليهم الشرك أن يكون عندهم إدراك لما بين هذه الأمور من تفاوت لا يخفى على أحد أو أن يكونوا من السامعين ، كما أنها إراحة للرسول ـ ﷺ ـ عن بذل الجهد فى سبيل إسماعهم ، أو لفت أنظارهم إلى المقاييس الصحيحة للأمور ... إنهم أموات وليس من عمل الرسول أن يسمع الأموات أو يجعلهم يعقلون .

وقد عرضت لما بين الأشياء ونقيضها من تفاوت بعيد واختلاف شديد ، وأن الشىء ونقيضه لا يستويان أبداً ، فالأعمى والبصير لا يستويان وكذا الظلمات والنور ، والظل والحرور ، والأحياء والأموات .

---

(١) فاطر . ى : ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ .

وجاء الطباق بين هذه المعانى فى أجمل صورة ، وأزهى بيان ، لما تضمن من اللطائف والأسرار .

ففيه جمع الظلمات وإفراد النور إشارة إلى أن الذى يعيش فى النور إنما يأخذ طريقا واحداً ، محدد الغاية ، واضح المنهج ، أما الذى يعيش فى الظلمات فإنه لا يعرف له طريقا ، بل يتحرك مضطرباً فى طرق شتى .

وفيه أيضاً تقديم الظل على الحرور والأحياء على الأموات ، والنظم يقتضى تقديم الحرور على الظل ، والأموات على الأحياء ، لتتسق الصورة كلها ، يعنى أن يكون الأسود المعتم ، وهو : الأعمى والظلمات والحرور والأموات لها موضع واحد فى الطباقات الأربعة إما أولا أو آخراً ، وكذا الأبيض المشرق وهو : البصير والنور والأحياء والظل يكون لها موضع واحد كذلك . إلا أنه خالف هذا الأصل إشارة إلى أمرين هامين :

أولهما : أن الظل ـ وهو نعمة فى مقابلة الحرور ، وكذلك الحياة نعمة فى مقابلة الموت ، فقدمت هذا نعمتان على حين قدمت قبلهما آفتان ، هما العمى والظلمات . وفى هذا التوزيع توازن لألوان الصورة ، حيث جاءت هكذا : آفتان تقابلان نعمتين ، ثم نعمتان تقابلان آفتين .

ثانيهما : أن الأصل فى نفى الاستواء ـ وهو التوازن بين الشيئين ـ أن يقع أولا على الناقص منهما ، فيقدم المفضول على الفاضل ، كما فى قوله تعالى « لا يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون[1] » ، وقوله « لا يستوى القاعدون من المؤمنين ـ غير أولى الضرر ـ والمجاهدون

---

(١) الحشر . ى : ٢٩ .

في سبيل الله »(١) ، فإذا خرج الاستعمال عن هذا الأصل كان ذلك لغاية يراد لها : كما في قوله تعالى « قل هو يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون »(٢) وذلك حين لا يكون المراد هو تقدير حكم في المفاضلة بين أمرين وإنما المراد هو الالتفات إلى أن الأمور ليست على وجه واحد ، وإنما لكل أمر وجهان ، وجه وضد لهذا الوجه . مثل الوجود والعدم ، والحق والباطل ، والإيمان والكفر ، والنور والظلام . والظل والحر ، والعزب والملح ، وهكذا ، والمطلوب من الخصم أن يعترف به هنا هو أن الشيء الذي يمسك به ، ليس هو كل الشيء ، إنما يقابله نقيضه ، الذي يجب أن ينظر فيه ويقابل الوجه الذي معه على الوجه الآخر لذلك الشيء .

فاذا كان المشركون يمسكون بالشرك ، ولا يرون أن هناك معتقداً غيره فليعلموا أن هناك وجهاً آخر لا بد أن يقابل هذا الشرك دون التفات إلى أيهما الفاضل وأيهما المفضول . . إن الأمور لا تكون إلا على هذا الازدواج . . الشيء وضده . . وليس الشرك الذي بين أيديهم بدعاً من الأشياء . فليبحثوا عن الوجه الآخر المقابل فاذا فعلوا كانت المرحلة الثانية من مراحل النظر ، وهي أن يوازنوا بين ما معهم من شرك ، و بين الوجه الآخر القابل له وهو الإيمان .

وقد جاء الأمران الأولان على الأصل ، فقدم فيهما المفضول على الفاضل ، على حين جاء الأمران الآخران على الأصل ، فقدم فيهما الفاضل على المفضول . . وبهذا أخذ الفاضل والمفضول مكانه في الصورة على قدم المساواة . . لأن الأمر - كما أوضحنا - لم يكن يراد منه المفاضلة إنما

---

(١) النساء . ى : ٩٥ .
(٢) الزمر . ى ٩ .

المراد هو إثبات تلك الحقيقة التى لا خلاف عليها ، وهى الازدواج فى الأشياء والتقابل بين الشيء وضده .

وفى مجيء المقطع الأول من الصورة على الأصل حتى لا يصدم تفكيرهم ويستأنسهم ويدعوهم إلى الاستماع والنظر . فإذا وقع مقطع هذا الحديث من أنفسهم هذا الموقع واجههم المقطع الآخر من الصورة ، وهو مقطع قد انقلب فيه الموضع ، وفى هذا إشارة إلى أمرين :

الأول : أن المشركين قد انقلبت فى أنفسهم حقائق الأشياء ، فهم ينظرون إلى الأمور وهم فى وضع منكوس ، وأنهم لو اعتدلوا فى وضعهم رأوا هذا المقطع من الصورة على حقيقته ، إنهم يعيشون فى الحرور ويحسبونه الظل ، وهم أموات ويحسبون أنهم أحياء ، هذا هو وضعهم ، فإذا شكوا فى هذا فلينظروا فى هذا المقطع من الصورة التى بين أيديهم ، وسيرون أن الحرور أفضل من الظل ، وأن الميت أكثر حياة من الحى وبهذ ينكشف لهم المقلوب ، الذى ينظرون فيه إلى الأشياء .

الثانى : أنهم لو أرادوا أن يقيموا الصورة كلها على وضع سليم لكان عليهم أن يغيروا بأيديهم هذا الوضع الذى أخذه المقطع الثانى من الصورة وأن يجعلوه موافقا للوضع الأول ، فيقدموا الحرور على الظـــل ، والأموات على الأحياء ، وبهذا يكون الحكم على المطلوب صادراً منهم فتجيء الصورة العامة هكذا : وما يستوى الأعمى والبصير ، ولا الظلمات ولا النور ، ولا الحرور ولا الظل ، ولا الأموات ولا الأحياء. إنها عملية تدعو إلى تحريك الذهن ، وإلى أن يعمل عملا جاداً على تسوية هذه المتناقضات ، فإذا اتجهت عقولهم إلى هذا الاتجاه كان من طبيعة الأمور ألا ترضى عقولهم بهذه المتناقضات التى تقوم فى كيانهم ، حيث يؤثرون الضلال على الهدى والكفر على الإيمان .

وهكذا يجيء هذا المحسن البديعي في كتاب الله بهذه الإيحاءات النفسية التي تدخل العقل في رفق ولطف إلى مواطن الهدى . ومواقع الخير .

هذه وقفة مع طباق واحد مما اشتملت عليه آيات القرآن الكريم ، وما أكثرها ، فما بالك لو وقفنا مع كل آية تزينت بهـذا الفن البديعي الرائع ، لا شك أننا سنحتاج إلى كتب وأسفار لكي نتبين روعة هذا المحسن وأسراره في كتاب الله الكريم .

ومن جيد الطباق ما جاء في كلام أفضل البشر - ﷺ - قوله في بعض خطبه « فليأخذ العبد من نفسه لنفسه ، ومن دنياه لآخرته ، ومن الشبيبة قبل الكبر ، ومن الحياة قبل الممات ، فو الذي نفس محمد بيده ما بعد الموت من مستعتب ، وما بعد الدنيا دار إلا الجنة أو النار » فهذا هو الطباق السامي الذي جل عن الصنعه ونزه عن التكلف ، فقد طابق بين الدنيا والآخره ، والشبيبة والكبر ، والحياة والموت ، وبين الجنة والنار ، فجاء الكلام وقد وقد اشتمل على صور رائعة من جمال التعبير وخلابة المعنى ، ولا عجب فكلامه - ﷺ - هو الكلام الذي ألقى الله عليه المحبة وغشاه بالقبول ، وجمع له بين المهابة والحلاوة وبين حسن الإفهام[1] » .

ومن ذلك أيضا قوله - ﷺ - في الخيل « ظهورها حرز وبطونها كنز » أراد الرسول الكريم أن يبين ما في الخيل من الخير ، فالخير في بطونها حيث تلد المهارى التي تكون مالا عظيما كالكنز ، كما أن ظهورها منجاة من المعاطب ، وملجأ عند المهارب[2] .

---

(١) البيان والتبيين ٢/١٧ .
(٢) المجازات النبويه ص ١٩ .

وقد أبرز هذا المعنى فى صورة رائعة وألفاظ خلابة ، فطابق بين الظهور والبطون فجاء طباقاً صافياً خلاباً .

ومن أجود الطباق وأروعه قوله ﷺ : « اليد العليا خير من اليد السفلى » أراد باليد العليا يد المعطى ، وباليد السفلى يد المستعطى ، وقد طابق فى الحديث بين العليا والسفلى ، ولم يرد أن هناك يداً عليا أو سفلى على الحقيقة وإنما أراد أن المعطى فى الرتبة وفق الآخذ .

ومن جيد الطباق وأملحه ما جاء فى كلام أمير المؤمنين على بن طالب كرم الله وجهه ، قال فى بعض خطبه « الحمد لله الذى لم يسبق له حال حالا فيكون أولا قبل أن يكون آخراً ، ويكون ظاهراً قبل أن يكون باطنا ، كل مسمى بالوحدة غيره قليل ، وكل عزيز غيره ذليل ، وكل قوى غيره ضعيف ، وكل مالك غيره مملوك ، وكل قادر غيره يقدر ويعجز ، وكل سميع غيره يصم عن لطيف الأصوات ويصمه كثيرها ، وكل بصير يعمى عن خفى الألوان ولطيف الأجسام ، وكل ظاهر غيره باطن ، وكل باطن غيره غير ظاهر » .

فانظر كيف جمعت هذه العبارة من كلام الإمام على عدة طباقات وكيف أضفت على المعنى سحراً وخلابة وكسته رونقا وزينة . والأمر فى استخراجها واضح .

ومن جيد الطباق مما ورد فى الأشعار قول السيد أبى الحسن :

ألا ليت أياماً مضى لى نعيمها
تكر علينا بالوصال فننعم

وصفراء تحكى الشمس فى عهد قيصر
يتوق إليها كل من يتكرم

إذا مزجت فى الكأس خلت لآلئا
تنثر فى حافاتهـا وتنظم
جمعنا بها الأشتات من كل لذة
على أنه لم يغش فى ذاك محرم

قال ابن رشيق معلقا على هذه الأبيات وما اشتملت عليه من الطباق : أنها من أخف الطباق روحاً ، وأقله كلفة ، وأرسخه فى السمع ، وأعلقه فى القلب : فقد طابق بين « تنثر وتنظم » وبين « جمعنا والأشتات أسهل طباق وألطفه من غير تعمل ولا استكراه ، وأتى فى البيت الأول من قوله « مضى وتذكر » بأخفى مطابقة وأظرف صنعه على مذهب من انتحله[1] .

ومن اللطيف الدقيق فى ذلك قول ابن رشيق .

وقد أطفأوا شمس النهار وأوقدوا
نجوم العوالى فى سماء عجاج[2]

طابق فى البيت بين أطفأوا وأوقدوا . وكلاهما مجاز عن إخفاء الشمس وأظهار أطراف السلاح لامعة متألقة بين أرجاء القتام ومثار النقع .

ومما زاد الطباق جمالا ما فيه من مناسبة ، لتناسب الشمس والنجوم ، والسماء ، ولذلك جاء سحراً فى حسنه وبلاغته[3] .

---

(١) العمدة ٢/١١ .
(٢) نجوم العوالى : أسنة الحراب ، وسماء العجاج : الغبار المعقود فوق رؤوس المتقاتلين .
(٣) الاشارات والتنبيهات ص ٢٦١ .

وأمثلة الطباق الجيد فى كلام العرب - شعرهم ونثرهم - كثيرة وكلها تدل لطف القوم وبراعتهم فى عرض معانيهم .

من الطباق المعيب

وقفنا - فيما سبق - مع بعض النصوص التى جاءت مشتملة على طباق حاز القبول والرضا من نقاد الأدب وحذاقه . وكست المعانى رونقا وخلابة . ولنا أن نعرض لبعض النصوص التى جانبت التوفيق وجاء ما فيها من الطباق سمجاً غثا قبيحا .

فمن ذلك قول الأخطل :

قلت المقام وناعب قال النوى فعصيت قولى والمطاع غراب

أراد الشاعر أن يقول : أنه أراد الاقامة إلا أن الناعب وسوء الحظ أراد الفراق فكان سوء الحظ أقوى من إرادته ، وقد جاء الطباق بين المقام والنوى ، وبين العصيان والطاعة طباقا سمجاً سخيفا حتى إنك تحس التكلف واضحاً فيه ، فمعلوم أن العصيان يكون عن عمد وإرادة وعصيانه لقوله لم يكن كذلك ، وكذا طاعته للغراب ، وقد علق أبو هلال على هذه المطابقة بقوله : هذا من غث الكلام وبارده[١] .

ومن الطباق الردىء قول البحترى :

تشق عليه الريح كل عشية جيوب الغمام بين بكر وأيم

فقد طابق بن بكر وأيم وهذا غلط - كما قال الآمدى[٢] - لأنه ظن

---

(١) الصناعتين ص ٣٢٨ .

(٢) الموازنة ١/٢٧٦ .

أن الأيم هى الثيب ، وفى الحقيقة الأيم هى التى لا زوج لها بكراً كانت أو ثيبا فهى ليست فى مقابلة البكر ، وإنما المقابل للبكر هى الثيب وهى التى سبق لها الزواج وفضت بكارتها .

ومن ذلك قول أبى تمام :

فيا ثلج الفؤاد وكان رضفاً ويا شبعى بمقدمه وريى

أراد الشاعر أن يعبر عن حالة لحظة لقاء الأحبة فإن لهيب قلبه يتحول إلى ثلج وتمتلىء نفسه شبعاً وريا ، وقد طابق الشاعر بين الثلج والرضف - وهو الحجارة المحماة - وبين الشبع والرى فجاء طباقه سمجا قبيحاً يتقذذ منه الذوق السليم وينفر منه الطبع المستقيم .

ومن بارد الطباق وقبيحه قوله أيضاً :

فلان أكثر ما تريد وبعضه خشن وإنى بالنجاح لواثق

يريد أن يقول إن معظم مقاصدك قد تحققت إلا أن بعضها ما زال متعسراً ومع ذلك فإنى على يقين من نجاحك فى الوصول إليها ، وقد طابق فى البيت طباقاً متكلفاً بين لان وخشن فاللين المقابل له الشدة والخشونة يقابلها النعومة ، وليست هناك سببية أو لزوم بين الخشونة أو الشدة أو بين النعومة واللين إلا على وجه بعيد .

ومن ذلك أيضاً قول الآخر :

من كان يعلم كيف رقة طبعه هو مقسم أن الهواء ثخين

يصف ممدوحه برقة الطبع ، وأنه رقة طبعه يتضاءل معها الهواء فى رقته ، غير أن وصف الهواء بأنه ثخين - ولو على سبيل الفرض والتقدير -

وصف مرذول قبيح ، وقد تكلف هذا ليحقق الطباق فى البيت بين رقة الطبع وتخين فكان طباقاً متعسفاً قبيحا .

ولا يخفى أن قبح الطباق فى هذه الأساليب ليس راجعاً إلى اللون ذاته ، وإنما القبح فى أن سيق به سوقا فجاء متكلفا لا تتطلبه المعانى والأغراض ، وقد سبق أن أشرنا إلى أن ألوان البديع كغيرها من مسائل البلاغة وفنونها مشروط فى حسنها وجمال موضعها أن تكون وفق المعانى ، وأن تتطلبها الأغراض .

* * *

٢ ـ المقـــابلة

معناها فى اللغة :

فى لغة العرب : قابل الشىء بالشىء مقابلة وقبالا : عارضه فمقابلة الكتاب بالكتاب وقباله به : معارضته . والمقابلة : المواجهة ، والتقابل مثله ، يقال : تقابل القوم ، يعنى استقبل بعضهم بعضاً ، وقوله تعالى فى وصف أهل الجنة : « إخوانا على سرر متقابلين[1] » جاء فى التفسير : أنه لا ينظر بعضهم فى أقفاء بعض .

فالمقابلة ـ على هذا ـ معناها فى اللغة : المعارضة والمواجهة .

معناها فى الاصطلاح :

المقابلة فى اصطلاح البلاغيين معناها : أن يؤتى بمعنيين متوافقين أو معان متوافقة ، ثم يؤتى بما يقابلها على الترتيب[2] .

نرى هذا المعنى فى قوله تعالى : « فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيراً[3] » وقول أبى العلاء :

ما أحسن الدين والدنيا إذا اجتمعا
وأقبح الكفر والإفلاس بالرجل

---

(١) الحجر . ى : ٤٧
(٢) الإيضاح ١٣/٤ .
(٣) التوبة . ى : ٨٢ .

توضيح ذلك :

جاءت الآية بمعنيين متوافقين هما : الضحك والقلة ، ثم جاءت بما يقابل هذين المعنيين ، وهما : البكاء والكثرة على الترتيب ، حيث جاء الضحك أولا فى الطرف الأول من المقابلة ، فجاء مقابله وهو البكاء أولا فى الطرف الثانى ، وكذا القلة والكثرة جاء كل منهما ثانياً فى كلا الطرفين .

وفى البيت جاء الشاعر بمعان متوافقة هى : الحسن والدين والدنيا ، ثم جاء بما يقابل هذه المعانى . وهى القبح والكفر والإفلاس على الترتيب كذلك ، حيث إن القبح من الطرف الثانى يقابل الحسن ، والكفر يقابل الدين ، والإفلاس يقابل الدنيا ، التى أراد بها الغنى .

ومعنى التوافق فى التعريف : ما كان خلاف التقابل ، فيشمل المتناسبين أو الأمور المتناسبة ، كما فى مراعاة النظير[1] ، ولذا فقد تجتمع المقابلة ومراعاة النظير ، كما فى بيت أبى دلامة السابق ، حيث إن الطرف الأول من المقابلة ، وهو : الحسن والدين والدنيا أمور متناسبة ، فهى مجلبة للسعادة ، وتجتمع فى الذهن بهذا المعنى ، وكذا نجد الطرف الثانى وهو : القبح والكفر والإفلاس ، لأنها مجلبة للشقاء ، ولها ارتباط فى الذهن بهذا المعنى .

كما يشمل غير المتناسبين أو الأمور غير المتناسبة . كما فى الآية السابقة ، فلا تناسب بين الضحك والقلة ، ولا بين البكاء والكثرة .

وقد عرف قدامة بن جعفر المقابلة بقوله : هى أن يصنع الشاعر

---

(١) سيأتى توضيح ذلك فى موضعه .

معانى يريد التوفيق بين بعضها وبعض والمخالفة ، فيأتى فى الموافق بما يوافق والمخالف بما يخالف على الصحة ، أو يشترط ويعدد أحوالا فى أحد المعنيين ، فيجب أن يأتى فيما يوافقه بمثل الذى شرطه وعدده ، وفيما يخالف بضد ذلك » .

وقد مثل لها بقول الشاعر :

وإذا حديث ساءنى لم اكتئب   وإذا حديث سرنى لم أشر

فقد جعل بإزاء سرنى ساءنى ، وبإزاء الاكتئاب الأشر ، وهذه المعانى غاية فى التقابل [1] .

والمتأمل فى تعريف قدامة يجده خص التوافق فى المقابلة بما كان متناسباً ، وعلى هذا فإن هذا اللون ـ عنده ـ يشتمل على لونين من المحسنات البديعية ، وهما : مراعاة النظير ، والمقابلة .

بين المقابلة والطباق :

كثير من البلاغيين يرون أن المقابلة نوع من الطباق وأنها داخلة فيه ، فالخطيب القزوينى يذكر هذا اللون بعد فراغه من الطباق وأقسامه بقوله : « ودخل فى المطابقة ما يخص باسم المقابلة »[2] وكذلك فعل غيره من المتأخرين

وحجتهم أن هذا اللون قائم على الجمع بين معنيين متقابلين فى الجملة ،

---

(١) نقد الشعر . ص ١٤٠ .
(٢) الإيضاح ٤ / ١٣ .

أى على وجه مخصوص دون آخر ، إذ ليس التقابل بين كل اثنين من المعانى. فمثلا لا تقابل بين الضحك والقلة ، ولا بين البكاء والكثرة فى قوله تعالى «ليضحكوا قليلا وليبكوا كثيرا . فى المثال السابق ، وإن كان فيه مقابلة بين الضحك والبكاء والقلة والكثرة حيث كان فى المقابلة جمع بين معنيين متقابلين فى الجملة كان طباقا لصدق تعريفه عليه .

أما السكاكى فقد جعل المقابلة قسما قائما برأسه من المحسنات المعنوية وعرفها بقوله : « أن تجمع بين شيئين متوافقين أو أكثر وبين ضديهما ، ثم إذا شرطت هنا شرطا شرطت هناك ضده ، ومثل لها بقوله تعالى : « فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى »[١] .

وقد تبع السكاكى قوم منهم العلامة عبد الحكيم . فقد رجح رأى السكاكى ، وعلل هذا الصنيع بقوله : « لا يخفى أن فى الطباق حصول التوافق بعد التنافى ، ولذا سمى بالطباق ، وفى المقابلة حصول التنافى بعد التوافق » ولذا سمى بالمقابلة وفى كليهما إيراد المعنيين بصورة غريبة ، فكل منهما محسن بانفراده ، واستلزام أحدهما للآخر يقتضى دخوله فيه ، فالحق مع السكاكى فى جعله المقـــابلة قسم مستقلا من البديعيات المعنوية »[٢] .

وذهب قوم من البلاغيين إلى أن المقابلة أعم من الطباق ، قال المطرزى:

---

(١) الليل . ى : ٥ - ١٠ - وأنظر مفتاح العلوم ص ١٧٩ .

(٢) حاشية عبد الحكيم على المطول ص ٥٤١ ، وانظر حاشية الدسوقى ٤ / ٢٩٧ .

« المقابلة أعم من الطباق ، فإن المقابلة يدخل فيها نحو : أنت ابن الدنيا وغيث الجود فلم يعتبر التنافى ، وصاحب بديع القرآن شرط فى المقابلة أن تكون بأكثر من اثنين من الأربعة إلى العشرة ، وعلى هذا المراد بالتوافق ليس التناسب ، بل خلاف التقابل مطلقا ، سواء كانا متناسبين أم لا ، ولا شك أن الطباق كله تقابل ، كما سبق فى حده ، فاسم التقابل صادق عليه ، إلا أنهم اصطلحوا على تسمية هذا النوع فقط تقابلا ، وهو ما كان الطباق فيه مكرراً . فإن قلت : إذا كان التقابل المراد أخص من الطباق والأخص لا يدخل فى الأعم ، بل الأعم يدخل فى الأخص ؟ قلت : كثيرا ما يقال عن الفرد إنه داخل فى الجنس ، والمراد إعلام أنه فرد من أفراد الجنس غير خارج عنه ، لم يريدوا دخول النوع بجميع أجزائه بل دخول ما فيه من حصة الجنس »[1] .

وإذا نظرت إلى هذه الآراء وجدت أن الحق مع الخطيب ومن تبعه ، ذلك أن المقابلة وإن اختصت باسم مستقل ، وكان بينها وبين المطابقة فرق إلا أن هذا الفرق يتحدد فى أن المطابقة يكون الجمع فيها بين لفظين مفردين ، يعنى أن كل طرف من طرفى الطباق يكون مفرداً ، بينما الجمع فى المقابلة يكون بين أكثر من لفظين ، وليس هناك فرق بينهما - على الأصح - سوى هذا ، فنحن إذ نتعرض للمقابلة على أنها لون من ألوان المحسنات البديعية فلسنا بعيدين عن اللون السابق ، وهو الطباق ، بل مازلنا فى رحابه .

أثر المقابلة فى بلاغة الكلام :

سبق أن أشرنا فى الطباق إلى أن الجمع بين المتقابلين من الأمور المركوزة

---

(١) عروس الأفراح ٤ / ٢٩٧ .

فى الطباع والتى لها تعلق ببلاغة الكلام ولها أثر واضح فى النفوس ، وتتعلق بها أغراض المتكلمين ، وما قلناه هناك يقال مثله هنا . فنحن ماذا فامع الجمع بين المتقابلين وعلة الحسن فى الطباق قائمة على الجمع بين الضدين ، وهى نفس العلة التى تقوم عليها المقابلة .

ولكى نزيد الأمر وضوحاً فى المقابلة نضرب مثالا بقوله ﷺ لأصحابه : « إنكم لتكثرون عند الفزع وتقلون عند الطمع ، فقد قابل الكثرة عند الفزع بالقلة عند الطمع .

والغرض الشريف من هذا القول أن يثبت لأصحابه هو أن الدنيا عندهم ، وقلة مبالاتهم بتقديم أنفسهم فداء لمبادئهم وفى سبيل دينهم وإرضاء لربهم ، وإذا كان شأن كل شيء الكثرة حينا والقلة حينا آخر فإن كثرة هؤلاء تكون حيث يكون التضحية والبذل وتقديم الأرواح دفاعاً عن الحق ونصرته ، وقلتهم تكون حيث يكون عرض الدنيا ويكون المطمع فى زخرفها . فهذا التقابل بين كثرتهم فى مواقف الفزع ، وقلتهم فى مواقف الطمع حقق للقول الشريف هذا الغرض الذى رمى إليه الكلام ، وأعطى الصورة الحقيقية لما عليه الصحابة رضوان الله عليهم .

وهذا القدر كاف فى إثبات الحسن الذاتى للمقابلة ، وكذلك غيرها فى كل الأساليب التى تشتمل على هذا اللون .

كما أن فى المقابلة ـ كما فى الطباق ـ جمعا بين الشيء وضده ، وهذا يضفى على الكلام بهاء وحسنا ، ويجعل لكل من المتقابلين حسنا لا يكون له إذا جاء وحده .

صـــــــور المقابلة

عرفنا أن المقابلة تتحقق بالجمع بين معنيين متوافقين ثم بما يقابلهما ، أو أكثر من معنيين متوافقين ثم بما يقابلها .

والمتتبع لكلام العرب - شعراً ونثراً - لا يجد فيه أكثر من مقابلة ستة معان بستة أخرى لذا فإن المقابلة جاءت فى كلام العرب على خمس صور :

الصورة الأولى : أن تكون المقابلة بين اثنين واثنين ، وقد مر منه قوله تعالى : « فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيراً » فقد قابل بين الضحك والقلة ، وبين البكاء والكثرة

ومنه قوله تعالى : « إن الأبرار لفى نعيم وإن الفجار لفى جحيم »[1] حيث جمعت الآية بين الأبرار والنعيم وهما متوافقان ، ثم قابل بينهما وبين الفجار وجحيم .

وقوله تعالى : « باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب »[2] جاءت فيه المقابلة بين باطنه ورحمة وهما متوافقان ثم بما يقابلهما وهما ظاهره والعـــذاب .

ومنه قوله ﷺ - لعائشة - رضى الله عنها - : عليك بالرفق يا عائشة ، فإنه ما كان فى شىء إلا زانه ، ولا نزع من شىء إلا شانه ، فجمع

---

(١) الإنفطار . ى : ١٣ ، ١٤ .
(٢) الحديد . ى : ١٣ .

فى الحديث بين كان وزان وهما متوافقان ثم طابق بينهما وبين نزع وشان.
فالمقابلة نوع من الطباق كما مر إلا أنها بين معنيين فأكثر .

ومن مقابلة اثنين باثنين قول ابن المعتز « طلاق الدنيا مهر الآخرة » حيث قابل بين طلاق الدنيا ومهر الآخرة ، فجعل المهر فى مقابلة الطلاق ، لأنه لا يكون إلا فى الزواج ، والدنيا تقابل الآخرة .

ومن هذا القبيل قول المنصور : « لا تخرجوا من عز الطاعة إلى ذل المعصية » فقابل بين عز الطاعة وذل المعصية .

ومن ذلك قول المعرى :

يا دهر يا منجز إيعاده وخلف المأمول من وعده

قابل بين منجز وإيعاده وبين مخلف ووعده .

وقول جرير :

وأعور من نبهان أما نهاره فأعمى وأما ليله فبصير

فالمقابلة هنا بين النهار والعمى وبين الليل والبصر كما هو واضح .

والمشهور من هذا الضرب قول النابغة :

فتى تم فيه ما يسر صديقه على أن فيه ما يسوء الأعاديا

فتراه قابل بين سرور الصديق وإساءة العدو .

الصورة الثانية : أن تكون بين ثلاثة وثلاثة ، كقوله : « يحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث »[1] فقد قابلت الآية بين يحل ، ولهم ،

---

(١) الأعراف ، ى : ١٥٧ .

والطيبات من جهة ويحرم ، عليهم ، والخبائث من جهة أخرى .

ومنه قوله تعالى : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى »[1] . يقول صاحب الطراز : انظر إلى هذا التقابل العجيب فى هذه الآية ما أحسن تأليفه وأعجب تصريفه ، فلقد جمع فيه بين متقابلات ثلاث . الأولى منها مأمور بها والثلاث التوابع منهى عنها : ثم هى فيما بينها متقابلة أيضا[2] .

ومن هذا القبيل قول البحترى :

فإذا حاربوا أذلوا عزيزا   وإذا سالموا أعزوا ذليلا

حيث قابل بين حاربوا وأذلوا وعزيزا وبين سالموا وأعزوا وذليلا .

ومنه قول أبى دلالة السابق :

ما أحسن الدين والدنيا إذا اجتمعا

وأقبح الكفر والإفلاس بالرجل

فقد أتى بمعان متوافقة هى : الحسن والدين والدنيا : ثم أتى بمقابل هذه المعانى وهى : القبح والكفر والإفلاس .

ومن المشهور فى هذه الصورة قول أبى الطيب :

فلا الجود يفنى المال والجد مقبل

ولا البخل يبقى المال والجد مدبر

حيث قابل بين الجود والإفناء والإقبال ، وبين البخل والإبقاء والإدبار .

---

(١) النحل . ى : ٩٠ .

(٢) الطراز ٢ / ٣٧٨ ، ٣٧٩ .

ومن جيد هذا الضرب قول أبي تمام :

يا أمة كان قبح الجور يسخطها
دهرا فأصبح حسن العدل يرضيها

فالمقابلة بين القبح والجور والإسخاط من جانب ، وبين الحسن والعدل والإرضاء من جانب آخر .

الصورة الثالثة : أن تكون بين أربعة معان وأربعة معان أخرى .

كقوله تعالى : « فأما من أعطى واتقى ، وصدق بالحسنى . فسنيسره لليسرى ، وأما من بخل واستغنى ، وكذب بالحسنى . فسنيسره للعسرى »[1] .

فالمقابلة بين أعطى ، واتقى ، وصدق ، واليسرى وبين مقابل هذه المعانى وهى : بخل واستغنى ، وكذب . والعسرى ، فهى أربعة معان أخرى .

والتقابل بين اتقى واستغنى يحتاج إلى شيء من الفكر والتأمل . ووجه التقابل بينهما أن استغنى بمعنى زهد فيما عند الله ، وهذا يقابل التقوى ، إذ المستغنى بالحياة الدنيا عن نعيم الآخرة غير متق .

ومن هذا الضرب قول جرير :

وباسط خير فيكم بيمينه وقابض شر عنكم بشماله

فالمقابلة هنا بين أربعة معان متوافقة وهى : باسط ، وخير . وفيكم ، وبيمينه ، وما يقابل هذه المعانى وهى : قابض ، وشر ، ومنكم ، وشماله .

---

(١) الليل . ى : ٥ - ١٠ .

الصورة الرابعة : أن تكون بين خمسة معان وخمسة معان ، ومثاله قول المتنبي :

أزورهم وسواد الليل يشفع لى
وأنثنى وبياض الصبح يغرى بى

فألفاظ الشطر الأول وهى : أزورهم ، وسواد ، والليل ، ويشفع ، ولى وهى خمسة معان جاءت فى مقابلة ألفاظ الشطر الثانى وهى : أنثنى ، وبياض ، والصبح ، ويغرى ، وبى وهى خمسه أيضا .

والمعنى : أزورهم فى حماية الليل ، وأعود تحت وشاية ضوء الصبح فنى كل من يشفع لى ويغرى بى استعارتان مكنيتان ، كما هو واضح :

الصورة الخامسة : أن تكون بين ستة معان وستة معان أخرى ، ومثاله قول عنترة :

على رأس عبد تاج عز يزينه وفى رجل حر قيد ذل يشينه

فى الشطر الأول ست كلمات تقابل نظيراتها من الشطر الثانى . وكلمات الشطر الأول الست هى : على ، رأس ، عبد ، تاج ، عز ، يزينه ، وكلمات الشطر الثانى الست هى : فى رجل ، حر ، قيد ، ذل ، يشينه .

وقد يبدو التكلف واضحاً فى هذا البيت ، ولذلك لا نجد فى كلامهم أكثر من مقابلة ستة بستة .

❊ ❊ ❊

من جيد المقابلة

بعد وقفنا على معنى المقابلة وصورها نعرض لبعض النماذج التى جاءت فيها المقابلة رائعة جيدة ، تستدعيها المعانى والأغراض وتقع موقعاً حسنا من نفوس السامعين .

ومن جيد المقابلة فى النثر ما ورد منها فى القرآن الكريم ، حيث جاءت فى أعلى درجات الإعجاز البلاغى ، وقد مر بك بعض الأمثلة القرآنية .

ومن الأمثلة القرآنية - غير ما سبق - قوله تعالى : « فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد فى السماء »(١) . فقد قابلت الآية بين الهداية وشرح الصدر ، وبين الضلال وضيق الصدر .

والآية تعزية وتسلية لرسول الله ﷺ - لما يلاقيه من عناد الكفار وغرورهم ، فهى إخبار من الله لرسوله ألا يهتم بأمرهم ، ولا يحزن عليهم ، فالأمر كله لله ، فمن أراد الله هدايته للحق وتوفيقه للخير فإنه يشرح للإسلام صدره ويوسع القرآن قلبه ، فعند ذلك يستنير الإسلام فى قلبه ويتسع له صدره ، وقد سئل رسول الله - ﷺ عن شرح الصدر فقال : « هو نور يقذفه الله فى قلب المؤمن فينشرح له وينفسح : فقالوا : فهل لذلك من أمارة يعرف بها ؟ قال : الإنابة إلى دار الخلود ، والتجافى عن دار الغرور والاستعداد للموت قبل نزول الموت» .

أما من فسدت فطرته وساءت نفسه إذا طلب إليه أن ينظر فى الدين

---

(١) الأنعام . ى : ١٢٥ .

ويدخل فيه يجد فى صدره ضيقا وأى ضيق ، وذلك لما استحوذ عليه قلبه واعتلأ من سيء التقاليد والحسد والعناد والكبر والغرور ، وهذا الصنف تكون إجابة الداعى عنده ثقيله على نفسه جداً ، فيشعر بضيق شديد وحرج كثير ، كأنه كلف من الأعمـــال مالا يطيق ، أو أمر بصعود السماء .

وواضح أن المقابلة أدت حقها فى تأدية هذا المعنى والوفاء به ، وأبرزت كلا الفريقين وحاله فى الصورة التى أرادها الله لها ، مما يبعث الطمأنينة ويزيل الحزن فى نفس الرسول الكريم .

ومن جيد المقابلة ما جاء منها فى حديث الرسول - ﷺ - وقد مر بك بعض أمثلتها .

ومن ذلك أيضا قوله — ﷺ — « تعس عبد الدينار وعبد الدرهم »، تعس عبد الحله والخميصة ، إن أعطى رضى وإن منع سخط ، تعس فلا انتعش ، وإذا شيك فلا انتقش » [1] . فقد قابل فى الحديث بين أعطى ورضى من جانب وبين منع وسخط من جانب ، فجاءت المقابلة رائعة خلابة .

ومن جيد المقابلة قول الامام على — كرم الله وجهه - فى خطابه لعثمان — رضى الله عنه — « إن الحق ثقيل مرىء والباطل خفيف وبىء» فقابل الحق بالباطل والثقيل المرىء بالخفيف الوبىء .

---

(١) الحلة : الثوب ، وهو إزار ورداء ، والخميصة : كساء أسود مربع له علمان انتعش ، ارتفع بعد تعاسة أو جبر بعد فقره . انتقش : أخرج منه الشوكة بالمنقاش .

وقال الحجاج بن يوسف حين أراد قتل سعيد جبير فلما أحضر إليه أمر من كبه ، ثم قال : من أنت ؟ فقال : أنا سعيد بن جبير ، فقال : بل أنت شقى بن كسير ، فقابل سعيدا بشقى ، وجبيرا بكسير . قال العلوى ملحقا على هذه المقابلة وجودتها « كان الخبيث - يعنى الحجاج - من المعدودين فى الفصاحة ، والمشار إليهم فى البلاغة »[1] .

ومن جيد المقابلة وألطفها قول رجل لمعاوية يعزيه فى وفاة بنت له : « الحمـــد لله الذى أكرمها بوقوفك على قبرها ، ولم يخزها بوقوفها على قبرك » .

ومن ذلك قول الحسن - رضى الله عنه - « ما رأيت يقينا لا شك فيه أشبه بشك لا يقين فيه من الموت » .

ومن كلام بعض البلغاء : « من أقعدته نكاية اللئام أقامته إعانة الكرام ، ومن ألبسه الليل لون ظلمائه نزعه النهار عنه بضيائه » .

ومن الأشعار مما جاءت فيها المقابلة جيدة رائعة قول أبى تمام :

قـــد ينعم الله بالبلوى وإن عظمت
ويبتلى الله بعض القـــوم بالنعم

فقابل بين ينعم والبلوى ، وبين يبتلى والنعم .

وقول آخر :

لعمرك ما الإنسان إلا ابن دينـــه
فلا تترك التقوى اتكالا على النسب

---

(١) الطراز ٢ / ٣٨١ .

فقـــد رفع الاسلام سلمان فارس
وقـد حط بالشرك النسيب أبو لهب

حيث قابل بين رفع والإسلام وسلمان الفارسى من جهة ، وبين حط والشرك وأبى لهب من جهه ثانية ، فجاءت مقابلته جميلة رائعة .

من رديء المقابلات

وكما جاءت المقابلة حسنة رائعة فقـــد جاءت فى بعض الأساليب غثة قبيحة .

ومن ذلك قول المتنبي :

لمن تطلب الدنيـــا إذا لم ترد بها
سرور محب أو إســـاءة مجـــرم

أراد أن الدنيا والسعى وراءها إنمـا يكون لواحد من هذين : إدخال السرور على الأحبة أو الإساءة إلى الأعداء . فقابل بين السرور والمحب فى طرف وبين الإساء والمجرم فى طرف خر .

ولـكن الشاعر لم يوفق فى هذا الصنيع ، ذلك أن السرور إذا كان مقابلا للإساءة فإن المحب لا يصح مقابلته بالمجرم لأن المحب يقابله المبغض وليس المجرم ، ولذ جاءت المقابلة متكلفة مرزولة عارية من الجمال والحسن .

ومن هذا القبيل قول أبي تمام :

وصنيعة لك ثيب أهـديتهـا وهى الـكعاب لعائذ بك مصرم[1]

(١) مصرم : قليل المال .

حلت محـــل البـكر من معطى وقـد

زفت من المعطى زفاف الأيم

جاء بالكعاب على أنها تقوم مقام البكر ليجعلها - فى البيت الأول - ضد الثيب ، فتصح له التسمية ، أى الصنيعة ثيب عندك ، لأنك قد اصطنعت مثلها مراراً ، وهى الكعاب - يريد البكر - عند العائذ بك ، لأنها أول ما اصطنعته إليه أولا لأنها أكبر صنيعة صنعتها عنده ، وقد شرح هذا المعنى فى البيت الثانى حيث جعل العطية من المعطى - بفتح الطاء - تحل محل البكر ، بينما جاءت وحلت من المعطى - بكسر الطاء - محل الأيم .

وهذا الذى صنعه الشاعر خطأ ، لأن الأيم - التى جعلها فى مقابلة البكر - هى التى لا زوج لها بكراً كانت أو ثيبا .

وواضح أن المقابلة فى البيت بين المعطى - بالكسر - والبكر وبين المعطى - بالفتح - والأيم ، وأن هذا الخطأ الذى وقع فيه الشاعر جعل المقابلة فى البيت سمجة قبيحة ، لا ماء فيها ولا رواء .

٣ – حسن التعليل

معناه عند البلاغيين :

هو : أن يدعى ناثر أو شاعر لوصف من الأوصاف علة مناسبة غير حقيقية على جهة التخييل والتظرف .

مثال ذلك : قول شاعر يعلل لزلزال حدث فى مصر ويمدح واليها :

ما زلزلزت مصر من كيد يراد بها
وإنما رقصت من عدله طربا

معروف أن الزلزال عندما يحدث يكون سببه تغييرات فى باطن الأرض يعرفها علماء الجيولوجيا ، أو حدوث هزات أرضيه فى بعض الأماكن على سطح الكرة الأرضية يتسبب عنها اهتزازات فى الأماكن القريبة .

أما أن يكون الزلزال عبارة عن حركة راقصة من الأرض . وأن الأرض عندما رأت الممدوح طربت فرقصت ، وأن هذا الزلزال الذى وقع عبارة عن رقصها فلا شك أنه تخيل وتظرف .

فالشاعر التمس لهذه الظاهرة الكونية علة غير حقيقية ، وهى الطرب والسرور والفرح ابتهاجاً بعدل الممدوح وتغاضى عن العلة الحقيقية التى يعرفها علماء طبقات الأرض ، وهذا ادعاء من الشاعر قائم على التخييل ليصل إلى غرض مؤداه أن عدل الممدوح عم وطبق الآفاق بحيث شعرت به الجمادات ، وأحست به الكرة الأرضية بأسرها فاهتزت طربا ورقصت من فرط فرحها وسرورها .

فالوصف الذى أراد الشاعر أن يلتمس له علة هو : الزلزال الذى وقع والعلة الحقيقية لهذا الوصف المتغيرات التى تحدث فى باطن الأرض ، والعلة غير الحقيقية التى أدعاها الشاعر على سبيل التخييل والتظرف هى : طرب الأرض وفرحها .

مثال آخر : قال أبو العلاء المعرى فى الرثاء واصفاً البدر :

وما كلفة البدر المنير قديمة ولكنها فى وجهه أثر اللطم

ينكر الشاعر أن تكون البقع السوداء التى نراها فى وجه البدر طبيعية فيه ، وأن تكون على وجهه من يوم أن خلقه الله ، ويدعى أن هذه البقع أثر من لطمه على وجهه غما وحزنا على فراق الحبيب المرثى ، فالحزن على هذا المرثى بلغ حداً بحيث حزنت عليه كل الكائنات من يعقل ومن لا يعقل ، فالبدر لطم وجهه حزنا عليه حتى ترك على وجهه هذا الأثر الذى نراه من البقع السوداء البادية على وجهة .

فهو - كما ترى - يدعى علة غير حقيقية لهذه الكلفة التى نراها على وجه البدر ، فيدعى أنها من أثر اللطم حزنا على المرثى .

فالوصف الذى يطلب له العلة هو هذه البقع السوداء فى وجه البدر ، وعلتها الحقيقية لا تطلب ، ولا يسأل عنها لأنها طبيعية فيه من أصل الخلقة لكن الشاعر يدعى أن لها علة وهى ما ذكرها من لطمه على وجهه حزناً على الحبيب المرثى ، وهى علة غير حقيقية قائمة على التخييل والإدعاء والتظرف .

بلاغة حسن التعليل :

لا شك أن التماس العلة للشيء أو للوصف يؤكده ويعضده ويقويه

فى نفس السامع ، ويجعل النفس أكثر ارتياحاً له ، حتى ولو كانت تلك العلة متخيلة غير حقيقية ، بل إن ذكر العلة على هذه الصورة يعد وسيلة للمتكلم للوصول الى غرضه ، فالشاعر فى البيت الأول أراد أن يؤكد على عدل الممدوح وأن يثبت من خلال الظواهر الكونية أن عدله عم الآفاق وأحس به كل شىء حتى ما لا يتأتى منه الحس والشعور فادعى أن الأرض رقصت طربا لعدله ،كما أن أبا العلاء إستطاع أن يصور الأثر البالغ الذى تركه الرثى والحزن العميق الذى خلفه وأن يصل إلى غرضه من كثرة هذا الحزن وإنتشاره ، وأن المرثى كان محبوباً من كل مخلوقات الله حتى الجمادات فادعى أن البدر لطم وجهه وبالغ فى لطمه حزناً عليه حتى أحدث فى وجهه هذه البقع التى تراها .

ولما كان لهذا الفن مدخلا فى تأديه المعانى والأغراض والوفاء بحقها عند المتكلمين ـ كما هو واضح ـ كما أن له هذا الأثر فى نفوس السامعين أصبح واضحاً أن له مدخلا فى بلاغة الكلام وقوته .

عدم وروده فى القرآن الكريم :

هذا الفن يقوم على التخييل والتظرف وإنكار الواقع وتعمد المغالطة للوصول إلى الأغراض والتأثير النفوس ، فهو أحيانا ينكر العلة الحقيقية للأشياء وأخرى يلتمس علة لما ليس له علة . ولذلك فقد تحدى فى هذا الفن الشىء وضده .

ولذا فإن الأساس الذى يقوم عليه هذا الفن لا يتناسب وعظمة القرآن الكريم الذى يأتى أسلوبه فى قمة الأساليب الجادة التى لا تعرف الهزل أو التظرف .

فالقرآن الكريم وصفه رسولنا الكريم ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ

فيما روى عن عليّ بن أبي طالب — رضى الله عنه — قال : « سمعت رسول الله — ﷺ يقول : ستكون فتن كقطع الليل المظلم . . . قلت يارسول الله : وما المخرج منها ؟ قال : كتاب الله تبارك وتعالى ، فيه نبأ من قبلكم وخبر من بعدكم وحكم ما بينكم ، هو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله ، هو حبل الله المتين ، ونوره المبين ، والذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، وهو الذى لا تزيغ به الأهواء ولا تلتبس به الألسنة ، ولا تتشعب معه الآراء ولا يشبع منه العلماء ، ولا يمله الأتقياء ، ولا يخلق عن كثرة الرد ، ولا تنقضى عجائبه ، هو الذى لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا : « إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدى إلى الرشد فآمنا به . . من عمل به أجر ، من حكم به عدل ، ومن دعا إليه إلى هدى صراط مستقيم[1] » .

أرأيت هذا الوصف الجامع الذى وصف به الصادق المصدوق كتاب الله الكريم ؟ لا شك أن طبيعة هذا الكتاب الكريم تتنافى تماماً مع هذا الفن الذى يقوم على التظرف والتخييل ، ولذا لا نجـــد له أثراً فى القرآن الكريم .

ولنفس العلة أيضاً لا نجد له أثراً فى حديث الرسول الكريم أو الأساليب الجادة .

أقسام حسن التعليل

الوصف الذى يدعى له علة مناسبة غير حقيقية إما أن يكون ثابتاً فى نفسه ، أو غير ثابت أريد إثباته ، فهذان قسمان .

---

(١) الإتقان فى علوم القرآن ٢/١٣٠ .

ثم إن الوصف الثابت إما أن تظهر له فى العادة علة ، وإما أن لا تظهر له علة وإن كان فى الواقع لا يخلو من حكمة تقتضيه .

والوصف غير الثابت وأريد إثباته ، إما أن يكون ممكنا وإن كان غير واقع ، وإما أن يكون غير ممكن والتمس له علة لاعتبار لطيف مشتمل على دقة نظر .

فالحاصل من هذا أقسام أربعة ، إليك بيانها وأمثلتها :

القسم الأول : أن يكون الوصف ثابتاً ولا تظهر له فى العادة علة ، فيدعى له علة مناسبة لغرض من الأغراض التى يساق لها الكلام ، كالمدح وغيره .

وذلك كقول أبى الطيب المتنبى :

لم يحك نائلك السحاب وإنما حمت به فصبيبها الرحضاء[1]

يريد أبو الطيب أن يقول لممدوحه : إن هذا المطر الذى تجود به السحاب لا يشبه عطاءك ، وليس مطر السحاب محاكاة لنائلك الذى لا يجارى ، وإنما كان ذلك من السحاب عرقاً للحمى التى أصابته حين أشتدت به الغيرة منك . فنزول المطر وصف ثابت ، ولكن لا تظهر له علة ولا يسأل عنها لتعود الناس عليه . فجعل الشاعر علته حمى الغيرة التى أخذت السحاب من الممدوح .

ونظير هذا قول أبى تمام :

---

(١) النائل : العطاء . حمت به : أصابتها الحمى بسببه . والصبيب : ما يتصبب من عرق الحمى . الرحضاء ـ كظرفاء ـ عرق الحمى .

لا تنكرى عطل الكريم من الغنى
فالسيل حرب للمكان العالى

يقول الشاعر لصاحبته : لاتنكرى عدم غناى فإنى كريم ، ولا يجتمع كرم وغنى وهكذا شأن ذوى الأقدار الرفيعة والقيم العالية تجدينهم محاربين دائماً ، ألا ترين المكان العالى محروما من السيل أبدا قياساً له على الأماكن العالية ، فإنها لا يستقر فيها الماء ، بل هى أول ما يصيبه المطر ، ويؤثر فيها ، ثم ينحدر عنها إلى الأماكن المنخفضة .

فالشاعر أراد أن يلتمس علة لفقر الكرماء ونبلاء العشيرة ، وهو وصف ثابت لا يعلل له ولا يسأل عن علته ، فاحتال لذلك بتشبيه الكريم بالمكان العالى المرتفع من حيث أن السيل لا يصل إليه فكذلك كريم القوم ، لأنه ذو مكانة عالية فالغنى لا يصل إليه .

ومن هذا القبيل مع تظرف ولطف مأخذ قول أبى هلال العسكرى فى البنفسج وخروج ورقته من الخلف :

زعم البنفسج أنه كعذاره حسنا فسلوا من قفاه لسانه[1]

فمن الأمر الثابت لزهر البنفسج أن له شيئاً بارزاً من خلف زهرته ، كاللسان لها ، ولا علة لهذا الوصف الثابت ، ولكن الشاعر تمحل له علة تظرفاً منه ، فجعلها أن البنفسج زعم أنه مثل عذار المحبوب فى الحسن كذبا من البنفسج وبهتانا فأدبوه على هذا الزعم بأن سلوا لسانه من قفاه .

---

(١) البنفسج : زهر معروف هادىء الرائحة ، له زائدة خلف زهرته. والعذار ما يظهر من الشعر على الخد .

ومن لطيف ما جاء من هذا القسم مع استرسال فى الخيال قول ابن نباته يصف فرساً أسود محجلا أغر :

وأدهم يستمد الليــل منـه وتطلع بين عينيـــه الثريا
سرى خلف الصباح يطير زهـوا
ويطوى خلفه الأفلاك طيا
فلما خاف وشك الفوت منه تشبث بالقوائم والمحيـــا[1]

بالغ الشاعر فى سواد الفرس فجعله مصدراً يستمد الليل منه ظلمته ، وشبه غرته وهى البياض بين عينيه بالثريا ، وتخيل أن الفرس أخذ يعدو خلف الصباح ويطوى الأفلاك بشدة سرعته ، فخشى الصبح أن يسبق فأمسك بقوائمه وجبهته يحجره عن السبق فترك أثراً منه فى هذه الأماكن من الفرس ، فكانت الغرة فى جبينه والتحجيل فى قوائمه .

فبياض جبهة الفرس وقوائمه أمر ثابت فيه ، ولا تظهر له علة ، ولكن الشاعر جعلها أثراً لتشبث الصبح بهذه المواضع خشية أن يفوته الفرس ، وهذا — لا شك — إغراق فى الخيال ولكنه لطيف .

وألطف من هذا فى نفس المعنى مع تغلغل فى الخيال وإبعاد فيه قول الآخر .

---

(١) الأدهم : الأسود . يستمد الليل منه ، أى يستعير ظلمته . والثريا : مجموعة كواكب على شكل عنقود العنب ، استعيرت لغرة الفرس . والزهو الكبر والخيلاء . والأفلاك جمع فلك : مدارات النجوم وشك الفوت : سرعته . والتشبث : التعلق . والمحيا : الوجه .

فكأنما لطم الصباح جبينه ... فاقتص منه فخاض فى أحشائه

وهذا الشاعر عقد معركة الصباح وفرسه ، وجعل الصبح معتديا ، حيث لطم الفرس على جبينه فابيض منه الجبين فأخذ الفرس يثأر لنفسه فخاض بقوائمه فى أحشاء الصباح فابيضت منه القوائم ، فترى هذا الشاعر قد جرى وراء الخيال إلى مسافات أبعد من سابقه ولكنه أبدع وأجاد .

القسم الثانى : أن يكون الوصف ثابتاً وله علة غير التى أدعاها المتكلم .

والمثل فى ذلك قول المتنبى :

ما به قتل أعاديه ولكن ... يتقى إخلاف ماترجو الذئاب[1]

يصف الشاعر ممدوحه بأنه شجاع قتال لأعدائه ، ولكنه سلك لذلك طريقاً لطيفاً ذلك أن جماعة الذئاب اعتادت أن يوسع عليها بقتال هذا الممدوح لأعدائه فهى تطعم كثيراً من أشلاء قتلاه المتخلفة بعد المعركة ، فهو حين يقتل أعداءه لا يقتلهم ليتخلص منهم كما هو السبب الظاهر لقتل الأعداء ، وإنما يقتلهم ليحقق للذئاب ما ترجوه منه ، وهو أن يوسع عليها فى رزقها . فقتل الأعداء وصف ثابت له علة ظاهرة هى دفع مضرتهم ، ولكن الشاعر تظرف فالتمس علة أخرى غير حقيقية هى تحقيق ما ترجوه الذئاب منه .

ومن هذا القبيل قول كشاجم يعلل نزول الحمى ولزومها بعلى بن سليمان الأخفش :

---

(١) ما به قتل أعاديه : أى ليس ما يدعوه لقتل أعاديه لسطانه ومنعته عليهم وتمكنه منهم . يتقى إخلاف ما ترجو : أى يخاف تفويت رجائها .

ولقـــد أخطأ قوم زعموا أنهـا من فضل برد بالعصب
هـو ذاك الذهن أذكى ناره والمزاج المفرط الحر التهب[١]

نفى أن تكون حرارة الجسم المصاب بالحمى من فعل الحمى نفسها ، وادعى أن سبب ذلك هو اتقاد ذكاء الممدوح وفرط مزاجه الحر ، فقد طوى السبب الحقيقى وأظهر مكانه سببا آخر رآه أنسب بمقام الممدوح[٢] .

ومن هذا الضرب قول أبى طالب المأمونى يصف أحد الوزراء :

مغرم بالثناء صب بكسب المجد يهتز للسماح ارتياحا .
لا يذوق الإغفــاء إلا رجــاء
أن يرى طيف مستميـح رواحا[٣]

الشاعر يبالغ فى وصف ممدوحه بالكرم والسماحة والجود إلى أقصى غاياته ، فهو يود أن يسأل فيعطى فى جميع أوقاته حتى إذا ما جنه الليل وانقطع عنه المجتدون اعطائه طلب النوم علة يسعد فى المنام برؤية مستميح يسأله فيعطيه .

فطلب النوم وصف ثابت علته الظاهرة طلب الراحة والاستجمام ، ولكن الشاعر جعل علته رؤية الطالبين المعروف مناما .

ولعل الأصل فى هذا المعنى قول قيس بن الملوح (المجنون) يخاطب ليلاه :

---

(١) أذكى : أشعل - المفرط : الزائد .
(٢) أنظر البديع من المعانى والألفاظ ص ٤١ .
(٣) السماح - بفتح السين - الكرم . الإغفاء : النعاس . المستميح : طالب السماح والعطاء .

وإنى لأستغشى وما بى نعسة   لعل خيالا منك يلقى خياليا

فالمجنون لا يطلب النوم لعلته الحقيقية التى اعتادها الناس وهو الراحة وإزالة التعب عن الجسم والذهن ، وإنما يطلب النوم ليلتقى خياله بخيال ليلاه .

ومن طريف هذا القسم قول ابن هانىء الأندلسى :

لو لم تصافح رجلها صفحة الثرى   لما كنت أدرى علة المتيمم

فالتيمم بالتراب علته معروفة . لكن الشاعر أخفى العلة الحقيقية للتيمم وادعى أن علته أن رجل المحبوبة بملامستها التراب أكسبته طهارة وشرفاً ونحن ما نتيمم إلا لنحصل على هذه الطهارة وذلك الشرف !!!

ومن بديع ذلك قول ابن المعتز :

قالوا اشتكت عينيه فقلت لهم   من كثرة القتل نالها الوصب

حمرتها من دماء من قتلت   والدم فى النصل شاهد عجب

فحمرة العين وصف ثابت لها وعلته المعروفة ما يعترى العين من رمد أو قذى ولكن الشاعر انتحل له علة أخرى غير ماله فى الحقيقة هى دماء قتلاها .

القسم الثالث : أن يكون الوصف غير ثابت ، ولكنه ممكن وإن كان غير واقع .

والمثال الواضح فيه قول مسلم بن الوليد الذى يستحسن إساءة الواشى لأنها تمنعه البكاء فلا يغرق إنسان عينه فى الدموع حيث يقول :

يا واشياً حسنت فينا إساءته نجى حذارك إنسانى من الغرق(١)

فإساءة الواشى أمر لا يستحسنه أحد ، ولكنه عدها حسنة . فاستحسان الإساءة غير ثابت ، ولكنها ممكنة غير واقعة وانتحل الشاعر لهذا الإستحسان علة هى أنه خاف الواشى أن يشمت به فلم يبك فنجا إنسان عينه من الغرق فى الدموع .

ومن ذلك قول عنترة :

ولقد ذكرتك والرماح أهله على وبيض الهند تقطر من دمى

فوددت تقبيل السيوف لأنها لمعت كبارق ثغرك المتبسم

يقول : إن طيفك لا يفارقنى وإن ذكراك معى حتى فى أصعب المواقف ، فأنا أذكرك فى ميدان القتال حيث تتكاثر على الرماح وتنال منى السيوف ، بل إن بريق السيوف ولمعانها يزيدنى تذكراً فأود تقبيلها .

فالوصف المقطوع بنفيه هو تقبيل السيوف وإن كان ممكناً ، وقد أدعى الشاعر علة له تقربه من الإمكان وهى أنها تشبه فى بريقها ثغر محبوبته ، فهو أحب تقبيل السيوف لأنها كانت تلمع فى ناظريه لمعان ثغرها .

القسم الرابع : أن يكون الوصف غير ثابت وهو غير ممكن الوقوع .

ومثاله الجلى معنى بيت فارسى مشهور هو قول الشاعر :

---

(١) الواشى : الساعى بين الناس بالوقيعة وإفساد العلاقات الطيبة . إنسانى : يعنى إنسان العين ، وهو سوادها ، والمراد حبة العين .

لو لم تكن نية الجوزاء خدمته   لما رأيت عليها عقد منتطق[1]

يريد أن الجوزاء فى نيتها خدمة هذا الممدوح ، بدليل أنك ترى عليها المنطقة التى تشد على الوسط عند الخدمة . فنية الجوزاء الخدمة غير ممكنة فهى وصف غير ثابت أراد الشاعر إثباته فالتمس له العلة وجعلها رؤية العقد من النجوم حولها كمنطقة قد شدت على وسطها وما ذاك إلا لنيتها خدمة الممدوح .

فتراه قد استدل بالجزاء على الشرط وهذا على خلاف الأصل فى لو من أن المقدم فيها دليل على التالى ، فتقول لو لم تذاكر لم تنجح فتجعل المذاكرة دليلاً على النجاح ، وإذا يكون البيت من القسم الأول وهو ما يكون الوصف فيه ثابتاً لا تظهر فى العادة علة على ما هو الأصل فى لو ، ويكون المعنى إذاً : المنطقة مشدوده على الجوزاء لأنها تنوى خدمته فجعلت نية الخدمة دليلا على الوصف الثابت للجوزاء ، وهذا الوصف هو انتطاقها بالنجوم المنتظمة حولها كالعقد .

هذا على أن لو شرطية تفيد امتناع التالى لامتناع المقدم ، أما على التوجيه الأول فلو استدلالية لمجرد الاستدلال بالتالى على المقدم ، كالتى فى قوله تعالى : « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا[2] » .

* * *

---

(١) الجوزاء : برج من الأبراج الفلكية يضم عدة نجوم يقال لها نطاق الجوزاء وعقد منتطق : - إسم مفعول - أى عقداً منتطقا به .

(٢) الأنبياء آية : ٢٢ . وأنظر حاشية الدسوقى ٤/٢٨١ .

٤ ـ المبالغة

معناها فى اللغة :

المبالغة فى لغة العرب مصدر بالغ ، يقال : بالغ فى الشيء مبالغة وبلاغاً ـ بكسر الباء ـ إذا اجتهد فيه ووصل إلى أقصى غرض منه .

أما معناها فى إصطلاح البلاغيين : فهو أن يدعى لوصف ما بلوغه فى الشدة أو الضعف حداً مستحيلا أو مستبعداً لئلا يظن أنه غير متناه فى الشدة أو الضعف[1] .

مثال ذلك : قول بشار بن برد : ـ

إذا ما غضبنا غضبة مضرية
هتكنا حجاب الشمس أو قطرت دما

يقول الشاعر إنه وقومه ذو بأس وشكيمة ، وأنهم موضع مهابة من جيرانهم ومن دونهم ، وأن الجميع يخشون بأسهم وغضبهم ، فإن غضبهم شديد لا يستهان به ، فكيف بغضب يهتك حجاب الشمس أو يجعلها تقطر الدماء ؟ !

فالشاعر يدعى أن غضبهم بلغ حداً فى شدته وقسوته بحيث هتك حجاب الشمس وجعلها تقطر الدماء ، وهذا الحد الذى أدعاه الشاعر لهذا الوصف لا شك أنه مستحيل إلا أنه أراد أن يوهم أن غضبهم هذا لا نهاية لشدته وقوته .

---

(١) انظر شروح التلخيص ٤ / ٣٥٨ .

ومثال آخر : قول عمرو بن الأهتم التغلبي يمدح نفسه وقومه : ـ

ونكرم جارنا ما دام فينا وتتبعه الكرامة حيث مالا

يصف الشاعر نفسه وقومه بالكرم والسخاء ، فهم يكرمون جارهم ، ويبالغون فى كرمه حتى إذا رحل عن ديارهم وترك أرضهم فإنهم يتبعونه بالكرم حيث حل وحيثما كان .

فهو يدعى أن كرمهم بلغ فى قوته وشدته حداً بحيث إن كرمهم للجار لا يقتصر على مدة بقائه فى جوارهم وبالقرب منهم ، وإنما كرمهم يمتد إليه مهما بعدت دياره أو نأت به الأماكن .

وهذا الحد الذى ادعاه الشاعر لهذا الوصف حد مستبعد ، ولكنه قصد أن يبين أن كرمهم لا نهاية لقوته وشدته .

أقسام المبالغة

الحد المدعى للوصف بلوغه قد يكون ممكنا عقلا وعادة ولكنه مستبعد وذلك هو التبليغ وقد يكون ممكنا عقلا متعذرا عادة فيسمى إغراقاً ، وقد يكون غير ممكن عقلا وعادة ، أى مستحيلا فهذا هو الغلو .

وإليك بيان هذه الأقسام الثلاثة وأمثلتها : ـ

١ — التبليغ : وهو ما كان المدعى فيه ممكنا عقلا وعادة ، يعنى أن تحققه غير ممتنع وإن كان مستبعداً . كقول امرىء القيس يصف فرسه بالقوة والصلابة : ـ

فعادى عداء بين ثور ونعجة دراكا فلم ينضح بماء فيغسل

يقول : إن فرسه بلغ من قوته وصلابته حداً بعيداً ، فقد استطاع أن يدرك ثوراً وبقرة وحشيين فى جولة واحدة دون أن يتعب أو يصيبه إعياء أو تظهر عليه علامة من علامات الإجهاد لدرجة أنه لم يعرق ، وهذا هو معنى قوله : لم ينضح بماء فيغسل .

والحد المدعى للوصف هنا كونه لم يعرق ولم يتعب مع إدراكه الثور والبقرة فى جولة واحدة ، وهذا الحد المدعى ثبوته هنا على هـذا الوجه لا يمنعه العقل ولا تمنعه العادة ، وإن كان أمراً بعيداً .

وأكثر من هذا مبالغة قول أبى الطيب يصف فرساً أيضاً : ـ

واصرع أى الوحش قفيته به وأنزل عنه مثله حين أركب

فقد مدح أبو الطيب فرسه أولا بأنه يلحق كل وحش ، وثانيا بأنه لم يجهد ولم ينل طراد الوحش من قوته شيئا ، فهو بعد الطراد فى قوته قبل الطراد .

ومدحه بأنه يلحق أى وحش لا مبالغة فيه ، أما قوله بأنه ينزل عنه مثله حين يركب بمعنى أنه يدرك به أى فريسة ، ثم ينزل عنه وهو فى حالة من النشاط والقوة مثلما ركبه ابتداء فهو أمر بعيد فى العادة وإن كان ممكنا لا يمنعه العقل ولا تمنعه العادة فهو تبليغ كسابقه .

وألطف من هذين فى هذا الباب ، ونرى المبالغة فيه أكثر قربا وقبولا قول الشاعر : ـ

وعادية إلى الغارات صبحاً تريك بقدح حافرها إلتهابا

كأن الصبح ألبها حجولا وجنح الليل قمصها أهابا

جواد فى الجبال تخال وعلا(١) وفى الفلوات تحسبها عقابا
إذا ما سابقتها الريح فرت وألقت فى يد الريح الترابا

فتراه فى هذه الأبيات قد أضفى على فرسه صفات لم يخرج فى إحداها عن حد المعقول وما جرت به العادة فى مثلها ، ففى البيت الأول جعل حافرها يريك الشرر حين يحتك بالحصى من شدة العدو ، وفى الثانى جعل أحجالها كاون الصبح وسواد سائرها من الليل ، وفى الثالث جعلها فى الجبال والمرتفعات كالوعل الذى لا يعوقه حزن ولا تضاريس ، وفى الرابع جعلها تسابق الريح فتسبقها ، وتهزأ بالريح فتلقى فى يدها التراب .

ومن لطيف هذا الضرب ما مر من قول ابن الرومى يهجو بخيلا : —

لو أن بيتك يا ابن يوسف ممتل إبراً يضيق بها فناء المنزل
وأتاك يوسف يستعيرك إبرة ليخيط قــــد قميصه لم تفعل

فقد بالغ ابن الرومى فى وصف مهجوه بالبخل إلى حد هو : أنه لو كان عنده إبر كثيرة امتلأ بها فناء المنزل حتى ضاق بها ، ثم جاءه أبوه يطلب منه واحدة ليخيط ما تمزق من قميصه فإنه يضن بذلك الشيء على حقارته وتفاهته .

وهذا الحد الذى أراد الشاعر إثباته ، وإن كان مستبعداً إلا أنه ممكن عقلا وعادة(٢) .

---

(١) الوعل : ذكر الأروى : وهو الشاة الجبلية ، وجمعه أوعال ككبد وأكباد وأشاه وعلة بكسر العين .

(٢) انظر ص ٣٤ ، ٣٥ من هذا الكتاب .

ومن ذلك أيضا ما روى عن الإمام الشافعى - رضى الله عنه أنه زار صديقا له مريضا ، فرض الشافعى إشفاقا عليه ، فلما بل صديقه من مرضه ذهب لزيارة الإمام الشافعى ، فلما رآه الشافعى شفى من مرضه ، وزال عنه ما كان يجده فأنشأ يقول : -

مرض الحبيب فعـــدته فمرضت من حذرى عليه
وأتى الحبيب يعـــودنى فشفيت من نظرى إليه

فالمعنى الذى أراد أن يبالغ الإمام فى إثباته - وهو الحب الشديد والإخلاص النقى - جائز الوقوع عقلا وعادة ، بل هو منصوص عليه باعتباره الشعور الأصمى الذى يجب أن يتجلى به المؤمنون حيث يقول سيد الخلق - ﷺ - «مثل المؤمنين فى توادهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو ، تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر »[١] .

---

٢ - الإغراق : وهو ما كان المدعى فيه ممكنا عقلا لا عادة ، يعنى أن العقل يجيزه ولا يمنعه ، وإن كان لا يحدث عادة ، فهو جائز من وجه ويمتنع من وجه آخر .

وهذا القسم ضربان : -

أولهما : وهو أعجبهما وأوقعهما فى النفس ، وأجلب للإصغاء أن يقترن الإدعاء بما يقرب المدعى من الوقوع ، فيزداد المعنى جمالا وكمالا من نحو : لو ، كاد ، وحسب ، وخال ، ونحو ذلك ، كقول امرىء القيس يصف امرأة بالرقة والنعومة : -

---

(١) انظر بديع المعانى والألفاظ ص ٥١ .

من القاصرات الطرف لو دب محول
من الذر فوق الاتب منها لأثرا(١)

يبالغ فى نعومة جسدها إلى حد أنه يتأثر من دبيب النملة فوق قميصها ، وهذا الحد يجيزه العقل .

وإن كان لا يقع عادة ، فلم يجر فى العادة أن مشت نملة فوق قميص فأحس لابسه بمشيها ، ولكن الشاعر قرب هذا المدعى بلفظ « لو » .

ومن شواهده أيضا قول الشاعر يصف سحابا بالقرب من سطح الأرض :

دان مسف فويق الأرض هيدبه
يكاد يلمسه من قام بالراح

لأن قرب السحاب من الأرض حتى يبلغ هذه الدرجة التى ذكرها الشاعر ليس ممتنعا عقلا وإنما هو ممتنع فى العادة ، وقد قرب الشاعر هذا المدعى بلفظ « يكاد » .

ومن هذا الضرب قول جرير :

إذا غضبت عليك بنو تميم حسبت الناس كلهم غضابا

يريد أن يقول : أن بنى تميم لهم تأثير فى الناس ، فبالغ فى هذا المعنى ،

---

(١) قاصرات الطرف : اللاتى يحبسن النظر على أزواجهن . ودب : مشى ، محول . ما مضى عليه حول من الذر ، والأتب : ثوب المرأة الداخلى من قميص وغيره .

وأدعى أنهم إذا غضبوا على إنسان فإن الناس جميعا ينزلون على حكمهم ، وهذا المعنى جائز من جهة العقل ، وإن امتنع من جهة العادة ، وقد قرب هذا المعنى بلفظ « حسب » .

ثانيهما : أن يأتى الكلام مجرداً عما يقرب المدعى من الوقوع ، وذلك كثير فى كلامهم ومنه قول امرىء القيس : -

تنورتها من أذرعات وأهلها   بيثرب أدنى دارها نظر عال

أذرعات بالشام ويثرب مدينة الرسول الكريم ﷺ - وبينها مسيرة عشرة أيام ، فهو عادة يمتنع أن يرى الإنسان من إحدى البلدتين النار الموقدة فى الأخرى ، ولكن العقل لا يمنعها بل يجــوز ذلك ، ولذا كان إغراقاً .

ومثل ذلك قول ابن المعتز : -

ملك تراه إذا احتبى بنجاده   غمر الجماجم والصفوف قيام

يصف ابن المعتز هذا الملك بطول القامة ، وبالغ فى هذا الوصف إلى حد أن الملك وهو محتب يغطى الرؤوس وأصحابها قيام ، ولم تجر العادة بذلك ، ولكنه جائز عقلا .

ومنه قول الفرزدق يهجو جريراً : -

قوم إذا استنبح الأضياف كلبهم
قالوا لأمهم بولى على النـــار

يبالغ الشاعر فى هجاء قوم جرير ووصفهم إلى حد أنهم إذا حسوا ضيفاً أو قادماً أطفأوا نارهم وقالوا لأمهم بولى عليها حرصاً أن لا ينال

الضيف جزءاً مما عندهم مما عساه أن يكون على هذه النار ، وهذا الحد جائز من جهة العقل ممتنع من جهة العادة والعرف .

ومن شواهد الإغراق قول الشاعر : ـ

وما الدهر إلا من رواة قصائدى
إذا قلت شعراً أصبح الدهر منشدا

فإن الشاعر يدعى أنه إذا قال شعراً فإن الناس جميعاً يرددون هذا الشعر ويروونه عنه .

وهذا المعنى الذى أدعاه الشاعر ليس ممتنعاً عند العقل ، وإن كانت العادة لم تجر به .

وقد جاء على ضربى الإغراق بيتا أبى الطيب المشهوران وهما : ـ

روح ترفرف فى مثل الخلال إذا
أطارت الريح عنها الثوب لم تكن
كفى بجسمى نحولا أننى رجل
لولا مخاطبتى إياك لم ترن

يصف جسمه بالنحول إلى حد أنه صار مثل عود الخلال ، ولم يأت بلفظ يقرب المدعى فكان إغراقاً من الضرب الثانى ، ولم يكتف بذلك وإنما بالغ فى هزاله ونحوله إلى حد أنه لا يرى لولا صوته الذى يدل عليه ، ولكنه قرب المدعى بلفظ « لولا » . وأنت ترى أن العادة تمنع أن يصل النحول بأى جسد إلى هذا الحد الذى ادعاه ، ولكن العقل لا يمنع .

---

٣ ـ الغلو : وهو ما كان المقدار المدعى للوصف بلوغه مستحيلا عقلا وعادة ، وهذا مسرح الشعراء المفلقين فى مديحهم وهجائهم .

وهو ضربان : ـ

الضرب الأول : أن يقترن به ما يبعده عن حد الاستحالة ، ويقربه من الصحة والإمكان سواء كان المقرب لفظاً أو غيره ، وهذا الضرب ثلاثة أنواع : ـ

النوع الأول : أن يقترن بالمدعى لفظ يقربه من الصحة والامكان ، كلفظ يكاد ، ولولا ، ويخيل . . . الخ المقربات اللفظية .

كقول الشاعر يصف فرسه بالسرعة : ـ

ويكاد يخرج سرعة من ظله لو كان يرغب فى فراق رفيق

يقول : إن هذا الفرس يوشك : أن يسبق ظله ويفترق عنه ، وهذا أمر غير ممكن ، بل هو مستحيل فى العقل والعادة ، لأن ظل الشيء لا ينفك عنه أبداً ، ولكن الشاعر خفف من غلو هذا الادعاء بلفظ يكاد ، فقد أفاد هذا اللفظ أن الحال لم يقع ولكنه قرب من الوقوع .

ومثله قول أبى العلاء المعرى : ـ

تكاد قسيه من غير رام تمكن فى قلوبهم النبالا

فوقوع النبال فى القلوب من غير رام لقسيها أمر مستحيل عقلا وعادة ، ولكن الشاعر خفف من هذه الاستحالة وقربها بلفظ يكاد ، كسابقه .

ومنه قول الشاعر يمدح كريما ويبالغ فى كرمه : ـ

يكاد إذا ما الكلب أبصر ضيفه يكلمه من حبه وهو أعجم

يقول : إن كلب الممدوح لشدة إلفه لضيوفه اذا أبصر واحداً منهم قادماً نحو داره فإن الكلب يوشك أن يكلمه من حبه له ، وهذا ممتنع عقلا وعادة ، ولكن الشاعر دفع هذا الامتناع وتلك الاستحالة بلفظ يكاد .

ومن هذا القبيل قول البحترى : ـ

ولو أن مشتاقا تكلف فوق ما　　فى وسعه لسعى إليك المنبر

فقد أدعى أن المنبر يسعى إلى الممدوح ، وسعى المنبر إلى الممدوح أمر مستحيل لا يتصوره عقل ولا تقره عادة ، ولكن الشاعر أتى بلفظ « لو » ليقرب هذا المستحيل من الصحة والإمكان .

ومنه أيضا قول المهلهل : ـ

فلولا الريح أسمع من بحجر　　صليل البيض تقرع بالذكور

وإذا علمت أن بين حجر ومكان الوقعة مسيرة عشرة أيام علمت أن المدعى ـ وهو أن يسمع من بحجر ضرب السيوف من مكان الواقعة ـ أمر مستحيل عقلا وعادة ، ولكن الشاعر خفف من هذا البعد بلفظ « لولا » .

ومن هذا النوع أيضا قول ابن ميادة يمدح قيساً : ـ

ولو أن قيساً قيس عيلان أقسمت
على الشمس لم يطلع عليك حجابها

فمن المعروف أن حجاب الشمس يدور فى فلك منتظم خاضع لسنن الله فى كونه ، وليس فى مقدور أحد أن يعوقه عن الدوران ، أو يزحزحه عن فلكه ، ولذلك كان المدعى الذى ادعاه الشاعر أمراً مستحيلا فى العقل والعادة ، ولكن الشاعر خفف من هذه الاستحالة بلفظ « لو » التى أفادت أن المستحيل لم يقع لتعلقه على الشرط .

النوع الثانى : أن يتضمن الكلام المشتمل على المبالغة نوعا

حسنا من تخييل الصحة والإمكان ، والمثل فى ذلك قول المتنبى : ـ

عقدت سنابكها عليها عثيرا   لو تبتغى عنقا عليه لأمكنا

المعنى أثارت الخيل الغبار بكثرة كثيرة حتى صار فوقها كالجبل يمكن السير فوقه فهذه الخيل لو أرادت المشى عليه لأمكنها ذلك ، وهذا المعنى الذى أراد الشاعر أن يثبته خارج عن المعهود ، ومستحيل فى العقل والعادة ، ولكن الشاعر ضمن هذا المعنى المستحيل نوعاً لطيفا من التخييل ، ولذا فإن النقاد لم يروا فيه بأساً ، فالتخييل الحسن اللطيف فى تجميع الغبار وانعقاده فوقها حتى صلح للسير عليه ، ولو ـ هنا ـ جاءت بعد التخييل ، ومن ثم كان البيت مثالا للتخييل الحسن فحسب ، ولم تجعله « لو » من النـــوع الأول للغلو .

ومثل هذا تماما فى أن التخييل كان سابقا للفظ المقرب قول أبى العلاء المعرى : ـ

يذيب الرعب منه كل عضب   فــلولا الغمد يمسكه لسالا

العضب ـ وهو السيف القاطع ـ جعله الشاعر يذوب لرعبه من الممدوح ، وذلك مستحيل أى استحالة . ولكن ما فيه من تخييل حسن خفف من هذه الاستحالة ، وقرب من ذلك البعد ، والشطر الثانى من البيت أكد ذوبان السيف من الرعب ، فلولا ـ وهو اللفظ المقرب ـ جاء بعد الغلو والتخييل .

قالوا : ومن هذا النوع قول الأرجانى يصف طول الليل : ـ

وخيل لى أن سمر الشهب فى الدجى

وشدت بأهدابى إليهن أجفـــانى

الشاعر كنى عن طول الليل بالشطر الأول ، وكنى عن سهره بالشطر الثانى : ويشكو طول الليل والسهر ، والتركيبان اللذان كنى بهما مدعاهما محال ، ومع استحالتهما إلا أنهما تضمنا نوعاً حسناً من التخييل ، وقد صرح بذلك فى صدر البيت الأول بقوله « وخيل لى » . والأولى أن تعتبر المبالغة هنا بأنها قرنت بما يقربها من الإمكان لأن الشاعر بمطلع بيته هذا قد دفع عن نفسه كل حرج[1] .

النوع الثالث : أن يكون المدعى مخرجاً مخرج الخلاعة والهزل ، كقول النظام : —

توهمه طرفى فآلم وجهه
فصار مكان الوهم فى خده أشر[2]
ومر بفكرى خاطراً فجرحته
ولم أر خلقاً قط يجرحه الفكر

الشاعر هنا تظرف ما شاء له التظرف ، فجعل حبيبته يؤثر الوهم فى وجهها فيترك شقاً فيه ، ويؤثر الفكر فيه فيجرحه ، وهذا أمر مستحيل عقلاً وعادة ولكن اقترن هذا المدعى بشىء من التظرف والخلاعة والهزل .

ونظيره فى ذلك قول أبى نواس : —

أسكر بالأمس إن عزمت على الشرب غداً إن ذا من العجب

(١) أنظر بديع المعانى الألفاظ ص ٥٦ ، ٥٧ .

(٢) أشر : من أشر الأسنان حززها وحددها ، أو من أشر المنشار الخشب شقه ، يريد أن الوهم ترك أثراً فى خد حبيبه .

فقد أدعى أن مجرد عزمه على الشرب يسكره ، وسكره على هذا الحال محال فى نظر العقل والعادة ، ولكن أبا نواس قربه من الصحة والإمكان لأنه لم يقصد وقوعه وإنما قصد به الهزل والمضاحكة وإدخال السرور على السامعين(١) .

وللك أن تعد على طريقتهم فى ذلك قول أبى نواس - أيضا - يصف قدراً صغيراً : -

هى القدر قدر الشيخ بكر بن وائل
ربيع اليتامى عام كل هزال
وتغلى بذكر النار من غير حرها
وتنزلها عفواً بغير جعال
يغص بحيزوم الجرادة صدرها
وينضج ما فيها بعود خلال

يقول : إن هذه القدر لصغرها إذا وضعت فيها جرادة اختنق صدرها لضيقها ويمكن إنضاج ما يوضع فيها بعود ثقاب ، بل هى تغلى بمجرد أن تذكر النار ، ولا حاجة إذن لوضعها فوقها .

ومثله قول الآخر يصف أنف رجل : -

لقد مر عبد الله فى السوق راكبا
له حاجة من أنفه ومطرق
وعنت له من جانب السوق مخطة
توهمت أن السوق منها ستغرق

---

(١) محاضرات فى علم البديع ص ٢١ .

فأقذر به أنفا وأقذر بربه على وجهه منه كنيف معلق

وصف مخطته بالكبر حتى خيل إليه أن السوق سيغرق منها ، وهذا مستبعد ، كما أثبت الشاعر أن على وجهه كنيفا معلقاً من إفرازات أنفه .

وبالغ شاعر آخر فى وصف رجل كان يبطىء فى القراءة فقال :ـ

إذا قرأ العاديات فى رجب لم ينه آياتها إلى رجب

بل هو لا يستطيع فى سنة يقرأ تبت يدا أبى لهب

العاديات وتبت يدا أبى لهب من قصار سور القرآن الكريم ، لا تستغرق قراءتها سوى هنيهة ، والشاعر يدعى أن موصوفه يقرأ الأولى فى سنة قمرية كاملة ، وليس هو بمستطيع قراءة الثانية فى حول كامل ، وهذه دعوى غير مقبولة بأى قياس تعمله فيها ، ولكن الشاعر أخرج كلامه فيها مخرج التملح والتظرف ، ولذلك قبلت دعواه[1] .

الضرب الثانى : ألا يقترن به ما يقربه من الإمكان والصحة ، وهذا باق على بعده واستحالته ، فهو مرفوض من جهة العادة ، ولا تقره عادات الناس وأعرافهم .

وذلك كقول أبى نواس :ـ

وأخفت أهل الشرك حتى إنه لتخافك النطف التى لم تخلق

يقول : إن الممدوح جاهد أعداءه وأبلى فى ذلك بلاءً حسنا ، فأنزل بهم من ألوان التعذيب ما أذهب صوابهم وأحل بهم الذعر الشديد ، لدرجة أن خوفهم منه لم يقتصر على الأحياء ، بل تخطاهم إلى ما سوف يولد من

---

(١) بديع المعانى والألفاظ ص ٥٧ ، ٥٧ .

ظهورهم من ذريات ، يعنى أن الجيل المعاصر له قد خافه وحذره ، وأن الأجيال التى لم تخلق قد حدث لها نفس الشعور من الحذر والرهبة ، وإذا تأملت ما أراد الشاعر أن يصف به ممدوحه ، وجدت قسماً منه ليس بمنكر ولا بمستغرب ، وهو إضافة الأحياء من أهل الشرك المعاصرين للممدوح ، ووجدت قسماً آخر منكراً لا سبيل إلى إمكان وقوعه ، وهو إخافة الأجيال التى لم تخلق بعد ، وهذا واضح .

وهذا المدعى الذى ادعاه الشاعر ممتنع عقلا وعادة ، ولم يقترن به ما يقربه من الصحة والإمكان ، ومن أجل هذا بقى على بعده واستحالته .

ومن هذا الضرب قول المتنبى : -

كأنى دحوت الأرض من خبرتى بها
كأنى بنى الاسكندر السد من عزمى[1]

يشبه المتنبى نفسه بالخالق - سبحانه - فى دحوه الأرض ، ثم يهوى إلى الحضيض فيشبه نفسه بالاسكندر ، وهذا المدعى من الشاعر لا يقبله عقل ولا عادة ، ولا يشفع له إتيانه بلفظ كأن الدالة على التشبيه ، فهو غلو ممعن فى البعد والاستحالة خلا من أى مقرب له من الصحه والإمكان .

ومن ذلك قول ابن هانىء الأندلسى مادحاً :

---

(١) دحوت : من الدحية ، وهى البيضة أى جعلت الأرض مدحوة ومستديرة على شكل بيضاوى ، ومن أجل ذلك أخذوا من القرآن الكريم دليلا على كروية الأرض ، وهو قوله تعالى : « والأرض بعد ذلك دحاها » ، وأكثر المفسرين يفسرون دحاها بسطها ، والتحقيق ما سبق .

ما شئت لا ما شاءت الأقدار فاحكم فأنت الواحد القهار
فكأنما أنت النبى محمد وكأنما أنصارك الأنصار

ادعى الشاعر - ادعاء شنيعاً - أن إرادة الممدوح فوق إرادة الأقدار ، وهذا شطط بالغ كما أثبت للمدوح صفة لا يوصف بها إلا الخالق سبحانه وتعالى ، كما شبهه بالنبى ﷺ .

وهذا الإدعاء مخالف للشريعة مخالفة شنيعة ، ومخالفة الشرع فيما جاء به من أصول وقواعد أكبر من مخالفة العقل والعادة معاً ، فما جاء به الشاعر غلو باق على استحالته ، فلا يجدى معه أى مقرب من المقربات .

بين المعنى اللغوى والإصطلاحى :

سبق أن عرفنا أن معنى المبالغة يدور فى اللغة حول الاجتهاد فى الشىء والوصول إلى أقصى غاياته ، كما أوضحنا أن معناها عند البلاغيين هو أن يدعى لوصف ما بلوغه فى الشدة أو الضعف حداً مستحيلا أو مستبعداً لئلا يظن أنه غير متناه فى الشدة أو الضعف .

ولعل من السهل بعد بيان أقسام المبالغة أن تدرك بنفسك المناسبة بين المعنى اللغوى والمعنى الاصطلاحى للأسماء التى وصفها لهذه الأقسام ، وبخاصة إذا علمنا أن التبليغ من تبلغ بكذا واكتفى به ، أومن بلغ الفارس (بتشديد اللام) إذا مد يده بعنان فرسه ليزيد فى جريه ؛ وأن الإغراق من قولهم : أغرق فى الشىء إذا بالغ وأطنب ، أو من أغرق الرامى فى القوس إذا استوفى مدها ، وأن الغلو مصدر غلا فى الشىء (من باب قعد) إذا

تجاوز الحد فيه ، ويقال : غلا فى دينه : تشدد وتصلب متجاوزا الحد ، وفى التنزيل « يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم »(١) .

« آراء العلماء فى المبالغة »

يختلف النقاد والبلاغيون حول المبالغة من حيث قبولها ورفضها ، وهم فى ذلك على ثلاثة مذاهب : -

المذهب الأول : رفضها رفضاً مطلقا بجميع أقسامها السابقة ، وعدم الإعتراف بها بل يعدها أصحاب هذا المذهب من عيوب الكلام وليست من محاسنه ، وحجتهم فى ذلك أن خير الكلام ما خرج مخرج الصدق وجاء على منهج الحق ، ويزعمون أن المبالغة من ضعف المتكلم وعجزه عن أن يخترع معنى مبتكراً أو يفرع معنى من آخر أو يحلى كلامه بشىء من البديع أو ينتخب ألفاظا عزبه حسنة ويجيد تركيبها فى أسلوب سلس بديع يؤاخى فيه بينها فيأخذ بعضها بحجز بعض ، فإذا عجز عن ذلك كله أتى بالمبالغة لسد خلله وتتميم نقصه ، لما فيها من التزيد فى الشىء والتهويل على السامع ، ثم يدعى هؤلاء أنها ربما أحالت المعانى فأخرجتها من حد الإمكان إلى حد الامتناع ، وشعارهم فى جميع ذلك قول حسان بن ثابت : -

وإنما الشعر لب المرء يعرضـــه
على المجالس إن كيسا وإن حمقا
وإن أشعر بيت أنت قائله   بيت يقال إذا أنشدته : صدقا

---

(١) النساء . ى : ١٧١ .

المذهب الثانى : قبولها قبولا مطلقا بجميع أقسامها ، ويحتج أصحاب هذا المذهب بأن المبالغة لها شأن عظيم فى صناعة الكلام ، وأنها من أجل المقاصد فى الفصاحة والبلاغة وهى مظهر التفوق والبراعة ، ويقولون : إن أجود الشعر أكذبه ، وخير الكلام ما بولغ فيه .

ويؤيدون رأيهم بما جرى بين النابغة الذبيانى وحسان بن ثابت ، حيث استدرك النابغة على حسان قوله : —

لنا الجفنات الغر يلمعن فى الضحى
وأسيافنا يقطرن من نجده دما

ولدنا بنى العنقاء وابنى محرق
فأكرم بنا خالا وأكرم بنا ابنما

فقد عاب النابغة على حسان ترك المبالغة لأن المقام يتطلبها ، يقال له : أنك قلت الجفنات فقللت العدد ، ولو قلت (الجفان) لكان أكثر ، وقلت يلمعن فى الضحى ، ولو قلت « يبرقن بالدجى » لكان أبلغ فى المديح ، لأن الضيف بالليل أكثر طروقا ، وقلت : « يقطرن من نجدة دما » ولو قلت « يجرين » لكان أكثر لانصباب الدم ، وفخرت بمن ولدت ، ولم تفخر بمن ولدك فقام حسان منكسرا منقطعا[1] .

كما أن أصحاب هذا المذهب يرون ورود المبالغة فى القرآن الكريم ، ويحتجون بذلك على قبول المبالغة ، وأنها من سمات علو البيان ورفعة شأنه ، فالقرآن الكريم أعلى مراتب البيان ، وخير مثال يحتذى فى بلاغة الكلام وعلو مرتبته .

---

(١) انظر الموشح فى مآخذ العلماء على الشعراء ص ٥٤ ، ٥٥ .

المذهب الثالث : التوسط والاعتدال فى القبول والرفض ، فهذا المذهب يفضل ويفرق بين أنواع المبالغة ويعد المبالغة فنا من فنون الكلام ونوعاً من محاسنه ، ولا شك أن للكلام مافضل بهاء ورونق لا يخفى على من كان له أدنى ذوق . ولكن ليس هذا على الاطلاق فما كان منها جاريا على سنن الاعتدال وحد الاستقامة فهو الجميل الجيد يحسن الكلام ويزينه ويحله المحل اللائق به فى باب الفصاحة والبلاغة والبيان ، والمبالغة فى هذا النطاق شىء غير الكذب ، بل هى بعيدة عنه كل البعد .

ومن أنصار هذا المذهب ابن أبى الاصبع المصرى فهو يقول : « فعائب الكلام الحسن بترك المبالغة فقط مخطىء ، وعائب المبالغة على الاطلاق غير مصيب ، وخير الأمور أوسطها »(١) .

ومن أنصاره أيضاً ابن رشيق القيروانى فيقول « ولو بطلت المبالغة كلها وعيبت لبطل التشبيه وعيبت الاستعارة إلى كثير من محاسن الكلام »(٢) .

وقد نظر أصحاب هذا المذهب إلى أقسام المبالغة وأنواعها وانتهوا إلى ما يأتى : -

أولا : أن المبالغة فى النوعين الأولين ، وهى التبليغ والإغراق مقبولة ، ولا بأس من ورودها فى العمل الأدبى شعره ونثره ، لأن مدعاهما ممكن الوقوع عقلا وعادة ، أو عقلا فقط .

ثانيا : المبالغة فى النوع الثالث هو الغلو تقبل وتكون من محسنات

---

(١) تحرير التحبير ص ١٥٠ .
(٢) العمدة ٢ / ٤٣ .

الكلام ومن عوامل بلاغته إذا جاءت من الضرب الأول ، وهو ما كان مقترنا بما يبعده من حد الاستحالة ويقربه من الصحة والإمكان لفظاً كان أو غيره ، فيشمل الأنواع الثلاثة التي تندرج تحت هذا الضرب . أما الغلو من الضرب الثاني - وهو مالم يقترن به مايبعده من حد الاستحالة - فهو مرفوض مردود لما فيه من الإفراط والشطط والخروج عن المألوف .

أثر المبالغة فى بلاغة الكلام :

المبالغة بأنواعها الثلاثة : التبليغ والإغراق والغلو لا شك فى أن التحسين فيها ذاتى يقتضيه المقام وتستدعيه الأغراض ، وقد مر بنا هذا الأثر فى قول ابن الرومى : -

لو أن بيتك يا أبن يوسف ممتـــلـ
إبرآ يضيق بهـا فنـــاء المنزل
وأتاك يوسف يستعيرك إبرة ليخيط قـد قميصه لم تفعل

ورأينا أن المبالغة لا بد منها فى وصول الشاعر إلى غرضه من وصف مهجوه بمنتهى البخل والبلوغ فيه إلى أحط درجاته(1) .

وانظر هذا الأثر فى قول عمرو بن الأهتم التغلبى السابق : -

ونكرم جارنا ما دام فينا ونتبعه الكرامة حيث مالا

فهو تصوير حسن ، لبلوغه فى إكرام الجار حداً يأباه معتاد الناس ،

---

(1) انظر ص ٢٤ من هذا الكتاب

وينكره معروفهم إذا المألوف أن الجار يكرم جاره ما دام فى جواره ، فإذا مال ، مال عنه الكرم وانقطع العطاء ولكن هؤلاء يخرجون على ميزان العادات ، فيبلغون فى الكرم هذه المرتبة ، إذ أن عطاءهم يفيض على جارهم ما دام فى جوارهم ، فإن مال عنهم إلى جانب آخر لاحقته الكرامة وتعقبه العطاء أينما حل وأقام ، ولا ريب فى أن مقام الفخر مما يستدعى هذا الإغراق ، وكلما بولغ فيه كان أمكن وأقوى وأظهروا عرف[١] .

وبهذا يتضح أن أساليب المبالغة المقبولة لها مدخل فى بلاغة الكلام وحسنه وقوته وأن التحسين بها ذاتى داخل فى صميم البلاغة لأنها لا تقتضيها المقامات وتتطلبها مقاصد المتكلمين .

« المبالغة فى أسلوب قرآن الكريم »[٢]

رأيت فيما تقدم تحديد معنى المبالغة عند البلاغيين ، ووقفت على تقسيماتها عندهم وعلمت المقبول وشرطه ، والمرفوض وسببه عند النقاد وعلماء البلاغة ، وبعد ذلك التحديد والتقسيم نظروا فى أسلوب القرآن واستخرجوا منه صوراً ينطبق عليها حد المبالغة المذكورة ، ولم يتورعوا أن يطلقوا على تلك الصور ما أطلقوه على غيرها من أدب البشر .

فهذا أبو هلال العسكرى يورد قوله تعالى « وبلغت القلوب الحناجر » تحت المبالغة المسماة عندهم بالغلو ويذكر قبلها حد الغلو فيقول : الغلو تجاوز حد المعنى والارتفاع فيه إلى غاية لا يكاد يبلغها ، كقوله تعالى[٣] .

---

(١) انظر الصبغ البديعى ص ٤٨٥ .
(٢) بحث من كتاب البديع من المعانى والألفاظ ص ٥٨ وما بعدها .
(٣) الصناعتين ص ٢٨٠ .

ويذكر الآية المتقدمة ثم يذكر صوراً أخرى من أسلوب القرآن كقوله تعالى « وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال » وقوله سبحانه : « وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر » .

والقاضى أبو بكر الباقلانى يذكر الشعر : « ومن هذا الجنس فى القرآن. « يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد » .

وقوله تعالى: « إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا» وقوله تعالى : « تكاد تميز من الغيظ »[1] .

وذكر الخطيب القزوينى قوله تعالى : « يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار » على أنه نوع من الغلو المقبول[2] .

وتابعهم شراح التلخيص فأدرجوا هذه الآية تحت الغلو المقبول ، وغير بعضهم سر قبوله بأن المبالغة فيها قد اقترنت بما يقربها من الصحة ولم يرض هذا التعبير بعض الشراح فقالوا : كان ينبغى أن يقول . ادخل عليه ما يخرجه عن الامتناع تأدباً إذ صحة كلام الله لا مزيد عليها[3] .

وما أخال هذا الصنيع من البلاغيين إلا مجاراة لما استقر عندهم من قواعد اصطلحوا عليها فى شأن المبالغة . لأنه ليس من الهين إطلاق « الغلو » على أى تركيب فى أسلوب القرآن الحكيم ، وكل ما ورد فى القرآن مما اطلقوا عليه اسم « الغلو » أو الافراط فى الوصف يمكن فهمه على أسس أخرى تنأى به عما يليق بالنسبة لكلام الحكيم الخبير .

---

(١) إعجاز القرآن للباقلانى (٧٦ - ٧٨) تحقيق السيد أحمد صقر .

(٢) الايضاح جـ ٢ ص ٣٦٦ .

(٣) راجع شروح التلخيص جـ ٤ ص ٣٦٢ .

خذ إليك « مثلا » قوله تعالى : « إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر ... » تجد مقدمة الآية قد مهدت السبيل وهيأت الأذهان لما وصل إليه القوم . عدوهم جاءهم من جهتين غير معهودتين في حروب ذلك العصر وهما الفوقية والتحتية ، وإذا أمكن بجيشهم من هاتين الجهتين فما أسهل بجيشهم من سواهما وهي الأمام والخلف ، واليمين والشمال فهاهم قد طوقهم عدوهم في حركة سريعة محكمة ، وكاد المسلمون أن يسقطوا في أيديهم دهشة واستغراباً ، وبلغ الشعور بالاضطراب عندهم كل مبلغ ، ووصل بهم الحال إلى أن زاغت أبصارهم من أثر الانفعال النفسي العنيف المفاجيء ، وفي هذا إشارة إلى ما يداخلهم من الخوف حتى زاغت أبصارهم ، وزيغ البصر ميله وانحرافه عن الاستقامة .

فإذا تأملت قوما هذه حالهم : حركة تطويق سريعة تلفهم ويقعون عليه في أيدي عدوهم وتدور أعينهم في رؤوسهم ويصيرون ما بين مبصر تشابه المرئيات ومكفوف عن الأبصار وهو ينظر .

هذه الأوضاع أسلمتهم إلى هلع قاتل ارتجفت من أجله قلوبهم وتسارعت ضرباتها حتى فارقت القلوب مقارها خوفا وهلعاً . فهل إذا قيل بعد ذلك :

« وبلغت القلوب الحناجر » يصبح هذا التعبير الصائب الحكم غلواً وسرفا وإفراطا ؟ ! .

وهل لاحظ الذين أطلقوا على هذه الصورة الأدبية بأنها غلوا ما يصاحب حالات الذعر والاضطراب الشديد من حبسة الحلق تمنع من الكلام ويشعر صاحبها بحالة اختناق في الزور مصاحباً لها وتتأثر الحبال الصوتية بها أيما تأثر فتتغير نبرة الصوت أو تنحبس .

أن هذه الصورة « وبلغت القلوب الحناجر » هى التى تكشف لنا عن الشعور النفسى الرهيب الذى أصيب به القوم دون أن يكون المراد أن القلوب لشكلها الحسى هى التى صعدت واحتلت مكانا فى الحناجر ، وإنما كانت آثار تلك الحالة القلقة العنيفة المضطربة التى حلت بالقلوب ، والقلب هو مركز الأمان ، والاستقرار ، فإذا فقد القلب سلطانه فما بقى لدى الانسان شيء .

ويقول زهير فى هذا المعنى :

لسان الفتى نصف ونصف فؤاده ... فلم يبق إلا صورة اللحم والدم

والتعبير باضطراب القلب للدلالة على الهلع والجزع سمة من سمات أسلوب القرآن قال سبحانه فى وصف الحالة التى انتابت أم موسى عند إلقائه فى اليم :

« وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً إن كادت لتبدىء به ، لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين » .

عبر عن جزعها واضطرابها بفراغ الفؤاد واضطرابه حتى كادت أن تلقيه من جوفها لشدة ما حل بها من إشفاق وأسى ، وعبر عن سكونها واستقرارها بالرباط على القلب .

والقرآن الكريم يذكر القلب ولا يريد منه شكله الحسى وإنما يريد منه معناه باعتباره مركزاً للعقيدة وما يصدر عنها من حب وكره ، وأمن وخوف ، ووعى وغفله ، وهدى وضلال .

قال سبحانه : « إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب » فليس المراد بالقلب هنا كتلة اللحم والدم ، بل المراد به الوعى والفقه والعلم ، إذ لا يصح

نفى القلب عن حى ، وقال سبحانه « تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى » ، والمراد من القلوب هنا الآراء والعقائد والاتجاهات وقد ذكر الراغب أن المراد من القلوب فى قوله تعالى : « وبلغت القلوب الحناجر » يعنى : الأرواح[١] ، ويكون المعنى أنهم كادوا يلفظون أرواحهم من شدة ذعرهم وهلعهم ، ولو أن الذين حكموا على هذه الصورة بأنها غلو اعملوا فكرهم فى معناها لما تورطوا فيما تورطوا فيه ، وكان يكفيهم أن يذهبوا مذهب الراغب فى توجيهها فيريحون ويستريحون .

وإذا نظرت إلى قوله تعالى « وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال » وقد عدوه من الغلو إذا نظرت فيه نظرة جادة واعية بأن لك خطأهم فى هذا السلوك ، ويكفيك أن تفهم أن الآية الكريمة يمكن فهمها على الوجه الآتى :

إن الكافرين قد امتلأت قلوبهم حقداً على الرسل والهداة ، وأخذوا يضمرون فى أنفسهم نحو المؤمنين كل صفات اللؤم والمكر ، حملوا فى أنفسهم العداء المدمر ولو خلى بينهم وبين ما يريدون فترجموا ضغائنهم إلى عمل لفعلوا الكثير ولو سلطوا على الجبال الراسيات بدافع من أنفسهم الحاقدة الماكرة لأزالوها أن كان فى ذلك شفاء لغيظهم[٢] .

وقال سبحانه مشبها أعمال الذين كفروا :

---

(١) المفردات ص ٤١١ .

(٢) ما ذكرته فى معنى الآية أحد وجوه هو أرجحها فيما أرى مع التصرف فى الصياغة بما يزيل شبهة الغلو المدعاة . راجع كشاف الزمخشرى ج ٢ ص ٤٤٠ .

« أو كظلمات فى بحر لجى ، يغشاه موج ، من فوقه موج ، من فوقه سحاب ، ظلمات بعضها فوق بعض . إذا أخرج يده لم يكد يراها ».

تأمل التصوير الرائع الذى عرضته الآية الكريمة ، والظلال الكثيفة التى سيطرت على الجو النفسى فهناك ظلمات فى بحر لجى ، هذه واحدة .

ويغشى هذا البحر المظلم موج ، وهذه ثانية .

وفوق هذا الموج موج آخر يعلوه ، وهذه ثالثة .

وفوق هذا الموج الذى يعلو الموج الأول سحاب يمـــده ويغذيه ، وهذه رابعة .

ثم تأمل ذلك الاجمال الجامع لشتات ما تقدم : « ظلمات بعضها فوق بعض » ! .

تخيل هذا الجو الذى رسمته لك هذه الريشة المبدعة الآسرة ، وسل نفسك هل يمكن أن يرى الإنسان نفسه فى هذا الجو الحالك السواد ؟ والجواب - إذا أنصفتك نفسك - لا .

فإذ قال لك القرآن بعد هذا « اذا خرج يده لم يكد يراها » يكون فى هذا القول غلو وافراط . ؟

أم هى حقيقة أسلمتنا اليها مقدمات صادقة ؟ (لا بل هى الحقيقة التى يدركها الوعى ولو لم يصرح بها القرآن .

أما آية الزيت المضىء التى أجمعوا على أنها من الغلو المقبول - سامحهم الله فإن الغلو أن يقال أن فيها غلواً .

فمراد الله - والله أعلم - من هذه الآية « يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار »

وصف الزيت بالصفاء والنقاء ، وقد ثبت لكثير من الأجسام أن تضيء اذا ما نظرت اليها فى الظلام .

خذ اليك مثلا مؤشرات بعض آلات ضبط الوقت - الساعات - فانك تستطيع أن تعرف من النظر اليها وأنت فى غرفة مظلمة تماما الى أى الأوقات تشير .

وخذ اليك مثلا آخر بعض « المسابح » تجدها مصنوعة من حبات هى أكثر ما تكون لمعانا فى أشد الاظلام .

والسر فى هذه وتلك هو الصفاء الخالص .

وكذلك فإن الزيت الموصوف فى الآية انما هو زيت صافى نقى لا مثل الزيوت الأخرى ، ولشدة صفائه يكاد يضيء - يعنى يقارب درجة الاضاءة وان لم يضيء حقيقة حتى ولو لم تمسسه نار .

والمعنى فى ايجاز : أنه زيت مقارب للإضاءة لصفائه وليس مضيئا حقيقة . بل فيه نوع من اللمعان .

فهل فى هذا غلو وافراط ، ولماذا يقولون ان هذا الغلو مقبول لأنه اقترن بلفظ يكاد . فهل أطلعوا على أن التعبير كان فى الأصل زيتها يضيء ولولم تمسسه . ثم أدخل عليه « يكاد » للتخفيف من الغلو ، أم أن الآية عرفت بصورتها كاملة فكانت حقيقتها هى الخلو من الغلو ؟

وصفوة القول : أن بلاغة القرآن لها خصائصها وسماتها التى تميز بينها وبين غيرها من الأساليب ، ونحن - أحيانا - نسيء الفهم عند تحليل بعض صورها ، ويتبع الخطأ فى الفهم خطأ آخر فى التسمية ، وهذا وان حسنت

النية ، لا يليقان بهذا البيان المعجز الذى يجب أن يقاس عليه ما سواه ، لا أن يقاس هو بما سواه .

فليس فى القرآن تعبير جامح يمكن أن يطلق اسم « الغلو » اخضاعاً له للضوابط التى ابتدعها البديعيون ولا يستطيع منصف أن يضع قوله تعالى (وبلغت القلوب الحناجر) بإزاء قول الشاعر :

وأخفت أهل الشرك حتى أنه   لتخافك النطف التى لم تخلق

فى أن كلا منهما يدعى معنى محالا فى حكم العقل والعادة . فشتان ما بين النصين ولا ينسرقنا الى مثل هذا الخلط الا جهلنا بقيمة التعبير القرآنى وما يستشف منه من أسرار وحكم ، وصدق الله اذ يقول فى وصف كتابه .

« لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد »

* * *

٥ ــ المشاكلة

معناها فى اللغة :

المشاكلة مفاعلة من الشكل ، وهو الشبه والمثل ، يقال : تشاكل الشيئان وشاكل كل منهما صاحبه : صار شبيها له ومثيلا ، وفى فلان شبه من أبيه وشكل ، وفى القرآن الكريم « وآخر من شكله أزواج »[١] .

فالمشاكلة ، كالتشاكل ، معناها : الموافقة والمماثلة .

والشاكلة : الناحية ، والطريقة . قال تعالى : « قل كل يعمل على شاكلته »[٢] أى طريقته ومذهبه الذى يشبهه ويوافقه .

وأشكل الأمر : اختلط والتبس ، ومنه المشكلة ، وهو الأمر الذى توافقت فيه الأضداد حتى أصبح لا يمكن التمييز بينها .

أما معناها فى الإصطلاح فهو : ذكر الشىء بلفظ غيره لوقوعه فى صحبته تحقيقا أو تقديرا[٣] .

والمراد بالشىء فى التعريف : المعنى ، فالمشاكلة ذكر المعنى بلفظ غير لفظه الموضوع له ، بل بلفظ موضوع لمعنى آخر ، والمسوغ لذكر المعنى

---

(١) ص : ى : ٥٨ .
(٢) الإسراء . ى : ٨٤ .
(٣) الإيضاح ٤ / ٢٢ .

بلفظ غــــيره هو وقوع ذلك المعنى فى صحبة معنى آخر مدلول عليه بلفظه الحقيقى .

مثال ذلك : قوله تعالى « وجزاء سيئة سيئة مثلها »[1] وقوله : « تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك إنك أنت علام الغيوب »[2] .

وقول الشاعر : ـ

من مبلغ أفنـــاء يعرب كلها أنى بنيت الجار قبل المنزل

فى الآية الأولى : وقعت لفظ سيئة الثانية ليس مقصودا بها حقيقة السيئة التى يعاقب المرء على فعلها ، وإنما المقصود بها الجزاء الواقع بالمعتدى فقد ذكر الجزاء هنا بلفظ السيئة ، والذى سوغ وقوع الجزاء بلفظ السيئة وقوعه فى صحبة السيئة الأولى فى الآية ، حيث قصد بها معناها الحقيقى ، وهى الفعل المنهى عنه .

وفى الآية الثانية : لا يصح أن يراد بالنفس فى جانب الله ـ تعالى ـ حقيقتها ، وإنما صح إستعمال النفس فى جانب الله وسوغه وقوع النفس الأولى مراداً بها حقيقتها .

وفى البيت : جاءت كلمة بنيت « فى جانب الجار لا يقصد بها حقيقة البناء لأن الجار لايبنى والذى يبنى هو الجدار أو المنزل ، من ثم جاء هذا المعنى مذكورا بلفظ غير لفظه الموضوع له ، والذى سوغ ذلك هو وقوع هذا المعنى بصحبة البناء الحقيقى وهو بناء المنزل .

---

(١) الشورى . ى : ٤٠ .
(٢) المائدة . ى : ١١٦ .

« تقسيم المشاكلة »

المشاكلة - كما هو واضح من التعريف - قسمان : -

أحدهما : ما كان وقوع المعنى فى صحبة غيره وقوعاً محققا ، يعنى أنه وارد فى اللفظ ، كما تراه فى الأمثلة السابقة ، فوقوع السيئة الثانية فى الآية الكريمة : « وجزاء سيئة سيئة مثلها » مراداً بها الجزاء والعقاب إنما صح لوقوع المعنى الآخر معبراً عنه بلفظه الخاص به ، وهو سيئة الأولى ، وهو وقوع حقيقى كما هو واضح .

وكذا وقوع النفس فى جانب الله إنما صح لوقوع النفس الأولى فى جانب البشر - وهو عيسى عليه الصلاة والسلام - وهو وقوع حقيقى .

وكذا بناء المنزل جاء مصاحبا لبناء الجار مصاحبة حقيقية كما هو واضح فى البيت .

ومن ذلك ما مر من قول ابن الرقعمق الأنطاكى : -

قالوا اقترح شيئا نجـــد لك طبخه
قلت : اطبخوا لى جبة وقميصا[1]

فالجبة والقميص لا يطبخان ، وإنما يخاطان ، والذى سوغ استعمال الطبخ فى جانب الجبة والقميص وقوع الطبخ الحقيقى مصاحبا له فى البيت ، وهى مصاحبة حقيقية فى اللفظ .

---

(١) انظر ص ٣٧ من هذا الكتاب .

ومن أمثلة هذا النوع قوله تعالى : « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل مااعتدى عليكم »(١) ، فالمقصود بالاعتداء الثانى هو الجزاء الذى يقع على المعتدى ، وقد سوغ التعبير عن الجزاء بلفظ الاعتداء وقوع الاعتداء الحقيقى - وهو الاعتداء الأول فى الآية الكريمة فى صحبته وقوعاً تحقيقاً .

ثانيهما : ماكان وقوع المعنى فى صحبة غيره وقوعاً تقديرياً ، يعنى لا تكون المصاحبة فى اللفظ وإنما فى الفعل والمقام .

وذلك كقوله تعالى: « قولوا آمنا بالله وما أنزل الينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل واسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون . فان آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وإن تولوا فانما هم فى شقاق فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم . صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون(٢) » ،

كان النصارى يغمسون أولادهم فى ماء أصفر يسمونه « المعمودية » ويقولون إن ذلك تطهير لهم ، فاذا فعل الواحد منهم ذلك بولده قال الآن صار نصرانيا حقا ، وكان يسمون ذلك الفعل « صبغة » وهو مصدر على وزن فعلة - بكسر الفاء وسكون العين - فهو أسم هيئة .

والشاهد فى الآية الكريمة قوله « صبغة » أى تطهير ، فالمؤمنون أمروا أن يقولوا طهرنا الله بالإيمان تطهيراً لا كتطهير النصارى الذى يسمونه صبغاً ، فالإيمان يطهر النفوس ويزكيها من أدرانها وأوساخها .

فجىء بلفظ الصبغة مقصوداً به التطهير بالإيمان على سبيل المشاكلة ،

---

(١) البقرة . ى : ١٩٤ .

(٢) البقرة . الآيات : ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٣٨ .

وإن لم يكن قد تقدم لفظ الصبغ ، لأن قرينة الحال التي هي سبب الغمس - من غمس النصارى أولادهم في الماء الأصفر - دلت على ذلك .

ومثال ذلك أيضا أن تقول لرجل رأيته يغرس شجرا وأنت تعلم أنه يسيء عشرة أهله : اغرس المعروف في أهلك . فعبرت عن صنع المعروف بالغرس لوقوعه في صحبة الغرس تقديرا بقرينة رؤيتك إياه وهو يغرس الشجر ، فكأنك قلت له : اغرس المعروف كما تغرس الشجر .

ومن هذا النوع ما روى أن بعض الولاة كان يغرس سيالا[١] في جامع بغداد ، فوقف عليه شاعر وأنشد :

إن الولاية لا تدوم لواحد إن كنت تنكره فأين الأول ؟
واغرس من الفعل الجميل غرائسا
فإذا عزلت فإنها لا تعزل .

أقام اغرس مقام : اصنع ، ليشاكل فعل الوالي[٢] .

المشاكلة تجامع فنونا بديعية أخرى :

أوضحنا أن المشاكلة هي : ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته تحقيقا أو تقديرا ، وأنها قسم قائم برأسه من المحسنات البديعية .

غير أن هذا اللون قد يجامع - في بعض الأساليب - ألوانا أخرى من من الفنون البديعية ، سواء المعنوية أو اللفظية ، ولا تعارض بين المشاكلة في هذه الأساليب وبين تلك الفنون .

(١) السيال : شوك أبيض طويل إذا نزع خرج منه مثل اللبن .
(٢) الإشارات والتنبيهات ص ٢٦٨ .

وفى هذه الحالة حيثما نظرت إلى الأسلوب وما فيه من ألوان المحسنات أدخلته فيها ، فاذا نظرت إلى ما فيه من المشاكلة فهو من باب المشاكلة ، وإذا نظرت إلى ما فيه من ألوان أخرى فهو من بابها .

وإليك بعض الألوان التى تجامع المشاكلة : ـ

المشاكله والطباق :

تعرضنا فيما سبق للطباق ، وقلنا إنه أحد الألوان البديعية التى تحسن المعنى وتزينه ، وأنه : الجمع بين المعنيين المتقابلين فى الجملة .

والمشاكلة قد تجامع الطباق إذا كان طرفاها ضدين ، وذلك كقول القاضى شريح لرجل أدلى عنده بشهادة « إنك سبط الشهادة ، فقال الرجل : إنها لم تجعد عنى .

فالسبوطة معناها السهولة والاسترسال والامتداد ، والجعودة معناها الصعوبة والإلتواء ، وهما وصفان حقيقيان من أوصاف الشعر ، يقال : شعر مسبوط ، يعنى : منظم ومرسل ، وشعر مجعد : يعنى ملتو ومتداخل بعضه فى بعض .

أراد القاضى من سبوطة الشهادة استمرار حفظها لدى الشاهد ، وهذا تعبير مجازى مبناه التشبيه ، فشاكل الرجل فى الرد ، وقال : إنها لم تجعد عنى ، يعنى لم تغب ولم تصعب وتلتو ، والذى سوغ له هذا كون القاضى سمى استمرار الشهادة سبوطة ، فكان هذا مدعاة ذلك .

وفى هذا المثال يتضح اجتماع المشاكلة مع الطباق ، فالشاهد الذى أدلى بشهادته عند القاضى شريح ساغ له أن يصف الشهادة بالجعودة فى قوله : إنها لم تجعد عنى مشاكلا بذلك قول القاضى له ابتداء : إنك لسبط الشهادة ،

أما الطباق فلأن السبوطة ضد الجعودة كما هو واضح ، والجمع بين الضدين هو الطباق كما علمت(١) .

المشاكلة ومراعاة النظير :

مراعاة النظير - كما سيأتى - هو : الجمع فى الكلام بين أمر وما يناسبه لا بالتضاد(٢) ، وهو أحد الفنون البديعية المعنوية .

وهذا اللون قد يجامع المشاكلة كالطباق ، وذلك إذا كان طرفا المشاكلة متناسبين ، كما روى أن رجلا لم يؤد ما عليه من فرائض نحو ربه قال لناصح له : أليس لا إله إلا الله مفتاح الجنة ؟ يقصد أن النطق بها كاف فى تحقيق رضا الله له فيدخله الجنة فقال الناصح : وكل مفتاح له أسنان وأسنان مفتاح الجنة الفرائض من صلاة وصيام وزكاة وحج .

فسمى هذه الفرائض أسنانا على سبيل المشاكلة حيث سمى الأول « لا إله إلا الله » مفتاحاً .

وواضح أن طرفى المشاكلة ، وهى : المفتاح والأسنان بينهما تناسب ، فيكون أيضا مراعاة النظير ، فاذا نظرت إلى تسمية الفرائض أسنانا لوقوعها فى صحبة المفتاح قلت إن فى الأسلوب مشاكلة ، وإذا نظرت إلى التناسب بين المفتاح والاسنان قلت إن فى الأسلوب مراة النظير ، وإذا نظرت إليهما معاً قلت فى الأسلوب محسنان : مشاكلة ومراعاة النظير ، ولا تعارض .

---

(١) البديع من المعانى والألفاظ ص ٢٦ وما بعدها .
(٢) الإيضاح ٤ / ١٦ .

المشاكلة والجناس :

والجناس عند البلاغيين معناه : تشابه الكلمتين لفظاً مع اختلافهما معنى ، وهو من المحسنات اللفظية كما سيأتى توضيح ذلك فى موضعه إن شاء الله .

والمشاكلة قد تجامع هذا اللون ، وقد مر من ذلك قوله تعالى « وجزاء سيئة سيئة مثلها » وقوله « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم » .

فإذا نظرت إلى ذكر الجزاء بلفظ السيئة - وهى السيئة الثانية - لوقوعه فى صحبة السيئة الأولى قلت إن فى الآية مشاكلة ، وإذا نظرت إلى أن الكلمتين اتفقتا فى اللفظ واختلفتا فى المعنى قلت إن فى الآية جناساً وإذا نظرت إليهما معاً قلت إن فى الآية مشاكلة وجناساً .

وكذا الآية الثانية وقع فيها الجزاء بلفظ الاعتداء لوقوعه فى صحبة الاعتداء فإذا نظرت إلى هذا قلت إن فيها مشاكلة ، وإذا نظرت إلى أن اعتدى واعتدوا كلمتان تشابهتا لفظا واختلفتا معنى قلت فى الآية جناس ولا تعارض .

المشاكلة بين الحقيقة والمجاز :-

من المعلوم أن الحقيقة اللغوية هى : استعمال اللفظ فى المعنى الموضوع له وأن المجاز هو : استعمال اللفظ فى معنى غير المعنى الموضوع له لعلاقة بين المعنى الحقيقى والمجازى ، وقرينة تمنع من إرادة المعنى الحقيقى .

وإذا نظرنا إلى المشاكلة ومعناها وجدنا أن اللفظ فيها مستعمل في معنى غير المعنى الذي وضع له . فمثلا لفظ الاعتداء الثاني في قوله تعالى : « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم » ليس مستعملا في معناه الوضعي وهو الفعل المذموم المعاقب عليه وإنما استعمل في الجزاء والعقاب، وهذا يعني أن المشاكلة ليست من قبيل الحقيقة اللغوية فهل هي من المجاز اللغوي ؟ .

بعض العلماء لا يرى إندراج المشاكلة في باب المجاز اللغوي لعدم انطباق معناه عليها ، ذلك أن المجاز لا بد فيه من علاقة مصححة لإستعمال اللفظ في غير ما وضع له ، وعلاقات المجاز أحصاها العلماء وتعارفوا عليها ، فان كانت العلاقة المشابهة كان المجاز استعارة ، وإلا فالمجاز المرسل، وعلاقاته معروفه ومحصورة .

وإذا فتشنا في المشاكلة عن العلاقة التي جوزت النقل وسوغت استعمال اللفظ في معنى غير معناه الموضوع له وجدنا ألا علاقة - في نظر هؤلاء البعض - سوى وقوع اللفظ الثاني في صحبة اللفظ الأول حقيقة أو تقديرا ، وأن هذا الوقوع - فقط - هو المسوغ لمجيء المعنى الثاني بلفظ المعنى الأول .

وهذا المسوغ لا يرقى إلى درجة المجاز ، إذ أن الوقوع ليس معدوداً ضمن علاقات المجاز المتعارف عليها ، فلا تكون المشاكلة من باب المجاز .

وإذا كانت المشاكلة لا تدخل في باب الحقيقة كما أنها لا تدخل في باب المجاز فان هذا الفريق من البلاغيين يرى أن المشاكلة واسطة بين الحقيقة والمجاز .

يقول العلامة بهاء الدين السبكي فى عروس الأفراح « والتحقيق أن المشاكلة من حيث هى مشاكلة ليست حقيقة ولا مجازا ، لأنها مجرد ذكر المصاحب بلفظ غيره لاصطحابهما »(١).

ويعلق العلامة عبد الحكيم فى حاشيته على تعريف السعد التفتازانى المشاكلة بقوله : « قال الشارح ـ رحمه الله ـ فى شرحه للمفتاح سواء كان بينهما شىء من العلاقات المعتبرة فى المجاز كاطلاق السيئة على جزاء السيئة المسبب عنها المترتب عليها أولا كاطلاق الطبخ على خياطة الجبة والقميص ومن ههنا قوى إشكال المشاكلة بأنها ليست بحقيقة وهو ظاهر ولا مجاز لعدم العلاقة ، ولا محيص سوى التزام قسم ثالث فى الاستعمال الصحيح أو القول بأن الوقوع المذكور نوع من العلاقة فيكون مجازا . انتهى(٢).
أقول(٣) : القول بكونه مجازاً ينافى كونه من المحسنات البديعية ، وأنه لابد فى المجاز من اللزوم بين المعنيين فى الجملة فتعين الوجه الأول ، ولعل السر فى ذلك أن فى المشاكلة نقل المعنى من لباس الى لباس ، فإن اللفظ بمنزلة اللباس ، ففيه إراءة المعنى بصورة عجيبة فيكفيه الوقوع فى صحبة ذيكون محسنا معنويا وفى المجاز نقل اللفظ من معنى إلى معنى فلابد من علاقة مصححة للانتقال والتغليب أيضا من هذا القسم ، إذ فيه أيضا نقل المعنى من لباس إلى لباس آخر ، ولذا كان وظيفة المعانى وإن صرح الشارح ـ رحمه الله ـ فيما سبق بكونه من باب المجاز ، فالحقيقة والمجاز والكناية أقسام للكلمة ، إذ كان المقصود استعمال الكلمة فى المعنى ، وأما إذا كان المقصود نقل المعنى من لفظ إلى آخر فهو ليس شيئا منها(٤) »

---

(١) شروح التلخيص ٤/٣١٠ . (٢) يعنى كلام السعد .
(٣) القائل هو عبد الحكيم
(٤) حاشية العلامة عبد الحكيم على مطول السعد ص ٥٤٣ .

فالعلامة عبد الحكيم يذهب -كما يذهب السبكي- إلى أن المشاكلة واسطة بين الحقيقة والمجاز .

وخروج المشاكلة عن باب الحقيقة أمر لا جدال فيه ولا مناقشة ، وذلك لوضوحه وجلائه ، أما كونها خارجة أيضا عن باب المجاز فهو موضع مناقشة .

ذلك أننا إذا تتبعنا أمثلة المشاكلة وأساليبها وجدنا في كل منها نوعاً من علاقات المجاز ، سواء المشابهة أو غيرها من علاقات المجاز المرسل .

فنجد علاقة المشابهة في قول أبي الرقعمق السابق :

قالوا : اقترح شيئا نجد لك طبخه قلت اطبخوا لي جبة وقميصا

فقد عبر الشاعر عن الخياطة بالطبخ تشبيها لها به في كونها مما ينبغي أن تكون موضع رغبتهم ومحل عنايتهم ، فإذا كانت رغبتهم قد اتجهت إلى الطبخ ليطعموه فينبغي أن تكون منهم مثل تلك الرغبة في خياطة جبة وقميص يتقي بهما قارس البرد ويعتصم من أذاه ، وإجراء الاستعارة في هذا الأسلوب ، على هذا النحو لا تجد فيه حرجاً أو غضاضة .

كما نجد المجاز المرسل لعلاقة السببية في قوله تعالى « وجزاء سيئة سيئة مثلها » ، وقوله « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم » وقوله : « ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين » وقوله « وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير الصابرين » .

بل إن الخطيب القزويني في إيضاحه ساق بعض هذه الآيات شاهداً على المجاز المرسل الذي تكون علاقته السببية ، كما ساقها نفسها مثالا المشاكلة لذا فإنا نطمئن إلى أن المشاكلة تدخل في باب المجاز ، سواء الاستعارة

أو المجاز المرسل ، وهذا لا تعارض فيه ، إذ أن عدها فى باب المشاكلة منظور فيه إلى الوقوع فى صحبة اللفظ الأول الدال على معناه الحقيقى ، وأن هذا يحسن المعنى ويكسبه جلالا وشرفا ، وعدها فى باب المجاز منظور فيه إلى أن استعمال اللفظ فى غير ما وضع له العلاقة مصححة لهذا النقل ، وقرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلى .

المشاكلة محسن معنوى لا لفظى:

سبق أن أوضحنا أن المحسن المعنوى هو ما كان التحسين فيه راجعاً إلى المعنى أولا بالذات ، وإلى اللفظ ثانياً وبالعرض ، وأن المحسن اللفظى عكس ذلك . وأن البلاغيين وضعوا ضابطاً للمحسن المعنوى وهو : أنك إذا غيرت اللفظ أو أبدلته بغيره لم يخل ذلك بالمحسن بل يبقى كما هو ، وعكس ذلك المحسن اللفظى[١].

واذا نظرنا الى معنى المشاكلة وأنها ذكر الشىء بلفظ غيره لوقوعه فى صحبته تحقيقا أو تقديراً نجد أن هذا المعنى يتناول الألفاظ ، ويومىء إلى أن التصرف والوقوع فى الصحبة انما كانا فى جانب الألفاظ .

فهل معنى هذا أن التحسين فى المشاكلة انما كان للألفاظ قصداً وأصالة وان كان ثمة تحسين المعنى فإنما جاء تبعاً لا قصداً ، وتكون - على هذا - لونا من المحسنات اللفظية ؟

الحقيقة أن المشاكلة وان جنح معناها الى جانب اللفظ الا أنها معدودة ضمن المحسنات المعنوية ، والبلاغيون ينظمونها ضمن فنون هذا القسم وألوانه .

---

(١) انظر هذا الكتاب ص ٤٦ .

ذلك أن نقل اللفظ من معناه الى معنى آخر يضفى على المعنى الثانى بهاء ويكسوه جلالا وجمالا ، كما أن التصرف فى المعنى ـ على هذا النحو ـ يجعلك أمام معنيين ، معنى حقيقى لايحتاج الى فكر ، ومعنى آخر يحتاج الى فكر وتدبر .

والمشاكلة معدودة ضمن الفنون المعنوية ، حتى ولو جامعت محسناً لفظياً كالجناس ، فإنك لاتعد الأساليب التى جامعت فيها الجناس محسنا من القسم اللفظى إلا إذا نظرت الى الجناس . والى اتحاد كلمتين فى اللفظ واختلافهما فى المعنى فقط دون نظر الى ذكر معنى بلفظ غيره للمصاحبة فإذا مانظرت الى ذلك والى أن التصرف كان فى جانب المعانى ، فلا خلاف فى أنها من المحسنات المعنوية

أثر المشاكلة فى بلاغة الكلام :

بان لك ـ فيما سبق ـ أن المشاكلة تدخل فى باب المجاز ، سواء الاستعارة أو المجاز المرسل ، ولا شك أن المجاز ـ وهو من أبواب علم البيان ـ يدخل فى صميم البلاغة ومعناها ، ولا خلاف على ذلك بين البلاغيين ونقاد الأدب .

غير أن دخول المشاكلة فى صميم البلاغة ليس من هذه الناحية فقط ، بل ان أسلوب المشاكلة ـ بماله من مقاصد يؤديها المتكلمون وأغراض يرمون اليها ـ يعد من متممات الكلام ، ولا تصح للكلام بلاغته الا به ولا يعنى هذا أن هذا اللون مطلوب فى كل الأساليب ولكن البلاغة لا تكتمل فى الأساليب التى وردت على هذا الفن الا به ، وقد سبقت الإشارة الى ذلك تعليقا على قول الأنطاكى :

قالوا اقترح شيئا نجد لك طبخه قلت اطبخوا لى جبة وقميصا

فليرجع إليه[١].

ولكى يزداد الأمر جلاء ووضوحاً إذا قال قائل : بل اسقنى طعاماً رداً على من سأله: هل أسقيك ماء؟ فقد أبان القائل عما فى نفسه من أغراض بهذه المشاكلة واستطاع أن يحقق بهذا الأسلوب عدة مقاصد :

فقـــد أبرز حاجته وكشف عن مطلبه وهو الطعام وأنه ليس بحاجه إلى المـاء .

كأنبه المتكلم إلى سهوه وغفلته ، فقد كان عليه أن يعلم حاجته إلى الطعام، وكأنه يوبخه قائلا : كيف يشرب الجائع ؟

جاءت أغراض المتكلم فى صورة موجزة دون إطناب أو تطويل .

وفى قوله تعالى : « صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة » وتسمية تطهير الله صبغة مشاكلة لفعل اليهود أو النصارى إشارة إلى أن الإسلام - الذى أراده الله لخلقه هو الطهر الحقيقى للنفوس والصدور ، دون فعل اليهود أو النصارى وأن فعل هؤلاء - الذى يسمونه صبغا - لايظهر له أثر ولا علامة على أبنائهم ، بينما أثر الإسلام وعلاماته ظاهرة واضحة على المؤمنين ، كما يظهر أثر الصبغ فى الثوب وقول بعض شعراء ملوك حمدان :

وكل أناس لهم صبغـــة   وصبغة همدان خير الصبغ
صبغنا على ذاك أبناءنا   فأكرم بصبغتنا فى الصبغ[٢]

فهـــذه الإفادة التى أفادتها الآية الكريمة داخلة فى مقاصد الكلام

---

(١) انظر ص ٣٧ ، ٣٨ من هذ الكتاب .
(٢) تفسير القرطبي ٢/١٤٤ .

ومراميه ، واللون الذى حقق هذه الإفادة له مدخل فى بلاغة الآية وإعجازها .

وهكذا نجد هذا الأثر فى أساليب المشاكلة ، لذا كان لهذا الفن أثراً فى بلاغة الكلام وسموه ورفعته ، كما أن لها مدخلا فى إعجاز القرآن الكريم.

أمثلة أخرى للمشاكلة

وردت المشاكلة فى أساليب القرآن الكريم وفى حديث الرسول الكريم - صلوات الله وسلامه عليه - كما كثر ورودها فى الأدب العربى شعراً ونثراً .

ومن الأمثلة القرآنية غير ما مر بك مما جاءت على أسلوب المشاكلة قوله تعالى :

« وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين »[1].

فالمكر - لغة - صرف الغير عما يقصده بحيلة حتى يتمكن من إنفاذ مقصوده ، وهذا المعنى لايليق فى جانب الله تبارك تعالى ، فهو القاهر فوق عباده ، الغالب على أمره ، القائم على كل نفس بما كسبت - فجاء فى الآية فى جانب الله بمعنى جزاء الكافرين بالعذاب على مكرهم من حيث لا يشعرون .

والذى سوغ التعبير عن هذا المعنى بالمكر ، هو وقوعه فى صحبة المكر

(١) الأنفال . ى : ٣٠

الحقيقى وهو مكر الكافرين على سبيل المشاكلة .

وجاء من المشاكلة أيضا قوله تعالى :

« ويقولون هو أذن قل أذن خير لكم »(١).

نزلت هذه الآية فى عتاب بن قشير ، قال : انما محمد أذن يقبل كل ماقيل له ، يقصد بذلك إيذاء النبى ﷺ بتسميته أذنا فهـــو يسمع ويصدق كل مايسمع ويقواه ويردده ، فقول عتاب عن النبى الكريم إنه أذن يقصد أذن شر ، فجاء قوله تعالى لنفيه « قل أذن خير لكم » مشاكلة لقول عتاب ، وهذا أبلغ فى الرد عليهم ، أى هو مستمع خير لا مستمع شر ، فهو يستمع مايجب استماعه : وهو رحمة :

ومن أساليب المشاكلة فى الحديث الشريف قوله ﷺ « إن الله لايمل حتى تملوا » فالملل فى جانب العباد معروف وغير لائق فى جانب الله ، والمقصود به فى جانب الله قطع نعمه وعطاياه فالله لايقطع النعم عن عباده طالما يسألونه العطاء ويتضرعون إليه لقضاء حوائجهم وفك كربهم ، فإذا يئسوا وقنطوا وملوا فإن الله يقطع عنهم نعمه وأفضاله .

فسمى فعل الله بقطع النعم مللا لوقوعه فى صحبة المعنى الحقيقى فى جانب العباد على سبيل المشاكلة .

ويصح أيضا أن تحمل قوله - ﷺ - « أد الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخن من خانك » على المشاكلة ، لأن الخيانة - يعنى خيانة الخائن - فيها معنى العقاب له والمجازاة على سوء فعله (٢) .

---

(١) التوبة . ى : ٦١ .

(٢) البديع من المعانى والألفاظ ص ٢٥

ومن المشاكلة مما ورد فى كلام العرب قول عمرو بن كلثوم :

ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

سمى جزاء الجهل والسفه جهلا لوقوعه فى صحبته .

وقال الصاحب بن عباد فى شأن قاض شهد عنده برؤية هلال عيد الفطر فلم يقبل القاضى شهادته ، وأنكر وجود الهلال :

أترى القاضى أعمى أم تراه يتعامى

سرق العيد كأن العيد أموال اليتامى

لأن العيد لا يسرق وإنما يسرق المال ، ومنه أموال اليتامى ، والذى سوغ للشاعر أن يعبر عن رفض وجود العيد بالسرقة وهو وقوع ذلك فى حيز ما السرقة صفة من صفاته وهو المال ، لأنك تقول : مال مسروق، ولا تقول : عبد مسروق وهذا الوقوع حقيقى كما ترى ، فلا تظنن أنه مقدر كما فى قوله تعالى « صبغة الله » حيث إن السرقة - يعنى سرقة المال - لم تذكر صراحة فى الكلام ، لأن المعنى سرق العيد كما سرق أموال اليتامى ، فكان العيد مال يتامى . فقوله : كأن العيد أموال اليتامى يتضمن ذلك المعنى ، ومثله : بنيت الجار قبل المنزل ، فإن ملاحظة البناء مع ذكر المنزل ، وملاحظة السرقة مع ذكر أموال اليتامى أمر بديهى كما ترى ، أما الوقوع المقدر كما فى الآية الكريمة ألا يذكر المعنى ، ولا يذكر شىء من ملابساته الدالة عليه[1] .

ومن المشاكلة فى أشعارهم أيضا قول ابن جابر الأندلسى :

قالوا اتخذ دهناً لقلبك يشفه قلت أدهنوه بخدها المتورد

وأسلوب المشاكلة فى البيت من الوضوح بحيث لا يخفى عليك .

* * *

(١) المصدر السابق ص ٢٤ .

٦ – التـــــــــــورية

معناها فى اللغة :

التورية فى اللغة مصدر ورّى الشىء إذا ستره وأخفاه ، كالموارة ، يقال : ورّيت الشىء وواريته .

وفى اللسان : وريت الخبر ، جعلته ورائى وسترته ، وفى الحديث أن النبى – صلى الله عليه وسلم – كان إذا أراد سفراً ورّى بغيره ، أى ستره وكنى عنه وأوهم أنه يريد غيره ، وأصله من الوراء ، أى : ألقى البيان وراء ظهره .

وفى التنزيل : « ما وورى عنهما من سوءاتهما »[1] أى ستر على فوعل ، وقرىء : ورى عنهما بمعناه .

ووريت الخبر أوريه تورية إذا سترته وأظهرت غيره . كأنه مأخوذ من وراء الإنسان ، لأنه إذا قال وريته ، فكأنه يجعـــله وراءه حيث لا يظهر .

فالمـادة – إذن – تدور حول الستر والإخفاء ، قال تعالى . يا بنى آدم قد أنزلنا عليـكم لباساً يوارى سوءاتـكم »[2] أى يسترها ويغطيها والورى : الأنام الذين على وجه الأرض فى الوقت ، ليس من مضى ، ولا من يتناسل بعدهم . سموا بذلك لأنهم يسترون الأرض بأشخاصهم [3] .

---

(١) الأعراف . ى : ٢٠ .
(٢) الأعراف . ى : ٢٦ .
(٣) مفردات الراغب ص ٥٢٠ .

معناها فى الاصطلاح :

أما فى عرف البلاغيين فإن معناها : أن يذكر لفظ له معنيان ، أحدهما قريب يتبادر معناه إلى الذهن ، والآخر بعيد ، دلالة اللفظ عليه خفية ، والمراد هو البعيد منهما ، وقد ورّى عنه بالمعنى القريب ، فيتوهم السامع لأول وهلة أن المتكلم يريده وهو ليس بمراد له .

ولما فيها من التوهم أطلق عليها اسم « الايهام » .

والتورية تجدها فى قوله تعالى : « الرحمن على العرش استوى »[1] فإن لفظ « استوى » فى الآية الكريمة له معنيان ، أحدهما متبادر إلى الذهن ، وهو الاستقرار الحسى على سرير ونحوه ، وثانيهما غير متبادر إلى الذهن وهو الاستيلاء والملك والتمكن والأول غير مراد ، والمراد هو المعنى الثانى وهو الاستيلاء والملك لأن الأول وهو الاستقرار الحسى مستحيل فى حق الله تعالى ، والمعنى المتبادر إلى الذهن هو المعنى القريب وهو غير مراد ، أما غير المتبادر إلى الذهن فهو المعنى البعيد المراد ، وكأن المعنى القريب جىء ليستر ويخفى تحته المعنى البعيد المراد .

والمقصود بالقرب والبعد هنا هو سرعة حصول المعنى فى الذهن عند سماع اللفظ أو عدم حصوله ، فالقريب يكون أسرع إلى الذهن ترارداً وحصولاً من المعنى البعيد . فالتورية فى الآية الكريمة فى لفظ « استوى » .

كما نرى هذا المعنى أيضا فى قول الشاعر : ـ

حملناهم طرًّا على لدهم بعدما خلعنا عليهم بالطعان ملابسا

---

(١) طه ى ٥ .

فالتورية فى لفظ « الدهم » فإن لها معنيين ، معنى قريب غير مراد ، وهو : الخيل ، ومعنى بعيد هو المراد ، وهو قيود الحديد .

عناصر التورية :

واضح من المثالين السابقين أن التورية تتكون من ثلاثة عناصر : ـ

الأول : لفظ له معنيان .

الثانى : معنى قريب ، ويسمى المورَّى به .

الثالث : معنى بعيد ، ويسمى المورَّى .

فنى الآية السابقة لفظ له معنيان هو « استوى » وهو العنصر الأول ، معناه القريب ، وهو الاستواء الحسى غير مراد ، وهذا هو العنصر الثانى ، ومعناه البعيد وهو الاستيلاء والملك هو المراد ، وهو العنصر الثالث .

وفى البيت السابق نجد لفظ « الدهم » وله معنيان ، فهذا اللفظ هو العنصر الأول ، والمعنى القريب لهذا اللفظ وهو الخيل هو العنصر الثانى ، ومعناه البعيد وهو القيود الحديدية هو العنصر الثالث .

ولا بد فى التورية من تفاوت المعنيين فى القرب والبعد ، فإن تساويا فيهما فلا تورية ، مثل كلمة « جون » فإن لها معنيين : أبيض وأسود . إلا أنهما متساويان فى القرب والبعد ما لم تدل قرينة على المراد منهما ، لذا فإن هذه الكلمة لا تورية فيها ، لعدم تفاوت المعنيين[1] .

قرينة التورية :

التورية إذا خلت من قرينة دالة على أن المراد باللفظ هو المعنى البعيد

(١) انظر بديع المعانى والألفاظ ص ٣١ .

وأن المعنى القريب ليس إلا مخفياً وساتراً للمعنى البعيد ؛ إذا خلت من ذلك كانت ضرباً من التعمية والإلغاز وكلاهما قبيح ، فضلا عن كونهما ليسا من المحسنات البديعية .

فلا بد فى التورية من قرينة تدل على أن المراد هو المعنى البعيد للفظ ، وقد تكون هذه القرينة عقلية تفهم بقرينة المقام والأحوال ، كاستحالة المعنى القريب فى الاستواء على الله سبحانه وتعالى فى الآية السابقة .

ومثل الآية قوله تعالى « والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون »[1] . فلفظ « الأيد » له معنيان: قريب وهو الجارحة وهو غير مراد ، وبعيد ، وهو القوة والقدرة وهو المعنى المراد ، والقرينة - أيضا - هى استحالة المعنى القريب على الله تعالى .

وقد تكون القرينة لفظية ، كما نجد ذلك فى البيت السابق ، فإن قوله :

خلعنا عليهم بالطعان ملابسا

يدل على أن الحمل على الخيل - وهو نوع من التكريم - غير مراد ، وأن المراد هو القيود الحديدية ؛ إذ أنها هى التى تناسب خلع الطعان عليهم ملابسا . وهى ملفوظة كما ترى .

ومثاله قول بعض القضاة[2] فى ربيع بارد :

كأن كانون أهـــدى ملابسه   لشهر تموز أنواعاً من الحلل
أو الغزالة من طول المدى خرفت   فما تفرق بين الجدى والحمل

التورية فى لفظ « الغزالة » ، لأن لها معنيين : أحدهما قريب ، وهو الحيوان المعروف ، وهـــذا المعنى غير مراد ، والثانى بعيد مراد وهو الشمس .

---

(١) الذاريات . ى : ٤٧ .

(٢) هو . القاضى الإمام أبو الفضل عياض اليحصبى .

فالعطف على كانون ، وهو أحد أشهر السنة الشتوية وذكر أنه أهدى لتموز ، وهو أحد الشهور الصيفية نوعاً من حلله الباردة أكسبته لطفا وطيبا دليل على أن المراد بالغزالة الشمس وليس الحيوان المعروف ؛ إذ لا مجال للتحدث عنه ، وهى قرينة لفظية كما ترى .

أما ذكر « الجدى » و « الحمل » فشيء آخر نوضحه قريبا عند الكلام عن أقسام التورية .

وسواء كانت القرينة عقلية أو لفظية ، فلا بد أن تكون خفية تعتمد على إعمال الذهن وإدارة الخاطر ، فإذا كانت ظاهرة لم يكن اللفظ تورية وهذا أحد الفروق بين المجاز والكناية [illegible] سيأتى توضيح ذلك .

التورية والمجاز :

تقوم التورية على لفظ له معنيان ، أحدهما مراد ، والآخر ليس مراداً وهو نفس ما يقوم عليه المجاز .

فالمجاز : لفظ مستعمل فى غير معناه الحقيقى . إذن هناك معنى موضوع له اللفظ يتبادر إلى الذهن عند سماعه وهو غير مراد ، ومعنى مستعمل فيه غير ما وضع له ، لا يتبادر إلى الذهن عند سماعه ، وهو المعنى المراد .

وهذا القدر يتحقق فى التورية ، كما يتحقق فى المجاز ، فكلاهما لفظ له معنيان ، أحدهما مراد والآخر غير مراد .

كما أن المجاز والتورية كليهما لا بد فيهما من قرينة تبين المراد ، وهو المعنى المجازى فى المجاز ، والمعنى البعيد فى التورية ، إلا أن هذه القرينة لا بد أن تكون خفية وغير واضحة ، كما سبق أن أشرنا .

أما فى المجاز فينبغى أن تكون واضحة ظاهرة ، لا خفاء فيها ولا غموض تمنع من إرادة المعنى الحقيقى للفظ ، كما نراه فى قول المتنبى : —

تعرض لى السحاب وقد قفلنا فقلت إليك إن معى السحابا

ففى لفظ « السحاب » الثانية استعارة ، والمراد به الرجل الكريم ، لأنه يجود بالمال ، كما يجود السحاب بالغيث ، والقرينة قوله « معى » وهى قرينة ظاهرة واضحة ، لأن السحاب الذى فى السماء لا يكون معه ، وإنما هو الممدوح ، ولذلك قال بعده : —

فشم فى القبـــة الملك المرجى فأمسك بعد ما عزم انسكابا

شم ، معناه . انظر . يقول إنه أمر السحاب أن ينظر إلى الملك الذى معه ، فلما نظر السحاب أمسك عن إنزال الغيث بعدما عزم على الانسكاب حياء من جوده .

فالشاعر نقل كلمة السحاب من معناها الحقيقى ، وهى الغيم فى السماء إلى الممدوح ، وهذا النقل مجاز قرينة ظاهرة واضحة كما ترى .

وهناك فرق أكثر وضوحاً بين التورية والمجاز ، ذلك أن كل واحد من المعنيين فى التورية يفهم من اللفظ من غير وساطة الآخر ، واحتياج لعلاقة بينهما ، أما فى المجاز فلابد من علاقة بين المعنى المجازى والمعنى الحقيقى ، قد تكون المشابهة فيكون المجاز استعارة ، وقد تكون غير المشابهة فيكون المجاز مرسلا ، على تفصيل ليس هذا موضعه .

والمعنيان الدال عليهما اللفظ فى التورية قد يكونان حقيقيين ، ويكون اللفظ الدال عليهما مشتركا بينهما مع تفاوتهما فى الادراك عند سماع اللفظ ، وقد يكونان مختلفين الأول حقيقة والثانى مجاز .

فى قول الشاعر : -

يا عاذلى فيه كل لى إذا بدا كيف يسلو
يمر بى كل وقت وكلما مر يحلو

التورية فى لفظ « مر » ، ومعناه القريب من المرارة التى هى ضد الحلاوة والمعنى البعيد من المرور الذى هو السير ، وهما معنيان حقيقيان ، فدلالته على أى منهما دلالة حقيقية وليس مجازا .

وفى قوله تعالى « والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون » رأينا التورية فى لفظ « أيد » ومعناها القريب الجارحة التى تزاول بها الأعمال ، فهى حقيقة فيه ، أما معناها البعيد فهو القدرة ، وهو معنى مجازى لا حقيقى .

وإذا وضح هذا فاعلم : -

أولا : إذا كان لفظ التورية حاملا لمعنيين حقيقيين فالتورية من باب الحقيقة ضرورة .

ثانياً : إذا كان لفظ التورية حاملا لمعنيين أحدهما حقيقى والثانى مجازى ، وهو دائما - يعنى المعنى المجازى - فى التورية هو المعنى البعيد المورى بالمعنى القريب إذا كان الأمر كذلك فإن التورية أدخل فى باب المجاز منها فى باب الحقيقة .

ذلك لأن المقصود منها هو المعنى المجازى . وإن ورى بالمعنى الحقيقى[1].

---

(١) انظر بديع المعانى والألفاظ ص ٢٦ ، ٣٧ .

التورية والكناية :

الكناية عبارة عن : لفظ أطلق وأريد به لازم معناه ، مع جواز إرادة المعنى الحقيقي[1] . نجد هذا المعنى في قول من يصف راعي إبل أو غنم :-

ضعيف العصا بادي العروق ترى له
عليها إذا ما أجدب الناس إصبعا

يريد أنه مشفق عليها ، لا يقصد من حمل العصا أن يوجعها بالضرب من غير فائدة ، فهو يتخير مالان من العصا .

فقوله « ضعيف العصا » لفظ أطلق ولم يرد به حقيقة معناه ، وإنما أراد معنى آخر هو لازمه وتاليه في الوجود ، وهو الرفق واللين .

فالعلاقة بين التورية والكناية واضحة ، وهي أن كليهما لفظه معنيان ، والمراد أحدهما ، الا أن الأمر في التورية على أن المعنيين يفهمان من اللفظ دون وساطة من أحدهما لفهم الآخر كما سبق أن أشرنا . أما في الكناية فان المعنى الثاني يكون لازماً للمعنى الأول ، وردفاً له ، فضعف العصا في المثال السابق يلزمه الرفق واللين .

وفرق آخر يتصل بقرينة كل من الكناية والتورية ، فان قرينة الكناية — كما سبق أن أشرنا في المجاز — ينبغي أن تكون ظاهرة لا خفاء فيها ولا غموض ، وهذا واضح من المثال السابق ، بينما قرينة التورية شرطها أن تكون خفية غير ظاهرة .

---

(١) انظر الايضاح ٣ / ١٧٣ .

ولدقة الفرق بين التورية والكناية ظن الخطيب القزويني أن قول الحماسي[1] : -

فلما نأت عنا العشيرة كلها أنخنا فحالفنا السيوف على الدهر
فما أسلمتنا عند يوم كريهة ولا نحن أغضينا الجفون على وتر

فى البيت الثانى تورية فى لفظ « الجفون » ، وتابعه صاحب بديع المعانى والألفاظ فقال : « التورية فى لفظ الجفون ، لأن له معنيين قريب واضح وهو « جفون العين » وبعيد خفى وهو « جفون السيف » ، والمعنى البعيد هو المراد[2] .

والحق أن ما فى البيتين ليسا من التورية ، بل هو من باب الكناية ، فان الجفون — التى هى جفون العين — كناية عن إغماد السيوف ، لا أنه أراد جفون السيف فورّى[3] .

(أقســـام التورية)

تقوم التورية — كما هو واضح من معناها — على الإخفاء والستر ، فالمعنى القريب فيها مخف وساتر للمعنى البعيد المراد اعتماداً على قرينة تحدد ذلك المعنى المراد وتعينه .

وقد يجامع التورية شيء يلائم ويناسب المعنى القريب ، فيكون أوثل

---

(١) هو : يحيى بن منصور . وأنخنا : أقمنا وكان حليفنا السيف بدلا من العشيرة والأقارب . الوتر : الثأر .

(٢) انظر الإيضاح ٤ / ٣٤ ، وبديع المعانى والألفاظ ص ٢٤ .

(٣) انظر الإشارات والتنبيهات ص ٢٧٣ .

فى الإخفاء وأدخل فى الستر ، وقد لا يجامعها شىء من ذلك فيكون الخفاء فيها أقل من سابقيها .

وقد قسم البلاغيون التورية ـ بهذا الاعتبار ـ إلى قسمين لاثالث لهما : ـ

القسم الأول : التورية المجردة

وهى : التى لا يجامعها شىء مما يلائم المعنى القريب (المورّى به) ولها صور ثلاث : ـ

الصورة الأولى : أن تكون مجردة مما يلائم المعنى القريب ، مع تجردها مما يلائم المعنى البعيد كذلك .

وهذه نراها فى قوله تعالى : « الرحمن على العرش استوى » فقد أوضحنا ـ فيما سبق ـ أن التورية فى الآية فى لفظ « استوى » ، فهو لفظ له معنيان ، قريب واضح هو استقر ، وبعيد خفى هو استولى ، والمراد منه البعيد ، والقرينة فى استحالة الاستقرار الحسى على الله تعالى .

وهذه التورية جاءت مجردة مما يلائم المعنى القريب ، كما تجردت مما يلائم المعنى البعيد أيضا . فهى مجردة .

الصورة الثانية : أن تجىء مجردة مما يلائم المعنى القريب ، مع اقترانها بما يلائم المعنى البعيد .

وهذه نراها فى قول عمر بن أبى ربيعة : ـ

أيها المنكح الثريا سهيلا عمرك الله كيف يلتقيان
هى شامية إذا ما استقلت وسهيل إذا استقل يمانى

فالتورية فى لفظى : « الثريا وسهيل » ، وهما هنا اسمان : الثريا الفتاة ،

وسهيل لرجل ، وهما المعنيان المرادان ، لكن الشاعر أوهم السامع أنه يريد النجمين المشهورين لأن الثريا من منازل القمر الشامية ، وسهيلا من النجوم اليمانية ، إلا أنه أراد صاحبته المسماة بهذا الاسم ، وكان ابوها قد زوجها برجل يدعى سهيلا ، فورى عمر بالنجمين عن الشخصين ليكون أدعى للإنكار متى أراد .

وقد جاءت التورية مجردة مما يلائم المعنى القريب المورى به ، لكن الشاعر أتى بما يلائم المعنى البعيد ، وهو قوله « المنكح » لأن النكاح من صفات الإنسان لا من صفات الكواكب .

ومن شواهد هذه الصورة قول عماد الدين : -

أرى العقد فى ثغره محكما　　يرينا الصحاح من الجوهر

ومنثور دمعى غدا أحمرا　　رويناه عن وجهك الأزهر

التورية فى لفظ الصحاح ، لأنه دال على معنيين ، قريب مراد وبعيد غير مراد ، والقريب هو كتاب الجوهرى المسمى بهذا الاسم ، وهو أحد معاجم اللغة المعروفة ، والبعيد الخفى هو أسنان محبوبته الشبيهة بالجوهر .

وقد خلت التورية من ملائمات المعنى القريب ، وإن جاءت مقترنة بما يلائم المعنى البعيد ، وهو قوله « فى ثغره » لأنها من ملائمات الأسنان ، ولذلك فان التورية مجردة ، لعدم مجامعتها لشىء من ملائمات المعنى القريب .

الصورة الثالثة : أن يجامع التورية شىء مما يلائم المعنى القريب ، وشىء آخر يلائم المعنى البعيد . فيجتمع فيها الشيئان كلاهما ، وكأن الشيئين تعارضا فتساقطا ، فكأن لم يكن فى الكلام شىء ، لا من ملائمات المعنى القريب ، ولا من ملائمات المعنى البعيد .

ومثال هذه الصورة قول بدر الدين الذهبي ، وقد سبق : ـ

يا عاذلي فيـــه قل لي إذا بـــدا كيف أسلو
يمـــر بي كل وقت وكلـــا مر يحـــلو

المعنى : يالائمي دلني كيف أسلو عن محبوبتي حين أراها ، وكثيرا ما أرى المحبوب مارًّا بي . وفي كل مرة أراه يزداد حلاوة عندي .

والتورية في البيتين في لفظ « مر » إذ معناه القريب الواضح من المرارة ، والمعنى البعيد الخفي من المرور ، وقد سبق توضيح ذلك .

وقد قرنت التورية هنا بما يلائم المعنى القريب . كما قرنت ـ أيضا . . بما يلائم المعنى البعيد . فالذي يلائم المعنى القريب هو قوله « يحلو » ؛ إذ هو من الحلاوة التي هي ضد المرارة ومن ملائماتها ، والذي يلائم المعنى البعيد قوله « يمر بي كل وقت » ، فلما اجتمع فيها الملائمان كانت كأن لم يجامعها شيء فهي مجردة .

القسم الثاني : التورية المرشحة .

وهي : التي قرنت بما يلائم المعنى القريب المورّى به .

والملائم للمعنى القريب قد يكون قبل لفظ التورية ، وقد يكون بعده ، فهما صورتان : ـ

الصورة الأولى : أن يقع الترشيح سابقا للفظ الحامل للتورية ، وذلك كقوله تعالى : « حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون »[1] .

---

(١) التوبة . ى : ٢٩ .

فالتورية فى لفظ « يد » فهو لفظ له معنيان : قريب واضح ، وهو الجارحة المعروفة ، وبعيد خفى وهو الذلة والاستكانة ، والمراد هـــو المعنى البعيد .

وقد قرنت التورية بما يلائم المعنى القريب المورّى به ، وهو قوله « يعطوا » لأن الإعطاء عادة يقع باليد فهى مرشحة ، وقد وقع الترشيح ـ وهو الإعطاء ـ قبل لفظ التورية .

ومن شواهد هذه الصورة ما مر من قوله تعالى « والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون » . فلفظ التورية ـ وهو « أيـــد » ـــ جامعه ما يلائم معناه القريب ـ وهو البناء ـ إذ أن البناء مما يلائم الجارحة ، وهو المعنى القريب غير المراد فهى تورية مرشحة ، وقد وقع الترشيح ـــ وهو البناء ـــ سابقا للتورية كما ترى .

ومن الشواهد قول السراج الوارق : ـ

يا خجلتى وصحائفى سود بدت   وصحائف الأبرار فى إشراق
ومؤنب لى فى القيامــة قال لى   أكـذا تـكون صحائف الوراق

التورية فى لفظ « الوراق » فهو لفظ حامل لمعنيين ، أحدهما قريب واضح ، وهو الذى يبيع الورق ، والآخر بعيد خفى ، وهو اسم الشاعر ، والمعنى المراد هو البعيد .

وقد قرنت هذه التورية بما يلائم المعنى القريب ، وهو « الصحائف » فهذا اللفظ يناسب بائع الورق . وقد جاء هذا اللفظ سابقا للتورية .

وعلى هذه الصورة جاء قول أبى الحسين الجزار : ـ

كيف لا أشـكر الجزارة ما عشـ   ـت حفاظا وأهجر الآدابا

وبها صارت الكلاب ترجيـ ـنى وبالشعر كنت أرجو الكلابا

فالتورية فى لفظ « كلاب » الثانى ، لأن له معنيين ، قريب واضح ، وبعيد خفى ، فالقريب هو الحيوان المعروف ، والبعيد هو لئام الناس وشرارهم ، وهو المراد .

وهى تورية مرشحة ، حيث جامعت ما يلائم المعنى القريب ، وهو قوله : « صارت الكلاب ترجينى » . وقد وقع هذا الترشيح قبل لفظ التورية .

الصورة الثانية : أن يقع الترشيح بعد لفظ التورية .

ومثالها ما مر من قول بعض القضاة فى ربيع بارد :ـ

كأن كانون أهدى من ملابسه لشهر تموز أنواعاً من الحلل
أو الغزالة من طول المدى خرفت
فما تفرق بين الجدى والحمـــل

فقد سبق أن عرفنا أن التورية فى لفظ « الغزالة » لأن لها معنيين ، أحدهما قريب وهو الحيوان المعروف ، والآخر بعيد ، وهو الشمس ، والبعيد هو المراد .

وقد قرنت هذه التورية بما يلائم المعنى القريب وهو ذكر « الخرافة » ، والجدى والحمل » فهى تورية مرشحة ، وجاء الترشيح مؤخراً بعـــد لفظ التورية

كما أن فى البيتين تورية أخرى مرشحة ، إلا أنها من الصورة الأولى ، وذلك فى لفظ « الجدى والحمل » فإن لهما معنيين أحدهما قريب وهو : ولد العنز وولد الضأن فى السنة الأولى ، والآخر بعيد ـ وهو المراد ـ وهما : البرجان المعروفان .

وهذه التورية قرن بها ما يلائم المعنى القريب ، وهو الغزالة ، فهى مرشحة إلا أن الترشيح جاء قبل لفظ التورية .

ومن شواهد هذه الصورة قول الحريرى :

يا قـــوم كم من عاتق عانس   ممدوحة الأوصاف فى الأندية
قتلتها لا ابتغى وارثـــا   يطلب منى قـــوداً أو دية

فالتورية فى لفظ « عانس » فهو لفظ حامل لمعنيين ، قريب وهو البكر التى طال مكثها فى بيت أبيها ولم تتزوج ، وبعيد وهو الخمر والمراد هو البعيد .

وقد قرنت بما يلائم المعنى القريب وهو القتل والقود والدية ، إذ أنها مما يناسب الانسان وليس الخمر ، فهى توريه مرشحة جاء ترشيحها متأخراً عن لفظ التورية .

نظرة إلى هذا التقسيم :

ما سبق من تقسيم التورية إلى مرشحة ومجردة هو ما ذهب إليه كثير من البلاغيين ، فلا ثالث لهذين القسمين عند هؤلاء(١) ، إذ أن الترشيح عندهم منظور فيه إلى أمرين : —

أولهما ، ذكر ملائم للمعنى القريب . ثانيهما : أن يتفرد هذا الملائم ، فلا يكون معه ملائم للمعنى البعيد .

فإذا جاءت التورية على هذه الصورة فالتورية مرشحة ، وإلا فهى مجردة ، وقد سبق ذكر الصور التى تجىء عليها .

---

(١) انظر الايضاح ٤ / ٢٩ وما بعدها ، شروح التلخيص ٤ / ٣٢٣ وما بعدها .

وقد خالف في هذا قوم ، ولم يوافقوا على تقسيم التورية إلى قسمين فقط ، بل عندهم أن التورية تنقسم من حيث الترشيح والتجريد على الوجه الآتي : ـ

١ ـ مرشحة ، وهي التي تجامع ما يلائم المعنى القريب ما دام المقصود من التورية الإيهام .

٢ ـ مجردة ، وهي التي تجامع ما يلائم المعنى البعيد ، لأن فيه إيحاء إلى المقصود وهذا ينافي المقصود من التورية وهو الإيهام .

٣ ـ مطلقة ، وهي التي تخلو من ملائمي المعنيين القريب والبعيد بألا تجامع واحداً منهما ، أو تجامعهما معاً فيتساقطا بالتقابل كما رأيت في : ـ

يمر بي كل وقت وكلما مرّ يحلو

ويسأل هذا الفريق : لماذا أهمل البلاغيون هذا التقسيم ، مع أنهم صرحوا به في باب الاستعارة[1] ؟ .

والحق أن القياس على الاستعارة قياس تعوزه الحجة والبرهان ، إذ أن التورية لون بديعي له خصائصه ومذاقه وأغراضه ، كما أن للاستعارة ـ وهي لون بياني ـ سماتها وأهدافها .

فالاستعارة ليس فيها معنى قريب جاء ساتراً المعنى البعيد . بل فيها معنى حقيقي ومعنى مجازي ، وكلا المعنيين واضحان ، والعلاقة بين المعنيين ـ وهي المشابهة ـ واضحة كذلك لا خفاء فيها ولا غموض ، وقرينتها ينبغي أن تكون ظاهرة واضحة . وهذه أمور لا تعرفها التورية التي تقوم على الاخفاء ، والترشيح فيها يكون إغراقاً في هذا الستر وتأكيداً لمعنى التورية .

---

(١) بديع المعاني والألفاظ ص ٣٦ .

وبالنظر فى رأى كلا الفريقين نرى أن كلمتهم جاءت متفقة فيما يتصل بالتورية المرشحة ، وصورة واحدة من صور التورية المجردة ، وهى التى جامعت ما يلائم المعنى البعيد فقط .

أما صورتا التورية المجردة الأخريان وهما :ـ

١ ـ ما خلت من ملائمات المعنيين كليهما (القريب والبعيد) .

٢ — ما جامعت ما يلائم كلا المعنيين

فكما رأيت فإن هاتين الصورتين معدودتان من التورية المجردة عند الفريق الأول بينما ذهب الفريق الثانى إلى أنهما قسم ثالث أسماه « المطلقة » .

ولعلنا نوافق الفريق الأول على ما ذهب إليه ، ونقول : إن الفيصل فى الترشيح والتجريد هو ملائم المعنى القريب ، فإن وجد مع التورية كانت مرشحة ، وإن تجردت عنه ـ وهذا ينطبق على صورتين من صور المجردة ـ فالتورية مجردة .

تبقى صورة واحدة من المجردة ، وهى ما جامعت شيئا من ملائمات المعنى القريب ، وشيئا من ملائمات المعنى البعيد ، فإذا نظرنا إلى تعريفهم للمرشحة ، وهى : ما قرن بها ما يلائم المعنى القريب قلنا أنها مرشحة ، وأغضينا النظر عن ملائم المعنى البعيد ، وإذا نظرنا إلى أن وجود الملائم للمعنى البعيد يجعل وجود الملائم للمعنى القريب كأن لم يكن كانت التورية مجردة ، وهذا ما أميل إليه .

(أمثلة أخرى للتورية)

بعد أن وقفنا على معنى التورية وعناصرها . والعلاقة بينها وبين كل من المجاز والكناية ، ثم عرضنا لأقسامها بشيء من التفصيل يجدر بنا أن نقف على نماذج أخرى للتورية مما جاء فيها هذا الفن حسناً رائعاً تستدعيه المعانى والأغراض ، ويقع موقعاً حسنا من نفوس السامعين والمخاطبين .

فمن ذلك قول أبي بكر - رضى الله عنه - وهو فى طريق الهجرة مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقد سئل عنه : من هذا ؟ فقال : هاد يهدينى .

فهاد لفظ حامل لمعنيين ، أحدهما قريب ، وهو الدال على الطريق ، وقد ورّى به عن المعنى الآخر البعيد ، وهو : هاد إلى الإسلام ، وهو المراد للصديق رضى الله تعالى عنه .

ومن ذلك - أيضا - قول الشاعر ، وقد أعرض عنه الحبيب : -

أيها المعرض عنا حسبك الله تعالى

فالتورية فى لفظ « تعالى » فإن لها معنيين ، القريب ، وهو أنه صفة تنزيه لله ، وليس مراداً ، والبعيد المراد أنه أمر وطلب إقبال ، فكأنه قال : حسبك الإعراض عنى تعال إلىّ وأقبل علىّ ، وقد ورّى هذا المعنى وستره بالمعنى الأول القريب .

ومن الواضح فيها قول الصلاح الصفدى : -

وصاحب لما أتاه الغنى تاه ونفس المرء طماحة

وقيل هل أبصرت منه يداً تشكرها قلت ولا راحة

فلفظ « تاه » بمعنى ضل من التيه بمعنى الضلال عن الطريق ، وهذا هو القريب ، والمعنى الآخر البعيد دل واختال ، وهذا هو المراد .

وكذلك لفظ راحة فى البيت الثانى له معنيان : راحة اليد ، وهذا هو القريب المتبادر إلى الذهن ، والثانى من الارتياح ضد التعب ، وهذا هو البعيد المراد .

ومن التورية قول الشاعر :-

قد استوى بشر على العراق بغير سيف ودم مهراق

فالتوريه فى لفظ « استوى » وقد مر أن لها معنيين ؛ أحدهما قريب ، وهو الجلوس الحسى وهو ليس مراداً ، والآخر استولى وملك وهو المراد .

ومن لطيف التورية قول الشاعر :-

قالت قفوا واستمعوا ما جرى خالى قد هام به عمى

فالخال أخو الأم : ، وهذا هو المعنى القريب ، ورشحه بلفظ عمى فى آخر البيت ، والمعنى البعيد المراد وهو النكته السوداء فى الخد ، وهو من صفات الجمال ، وبخاصة إذا كان طبيعيا .

ومن التورية الجيدة قول ابن سناء الملك :-

أما والله لولا خوف سخطك لهان على ما ألقى برهطك

ملكت الخافقين فتهت عجبا وليس هما سوى قلبى وقرطك

فإن المعنى القريب للخافقين : المشرق والمغرب ، وليسا مرادين ، وإنما المراد هو المعنى البعيد وهو القلب والقرط ، وقد صرح بهما فى آخر البيت .

ومن التورية الى تجرى فى الخاطر وأنت تعرف حاله ، فلا يحتاج عدم إرادة المعنى القريب فيها إلى تأمل وطول نظر قول ابن الربيع[١] : ـ

لولا التطـــير بالخلاف وأنهم قالوا مريض لا يعود مريضاً
لقضيت نحبي فى فنائك خدمة لأكون مندوباً قضى مفروضا

التورية فى لفظ « مندوب » اسم مفعول من الندب ، ومعناه القريب المسنون وليس مراداً ، ومعناه « البعيد » المرثى وهو المراد هنا لأن المعنى لأكون ميتا مرثيا قضى مفروضاً عليه ـ وهو الموت ـ حزنا على ذلك المريض.

ومن أجمل التورية ما جاء فى الكافية البديعيه لصفى الدين الحلى قوله :

خـــير النبيين والـــبرهان متضح
فى « الحجر » نقلا وعقلا واضح اللقم[٢]

التورية فى لفظة « الحجر » فإن الحجر معناه العقل ، وهو المعنى القريب غير المراد . ومراده سورة الحجر ـ وهو المعنى البعيد ـ لقوله تعالى لرسوله ـ صلى الله عليه وسلم فيها : « لعمرك إنهم لفى سكرتهم يعمهون »[٣] .

وقد يكون المعنى القريب للفظ فى موضع هو البعيد فى موضع آخر ،

---

(١) هو : عبد الله بن العباس بن الفضل ، المعروف بابن الربيع ، والتطير : التشاؤم ، والخلاف ، مخالفة العرف والعادة . والنحب : الأجل . انظر الإيضاح ٤ / ٣٢ ، الاشارات التنبيهات ص ٢٧٣ .

(٢) اللقم ـ محركة ـ معظم الطريق ، أو وسطه ، يريد أن الطريق إلى البرهان على أفضلية للنبي واضح فى سورة « الحجر » انظر نفحات الأزهار ص ١٩٧ .

(٣) الحجر . ى : ٧٢ ، وانظر شرح الكافية البديعية ص ١٣٦ .

كلفظة راحة فى قول الصلاح الصفدى السابق ، فإن معناها القريب راحة اليد ، والبعيد ضد التعب ، بينما نراها فى قول الآخر : -

أقلعت عن رشف الطلا   واللثم فى خـــد الحبب
وقلت هـــذى راحة   تسوق للقلب التعب(١)

معناها القريب ضد التعب وهو غير مراد ، والآخر البعيد الخمر وهو المراد ، وقد رشحه بذكر التعب بعده .

بلاغـــة التورية :

سبق أن أوضحنا الفرق بين التورية والمجاز ، وبينها وبين الكناية ، وقلنا إن القرينة تكون فى المجاز والكناية ظاهرة واضحة ، بينما قرينة التورية ينبغى أن تكون خفية تحتاج إلى نوع من التفكير والتأمل . كما أن المعنيين فى التورية لا علاقة بينهما بينما فى المجاز والكناية لا بد من علاقة بين المعنى الموضوع له اللفظ ، وبين المعنى المجازى أو الكنائى .

ومبنى التورية — كما ذكر ابن يعقوب المغربى — على كون المراد بعيداً مع خفاء القرينة ، فخفاء القرينة هو الحد الفاصل بين عد اللفظ من باب المجاز وعده من باب التورية ، وذلك قوله : « المعنى البعيد فى التورية مرجوح الاستعمال فلا يكون اللفظ فيه إلا مجازا ، وهذا المعنى موجود فى كل مجاز فيكون كل مجاز تورية ، وظاهر كلامهم أن التورية حقيقة مباينة للمجاز ، وإلا كان كل مجاز من البديع . قلت بعد التسليم بأن المعنى لا يكون اللفظ فيه إلا مجازاً لا يلزم منه إتحاد المجاز والتورية فيكون اللفظ مجازا باعتبار إطلاقه على غير معناه مع وجود القرينة الصارفة له عن الأصل ، ويكون

(١) الطلا : ماطبخ من عصير العنب ، الحبب : المقاقيع التى تعلو فى الكأس.

تورية باعتبار كون المراد بعيداً مع خفاء القرينة لما تقدم أنا نشترط في كونه تورية خفاء القرينة فتلاقي التورية المجاز في مادة واحدة مع كونها غيره ، فإن ظهرت القرينة ، لم تلاقه أصلا »[1] .

فالتورية تلتقي مع المجاز في كثير من صوره وأنواعه ، على أن خفاء القرينة أو قربها غير مسلم عند بعض البلاغيين ، فكم من مجاز واقع موقعه من الروعة والخلابة قد خفيت قرينته ، وكم من تورية في عرفهم ظهرت قرينتها .

إلا أن فرق العلاقة بين التورية وكل من المجاز والكناية هي الميزة الفاصلة ، فبنى التورية على ألا يعتبر بينهما لزوم وانتقال من أحدهما للآخر وبهذا الفرق — وحده — يخرج هذا الفن عند العلامة عبد الحكيم — عن علم البيان .

يقول : « وبه — يعني بهذا الفرق — يمتاز التورية عن المجاز والكناية ، وبهذا ظهر أن التورية ليست من إيراد المعنى بطرق مختلفة في وضوح الدلالة حتى تكون من علم البيان ، نعم أنه إذا كان المعنيان مجازيين أو أحدهما مجازيا كانت من علم البيان بالنسبة إلى المعنى الحقيقي لهما أو لأحدهما ، وأما بالنسبة إلى المعنى الذي هو تورية بالقياس إليه فلا ، إذ لا علاقة بينهما ، ولا انتقال من أحدهما إلى الآخر فتدبر ، فإنه مما خفي على بعض الأذكياء »[2] .

ومع العلاقة القائمة بين التورية والمجاز والكناية ، ومع وضوح الفرق بينها وبينهما ، إلا أنا نجد واحداً من البلاغيين يدخل التورية في مباحث

---

(١) انظر مواهب الفتاح ٤ / ٣٢٣ .

(٢) حاشية عبد الحكيم على المطول ص ٥٤٥ .

علم البيان فيقول فى تعريفها : « أن يطلق اللفظ على غير ما وضع له لقرينة خفية مما يتعلق بإيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة فى وضوح الدلالة » ثم يقول : « فهو داخل فى أصل البلاغة ، فكيف عد من البديع »[١] ؟

فأنت تراه يدخلها فى إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة فى وضوح الدلالة ، ويعد البديع أمراً خارجاً عن البلاغة .

والحقيقة التى لا مراء فيها أن التورية - كلون بديعى قائم برأسه - له مدخل فى بلاغة الكلام وقوة الأساليب ، كما أن له مدخلا فى إعجاز القرآن الكريم ، فهو داخل فى صميم البلاغة ، والتحسين به ذاتى لا عرضى ، والعلاقة بين هذا اللون وبين المجاز أو الكناية يؤكد هذا المعنى ، فإذا كانت كلمتهم قد اتفقت على أن التورية تجتمع مع المجاز فى كثير من الأساليب ، وأن الفرق بين المجاز والكناية فرق ضئيل ، فإن معنى هذا أن التحسين بالمجاز أو الكناية هو نفسه التحسين بالتورية ، ومما لا مراء فيه أن التحسين بالمجاز أو الكناية ذاتى لا عرضى . فلتكن التورية كذلك .

* * *

(١) الأطول للعصام ٢ / ١٩٤ .

٧ ـ الاستخدام

معناه لغة :

الاستخدام ـ فى لغة العرب ـ استفعال من الخدمة ، والخدمة ـ بالكسر ـ مصدر خدم أو الاسم منه . يقال : خدمه يخدمه ـ بالضم والكسر ـ خدمة ـ بفتح الخاء وكسرها ـ ، وقيل الفتح المصدر ، والكسر اسم منه .

ويقال : اختدمت فلانا واستخدمته ، أى سألته أن يخدمنى ، وأخدمته : أعطيته خادماً يخدمه ، وفى حديث فاطمة وعلى ـ رضى الله عنهما ـ « اسألى أباك خادما تقيك حرّ ما أنت فيه » .

واستخدمه فأخدمه : استوهبه خادما فوهبه له ، والخادم واحد الخدم ، يقع على المذكر والمؤنث ، لإجرائه مجرى الأسماء غير المأخوذة من الأفعال ، كحائض وعاتق ، وفى حديث عبد الرحمن : « أنه طلق امرأته فمتعها بخادم سوداء ، أى جارية »[١] .

معناه عند البلاغيين :

أما عند البلاغيين فالاستخدام عبارة عن : إطلاق لفظ مشترك بين معنيين ، فتريد بذلك اللفظ أحد المعنيين ، ثم تعيد عليه ضميرا تريد به المعنى الآخر ، أو تعيد عليه ضميرين ، تريد بأحدهما أحد المعنيين ، وبالضمير الآخر المعنى الآخر .

وبالتأمل فى هذا المعنى نجد أنه يتحقق فى صورتين : ـ

---

(١) انظر هذه المعانى فى لسان العرب ، مادة : خدم .

الأولى : أن يطلق لفظ له معنيان يراد به أحدهما ، ثم يراد بضميره معناه الآخر ، وهذا المعنى تراه فى قو معاوية بن مالك : ـ

إذا نزل السماء بأرض قوم　　رعيناه وإن كانوا غضابا

الشاعر يفخر بقومه ، وأنهم أهل سلطان وغلبة ، إذا أرادوا شيئا فليس فى قدرة أحد أن يصرفهم عنه ، أو يمنعهم إياه ، فكلمتهم نافذة ، وإرادتهم قوية لا مرد لها .

ومعنى البيت أن الشاعر يقول : إذا نزل السماء ـ يعنى المطر ـ بأرض ، أيا كان أصحابها ، رعيناه ـ يعنى النبات الذى أنبته المطر ـ وإن كان أصحابه غضابا فغضبهم لا يحول دون إرادتنا ، فهى نافذة ماضية رغم أنوفهم .

فالشاعر أطلق لفظ « السماء » وأراد منه « الغيث » على طريق المجاز المرسل علاقته المجاورة والقرينة لفظ نزل ، على ما هو معروف فى باب المجاز المرسل ، ثم أعاد عليه الضمير فى « رعيناه » مريدا منه معنى آخر هو النبات مجازا مرسلا علاقته السببية ، لأن الغيث سبب فى النبات ، والقرينة لفظ « رعيناه » ، لأن الرعى لا يقع على السماء بمعنى الغيث ، وذلك ظاهر .

يعنى أن الشاعر أراد باللفظ معنى ، ثم أعاد عليه الضمير مريداً به معنى آخر غير المعنى الذى عناه بالاسم الظاهر .

الصورة الثانية : أن يطلق لفظ بعده ضميران عائدان عليه ، يراد بأحدهما أحد معنيى اللفظ ، ثم يراد بضميره الآخر معنى آخر .

نرى ذلك فى قول أبى عبادة البحترى : ـ

فسقى الغضا والساكنيه وإن هم　　شبوه بين جوانح وضلوع

الغضا : شجر من أشجار الوادى جمره بطيء الانطفاء . الواحدة منه : غضاه . والغضا أيضا اسم أرض لبنى كلاب ، وواد بنجد .

يدعو البحترى الأحبة بالسقيا ، فقوله : سقى : دعاء ، وإن كان لفظه لفظ الخبر . والغضا له معنيان : اسم الشجر ، واسم مكان ، وقد أرجع الشاعر على الغضا ضميرين ، أراد من أحدهما أحد معنى اللفظ ، وأراد من الآخر معنى الآخر .

فقد ذكر الشاعر كلمة « الغضا » بمعنى الشجر ، ثم أعاد عليه الضمير فى « الساكنيه » بمعنى المكان ، وأعاد عليه الضمير فى « شبوه » بمعنى الجمر الموقد منه .

ويشترط فى الاستخدام فى هذه الصورة أن يكون اللفظ المظهر مراداً به معنى مغاير لما يدل عليه ضميراه المذكوران بعده ، مثل « الغضا » ، فقد أريد منه الشجر المعروف ، وعاد عليه ضميره الأول فى « الساكنيه بمعنى المكان ، ثم عاد عليه ضميره الثانى فى « شبوه » بمعنى النار ، فأنت ترى أن المعانى الثلاثة مستفادة من هذا التركيب ، ولم يتواطأ فيه لفظان على معنى واحد[1] .

وهذه الصورة تستلزم الصورة الأولى ، لأنه لا يتحقق استخدام باعتبار الضمير إلا ويتحقق استخدام باعتبار ضمير الاسم الظاهر .

هذا وقد عرف الشيخ بدر الدين بن مالك الاستخدام بأنه : إطلاق لفظ مشترك بين معنيين ، ثم يأتى بلفظين يفهم من أحدهما أحد

---

(١) انظر بديع المعانى والألفاظ ص ٨٣ وما بعدها ، وحاشية الدسوقى (شروح التلخيص ٤ / ٣٢٧) .

المعنيين ، ومن الآخر المعنى الآخر ، وقد يكون اللفظان متأخرين عن اللفظ المشترك ، وقد يكونان متقدمين ، وقد يتوسط بينهما .

وبالتأمل البسيط فى تعريف ابن مالك نرى أن مرده إلى التعريف الأول ، فكلا التعريفين راجع إلى مقصود واحد وهو استعمال المعنيين .

والعلاقة بين المعنى الاصطلاحى والمعنى اللغـــوى : أن اللفظ فى الاستخدام خادم لمعنيين ، قائم بحقهما ، فلما كان كذلك ناسب أن يسمى استخداما .

وذكر العلامة الدسوقى أن الاستخدام يقال له : الاستخدام بمعجمتين ـ كما يقال له الإستخدام ـ بمهملة ومعجمة ـ وهما بمعنى القطع ، يقال : خذمه ، وحذمه : قطعه ، ومنه المخذم : السيف القاطع ، وإنما سمى هذا النوع بذلك الاسم ، لأن الضمير منقطع عما يستحق أن يعود له من المعنى ، وجعل لغـــيره[1] .

وقال أحد الكاتبين : « لا يخفى عليك ما يفيده الاستخدام من توليد المعنى وإثرائه حيث إن اللفظ الواحد الأصل فيه أن يستخدم فى معنى واحد ، ولكنك فى هذا الفن بعد أن تريد من اللفظ معناه تعيد عليه ضميره للدلالة على معنى آخر له باللفظ صلة ، أو تعيد عليه ضميرين للدلالة على معنيين آخرين غير الذى دل عليه اللفظ نفسه ، ولذلك كانت تسمية هذا الفن « استخدام » وجيهة »[2] .

---

(١) انظر حاشية الدسوقى ٤ / ٣٢٦ .

(٢) بديع المعانى والألفاظ ص ٨٤ .

اسم الإشارة والتمييز كالضمير :

ومثل الضمير فى تعريف الاستخدام اسم الاشارة والتمييز ، فاسم الاشارة نراه فى قول الشاعر : -

رأى العقيق فأجرى ذاك ناظراه
متـــيم لج فى الأشواق خاطره

فقد أراد بلفظة العقيق فى قوله : « رأى العقيق » المكان الذى كان يسكنه أحباؤه ، ثم أشار إليه باسم الإشارة « ذاك » فى قوله : « أجرى ذاك ناظراه » بمعنى الدمع المشبه بالعقيق لحمرته ، فهو استعارة تصريحية أصلية ، والمعنى : لما رأى العقيق فاضت عيناه بدمع أحمر شوقا وحبا .

فالعقيق له معنيان : المعدن المعروف ، ولونه أحمر ، واسم مكان . فأراد باللفظ الظاهر أحد معنييه ، وهو اسم المكان ، وأراد من اسم الإشارة معناه الآخر ، وهو العقيق الأحمر بعد أن شبه الدموع به ، ثم حذف المشبه وأبقى المشبه به على سبيل الاستعارة .

والتمييز نراه فى قول الآخر : -

حكى الغزال طلعة ولفتة   من ذا رآه مقبلا ولا أفتتن

أعذب خلق ريقا وفما   إن لم يكن أحق بالحسن فمن؟

فقد جاء لفظ « الغزال » مميزا بتمييزين هما : طلعة ولفتة ، والتمييز الأول - وهو طلعة - يفيد أن المراد بالغزال الشمس ، والتمييز الثانى يفيد أن المراد به حيوانه ، فجاء التمييز الأول من لفظ الغزال باعتبار أن معناه الشمس ، وهو أحد معنيى اللفظ المذكور ، والتمييز الثانى ، وهو لفتة جاء من لفظ

الغزال باعتبار المعنى الثانى ، وهو الحيوان المعروف برشاقته وخفته واعتدال قوامه .

هذا وقد ذكر الشهاب الخفاجى أنه يكون أيضا بالاستثناء ، ومثل له بقول البهاء زهير : -

أبـــدا حديثى ليس بالـ منسوخ إلا فى الدفاتر

فقد أراد بالنسخ الأول الإزالة . وأراد به فى الاستثناء النقل ، يعنى: إلا فى الدفاتر فإنه ينسخ وينقل ، وقد عد العلامة الدسوقى هذا من شبه الاستخدام[١] .

أمثلة أخرى للاستخدام :

عرفنا معنى الاستخدام لغة وإصطلاحاً ، كما عرفنا أنه يأتى على صورتين، ووقفنا على العلاقة بين معناه اللغوى والاصطلاحى ، كما أوضحنا أن اسم الاشارة والتمييز كالضمير فى تحقيق معناه .

ومن الخير أن نقف - بعـــد ما سبق - مع بعض الأمثلة التى جاء الاستخدام فيها على أحسن صورة خلابة وروعة ، ودقة فى الآداء .

فمن جيد الاستخدام وأبلغه قوله تعالى « لكل أجل كتاب يمحو الله ما يشاء ويثبت »[٢] قال صفى الدين الحلى : « فإن لفظة « كتاب » تحتمل أن يراد بها الأجل المحتوم ، والكتاب المكتوب ، وقد توسطت بين لفظتى « أجل » و « يمحو » فاستخدمت أحد مفهوميها وهو الآن بقرينة ذكر

---

(١) انظر حاشية الدسوقى (شروح التلخيص) ٤ / ٣٢٧ .
(٢) الرعد . ى : ٣٩ .

الأجل واستخدمت المفهوم الآخر وهو الكتاب المكتوب، بقرينة يمحو[١] .

ومن الاستخدام المعجز ما جاء في قوله تعالى « لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون ولا جنبا إلا عابرى سبيل »[٢] .

فقد استخدمت لفظة « الصلاة » في الآية بمعنيين ، أحدهما : إقامة الصلاة ، بقرينة « حتى تعلموا ما تقولون » ، والآخر : موضع الصلاة ، بقرينة قوله تعالى : « ولا جنبا إلا عابرى سبيل » .

ومن الاستخدام في القرآن الكريم ما جاء في قوله تعالى : « فمن شهد منكم الشهر فليصمه »[٣] فالمراد بالشهر الهلال وضميره الزمان المعلوم

ومن لطيف الاستخدام ما ذكره الحلى في قوله : « ووجدت في كتاب « مختصر الشرائع » للشيخ العلامة نجم الدين أبي القاسم بن سعيد - رضى الله عنه - في كتاب الصلاة استخداما حسنا ، وهو قوله « وتصلى الجمعة بها وبالمنافقين ، فاستخدم بهاتين اللفظتين القصيرتين مفهومى يوم الجمعة ، وسورة الجمعـــة »[٤] .

ومن الاستخدام الجيد قول عز الدين الموصلى : -

والعين قرت بهم لما بها سمحوا ۞ واستخدموها من الأعدا فلم تنم

فالعين الأولى الباصرة ، والثانية المعينة بالضمير في قوله « لما بها سمحوا »

---

(١) شرح الكافية البديعية ص ٢٩٩ .

(٢) النساء . ى : ٤٣ .

(٣) البقرة . ى : ١٨٥ .

(٤) شرح الكافية البديعية ص ٣٠٠ .

هى من الذهب والثالثة المعينة بالضمير فى قـــوله « واستخدموها » هى ذات الانسان .

ومنه قول ابن الوردى : ـ

ورب غزالة طلعت بقلبى وهو مرعاها
نصبت لها شباكاً من لجين ثم صدناها
فقالت لى وقد صرنا إلى عين قصدناها
بذلت العين فاكحلها بطلعتها ومجـــراها

ففى هذه الأبيات استخدامان : أولهما فى لفظ ذى معان وهو لفظ غزالة ، لأنه قال : ورب غزالة بمعنى ورب شمس على الاستعارة ، ثم قال : وهو مراعاها . . . الخ فأعاد الضمير عليها بمعنى الظبية على الاستعارة أيضا ، ثم قال : فقالت لى ، فأعاد عليها الضمير مجردة عن الاستعارة ، وثانيهما فى لفظ ذى معنيين وهو لفظ العين فى قوله ذلت العين أى اللجين ، ثم أعاد الضمير عليه بمعنى الناظرة فى قوله : فاكحلها[1] .

ومن الاستخدام قول بعضهم : ـ

وللغــــزالة شىء من تلفته ونورها من ضيا خديه مكتسب

فقد استعمل لفظ الغزالة فى الحيوان المعروف أولا ، ثم أعاد الضمير فى نورها على لفظ الغزالة مراداً بها الشمس .

ومنه قول ابن معتوق الموسوى : ـ

تالله ما ذكر العقيق وأهـــله إلا وأجراه الغرام بمحجرى

---

(١) انظر بغية الإيضاح ٤ / ٣٣ .

فقد أراد بالعقيق الوادى الذى بظاهر المدينة ببلاد الحجاز ، وبالضمير العائد عليه الدم الأحمر الشبيه بالعقيق .

ومن جيد الاستخدام قول شوقى فى مناجاة لربه : —

العقــــل أنت عقلته وسرحته وأحرت فيك دليله وأرحته

آنيتــه الحجر الأصم ونحتــه والنجم يعبد فوقه أو تحته[١]

فالنجم يطلق على مالا ساق له من النبات ، كما فى قوله تعالى « والنجم والشجر يسجدان »[٢] و يطلق على الكوكب المعروف ، كما فى قوله تعـالى : « والنجم إذا هوى »[٣] ، وقد أعاد الشاعر الضمير الأول فى « قوله » إليه بمعناه الأول . وأعاد الضمير الثانى فى « تحته » بمعناه الثانى .

ومن الاستخدام ما جاء ملتوياً على صاحبه فأحوج إلى تأويل ، وذلك كقول المعرى .

وفقيه ألفاظه شـــدن للنعـ ـمان ما لم يشده شعر زياد

وهذا بيت من مرثية له فى فقيه حنفى ، والنعمان اسم أبى حنيفة ، وزياد هو النابغة وكان يمدح النعمان بن المنذر ، والمراد بالبيت أن ألفاظ هذا الفقيه شادت لأبى حنيفة من حسن الذكر ما لم يشده شعر زياد للنعمان ابن المنـــذر .

والنظر الذى فيه من حيث أن من شرط الضمير فى الاستخدام أن يكون

---

(١) أحرته ، أى بالشك ، وأرحته ، أى باليقين ، ومفعول يعبد محذوف أى يعبدك .

(٢) الرحمن ى : ٦ .

(٣) النجم ، ى : ١ .

عائداً إلى اللفظة المشتركة ليستخدم به معناها الآخر ، وهذا جعل الضمير في « يشده » عائداً إلى لفظة « ما » وهي نكرة موصوفة ، فتي طيب الذكر الذي يشيده شعر زياد لا يعلم لمن هو ، لأن الضمير لا يعود إلى « النعمان » ليعلم أن هناك نعماناً ثانيا ، وكان صوابه أن يقول : « ما لم يشده له » فيرجع الضمير إلى النعمان ، ويمكن الاعتذار له على تأويل النحاه ، وهو بعيد .

بلاغـــة الاستخدام :

ولو فتشنا في كل مثال من الأمثلة السابقة ، وما يلابسها من المقامات والأحوال ، والأغراض والمقاصد ، لوجدنا أن ما فيها من الاستخدام جاء مرتبطا بتلك المقاصد والأغراض والأحوال .

خذ مثلا قول معاوية بن مالك : ـ

إذا نزل السماء بأرض قوم رعيناه وإن كانوا غضابا

فغرض الشاعر من هذا القول أن يمدح هؤلاء القوم ، وأن يثبت لهم الرفعة والمكانة العالية ، فالبيت كناية عن شرف هؤلاء ووصفهم بالرياسة وشمول السيادة والسلطان .

وقد كان لأسلوب الاستخدام مدخله الواضح في تحقيق هذا الغرض ، وتأدية ذلك المقصود ، إذ من الثابت أن إيقاع الرعى على ضمير السماء مراداً به معنى غير معناه الأول مما يساعد على تحقيق ذلك الغرض .

وشيء آخر ، ذلك أن السماء في الشطر الأول يراد به الغيث ، وضميره في « رعيناه » يراد به النبات ، وواضح أن إطلاق السماء وإرادة الغيث مجاز مرسل علاقته المجاورة ، كما أن إطلاق الغيث ـ يعني الضمير في رعيناه ـ على النبات مجاز مرسل علاقته السببية .

ومن المعلوم أن المجاز ـ باعتباره أحد ألوان علم البيان ـ داخل فى بلاغة الكلام دخولا ذاتيا فيكون من الطبيعى دخول الاستخدام فى صميم البلاغة محققا لبلاغة الأساليب .

وشىء ثالث ، وهو أن أسناد الرعى إلى ضمير المتكلمين فيه إيجاز بالحذف ، أى رعته إبلنا ومواشينا ، وأيضا قوله : رعيناه أحصر وأوجز من قوله : رعينا النبات الناشىء من المطر .

ومعلوم أن الإيجاز أحـــد مقاصد علم المعانى الذى تتطلبه المعانى والمقاصد ، ويدخل فى البلاغة فى صميمها .

فإذا نظرنا إلى ما فى الأسلوب من كناية وما فيه من مجاز مرسل ، ثم ما فيه من إيجاز وضح لنا ـ بما لا يدع مجالا للشك ـ أن أسلوب الاستخدام له مدخل فى بلاغة الكلام وقوته وأنه داخل فى صميم البلاغة دخولا ذاتيا وليس دخولا عرضياً . إذ لا فصل بين الاستخدام فى مثل هذه الأساليب وبين هذه الألوان التى تدخل فى علم المعانى أو البيان .

وما يقال فى هذا المثال يقال فى سائر الأمثلة المشتملة على هذا الفن على اختلاف أحوالها ، وما تقتضيه تلك الأحوال .

* * *

ثانياً : المحسنات اللفظية

علمت فيما سبق أن البديع اللفظى ما يرجع تحسينه إلى اللفظ وإن تبع ذلك تحسين فى المعنى ، لأن علاقة هذا النوع من البديع وثيقة بالألفاظ بدليل أنك لو غيرت فى اللفظ أو عبرت بغيره لذهب المحسن واختفى التحسين .

وهذه المحسنات كثيرة نعرض منها : -

١ - الجناس

معناه فى اللغة :

الجناس فى لغة العرب - كالمجانسة - مصدر جانس الشىء الشىء إذا اتحد معه فى الجنس أو شاكله فى بعض أوصافه .

يقال : هذا يجانس هذا أى يشاكله ، وفلان يجانس البهائم ولا يجانس الناس إذا لم يكن له تمييز ولا عقل ، وكان الأصمعى يدفع قول العامة : هذا مجانس لهذا إذا كان من شكله ، ويقول إنه مولد ، وقول المتكلمين : الأنواع مجنوسة للأجناس كلام مولد ، لأن مثل هذا ليس من كلام العرب ، وقولهم تجانس الشيئان ليس بعربى أيضا إنما هو توسع .

فالمادة إذن - تدور حول الاتحاد والمشاكلة .

معناه عند البلاغيين : -

الجناس فن واسع من فنون البديع ، لم يعهد فى فن منها أن كثرت تعاريفه واتسعت مسائله واختلفت صوره كما هو الحال فى فن الجناس .

لذا فإن وضع حد لهذا الفن يجمع أطرافه ويلم شتاته ليس بالأمر السهل الهين ، من ثم فإن الكاتبين فى البلاغة يفرون من وضع تعريف له ، ويكتفون بوضع تصور أو ضابط لنوع من أنواعه أو فرع من فروعه ، الأمر الذى أدى إلى كثرة التعريفات مع ما فيها من قصور وعدم وفاء بأطراف هذا الفن المترامية .

ويفهم من كلام القدماء أن الجناس عندهم : اتحاد طرفيه أو تشابههما فى الصورة والتلفظ مع اختلاف المعنى فيهما .

نرى هذا المعنى فى قول ابن الرومى : —

للسود فى السود آثار تركن بها
وقعا من البيض يثنى أعين البيض

فقد جاءت كلمة « السود » فى الشطر الأول مرتين ، كما جاءت كلمة « البيض » فى الشطر الثانى مرتين كذلك .

وكلمة السود فى الشطر الأول مع تكررها إلا أنها جاءت فى المرة الأولى بمعنى وفى المرة الثانية بمعنى آخر ، فمعناها فى المرة الأولى « الليالى » ومعناها فى المرة الثانية « الشعر الأسود » .

والمعنى أن لليالى السوداء بما تجلب من هموم آثار واضحة فى شعر المهموم الذى يمضى ليله ساهراً قلقا .

فأنت تلاحظ أن فى الشطر الأول طرفين هما كلمة « السود » الأولى — وهو الطرف الأول — والثانية — وهو الطرف الثانى — وقد جاء الطرفان متحدين صورة ولفظا إلا أن معناهما مختلف كما ترى .

وكذلك كلمة البيض التى جاءت فى الشطر الثانى مكررة مرتين ، الأولى

بمعنى ، والثانية بمعنى آخر ، فقد جاءت فى الأولى بمعنى الشعيرات البيضاء ، والثانية بمعنى الغانيات الفاتنات صويحبات البشرة البيضاء .

ومعنى هذا الشطر أن الغانيات البيض صددن عنه ظناً منهن أن شعره قد شاب لكبر فى سنه .

فأنت تلاحظ أن فى هذا الشطر – كالذى قبله – طرفين ، الأول : كلمة البيض ، بمعنى الشعيرات البيضاء ، والثانى كلمة البيض ، بمعنى الغانيات الفاتنات ، وقد اتحد الطرفان صورة ولفظا ، واختلفا معنى كما هو واضح .

وقد عرف ابن الأثير الجناس بأنه : اتفاق اللفظ واختلاف المعنى ، ومثل له بقوله ﷺ : « أسلم سالمها الله ، وغفار غفر الله لها ، وعصية عصت الله »[1] ففى الحديث ثلاثة جناسات ، الأول : بين أسلم – وهى قبيلة – وسالمها – دعاء بالسلامة ، والثانى : بين غفار – اسم قبيلة – وغفر الله لها – دعاء لها بالغفران ، والثالث : بين عصية – اسم قبيلة – وعصت الله – إخبار عن عصيانها لله .

فأنت – كما ترى – تجد فى كل من هذه الجناسات طرفين تشابهت صورتهما ولفظهما وكان بينهما نوع من الاتفاق إلا أنهما فى المعنى مختلفان .

الجناس الحسن والقبيح :

يجىء الجناس حسنا رائعا إذا قصد إلى غاية تخدم غرض المتكلم ، كأن يخدعه عن حقيقة ما أراد وقد أعطاها له ، أو يوهمه بأنه يكرر لفظا

---

(١) المثل السائر ٣ / ١٩٧ .

دون فائدة مع أن القائل محتفة، أو يجعله يظن أنه لم يزده شيئا مع أنه أحسن الزيادة ووفاها حقها من السماحة والقبول .

كما أن الجناس يحسن ويلطف إذا كان موقع اللفظين من العقل موقعا حميداً وكانت المناسبة بينهما واضحة قريبة ، ولا تعقيد فيها ولا إلتواء .

أما إذا لم يكن تحت الجناس فائدة ، ولم يكن ثمة غرض يرمى إليه المتكلم ، واقتصر الأمر على تكرير الكلمات والحروف دون قصد يخدم غرضه ، فإن الجناس يأتى سمجاً مرذولا .

كما أن الجناس يجيء غثا قبيحاً إذا لم يقع موقعا حسناً من الكلام ، أو كانت المناسبة بين اللفظين فيها نوع إلتواء أو عدم وضوح .

يقول الإمام عبد القاهر : « إنك لا تستحسن تجانس اللفظتين إلا إذا كان موقع معنييهما من العقل موقعا حميدا ، ولم يكن مرمى الجامع بينهما مرمى بعيدا ـ أتراك استضعفت تجنيس أبي تمام فى قوله :

ذهبت بمذهبه السماحة فالتوت فيه الظنون أمذهب أم مذهب

واستحسن تجنيس القائل : ـ

حتى نجا من خوفه وما نجا

وقول المحدث : ـ

ناظراه فيما جنى ناظراه أو دعانى أمت بما أو دعانى

لأمر يرجع إلى اللفظ ؟ أم لأنك رأيت الفائدة ضعفت عن الأول وقويت فى الثانى ؟ ورأيتك لم يزدك بمذهب ومذهب على أن أسمعك حروفاً مكررة ، تروم لها فائدة فلا تجدها إلا مجهولة منكرة ، ورأيت الآخر

ة. أعاد عليك اللفظة كأنه يخدعك عن الفائدة وقد أعطاها ، ويوهمك كأنه لم يزدك وقد أحسن الزيادة ووفاها ، فبهذه السريرة صار التجنيس - وخصوصاً المستوفى منه المتفق فى الصورة - من حلى الشعر ومذكوراً فى أقسام البديع »[1] .

ويجب فى الجناس أن يكون سهلا لا كلفة فيه ، وإلا كان سمجا قبيحاً. ومن الجناس القبيح لما فيه من التكلف قول عبد الله بن مالك القرطبى : -

حييت إذ حييت حادى عيسهم ... فكان عيسى من حداة العيس

حمله تكلف التجنيس على أن يجعل عيسى عليه السلام من حداة عيسهم[2] .

الجناس محسن لفظى أم معنوى ؟ :

سبق أن عرفنا أن البلاغيين قسموا المحسنات البديعية إلى محسنات معنوية ومحسنات لفظية ، وفرقوا بينهما بأن المحسن المعنوى ما كان التحسين فيه راجعاً إلى المعنى أولا بالذات ، واللفظى ما كان التحسين فيه راجعا إلى اللفظ أولا بالذات ، وأنهم وضعوا ضابطاً يفرقون به بين النوعين ، فضابط المعنوى أنك غيرت بعض الألفاظ الدالة عليه بما يرادفه لا يتخلف التحسين ، وضابط اللفظى على عكس ذلك ، فلو غيرت اللفظ بما يرادفه لذهب التحسين واختفى المحسن .

---

(١) أسرار البلاغة ١ / ٩٩ ومابعدها.
(٢) بغية الإيضاح ٤ / ٧٧ .

وبناء على هذا الفرق فإن الجناس داخل فى المحسنات اللفظية ، إذ أن التحسين فيه راجع إلى اللفظ أولا وبالذات ، وضابط المحسن اللفظى ينطبق عليه .

غير أن البلاغيين احترسوا لهذا الفرق وقالوا : إن التحسين فى المعنوى وإن كان راجعا إلى المعنى أولا بالذات إلا أن هناك تحسينا يرجع إلى اللفظ وإن كان عرضيا ، وكذا المحسن اللفظى فبالرغم من أن التحسين راجع فيه إلى اللفظ إلا أن المعنى أيضا يناله بعض التحسين .

فالجناس وإن كان محسناً لفظيا إلا أن التحسين فيه يتعدى اللفظ والجرس إلى المعنى .

وقد نبه إلى ذلك الشيخ عبد القاهر فى قوله : « رجوع الاستحسان إلى اللفظ من غير شرك من المعنى فيه ، وكونه من أسبابه ودواعيه لا يكاد يعدو نمطا واحداً ، وهو أن تكون اللفظة مما يتعارفه الناس فى استعمالاتهم ويتداولونه فى زمانهم ، ولا يكون وحشيا غريبا أو عاميا سخيفا ... وههنا أقسام قد يتوهم فى بدء الفكرة وقبل إتمام العبرة أن الحسن والقبح فيها لا يتعدى اللفظ والجرس إلى ما يناجى فيه العقل والنفس ، ولها إذا حقق النظر مرجع إلى ذلك ، ومتصرف فيما هنالك ، منها التجنيس والحشو ، أما التجنيس فإنك لا تستحسن تجانس اللفظين إلا إذا كان موقع معنييهما من العقل موقعا حميدا ، ولم يكن مرمى الجامع بينهما مرمى بعيدا»[1] .

ويؤكد الإمام عبدالقاهر على أن التحسين فى الجناس لم يتم فى اللفظ إلا بنصرة المعنى وأن التحسين فى الجناس لوكان فى اللفظ فقط لما كان مستحسنا.

وذلك قوله : « تبين لك أن ما يعطى التجنيس من الفضيلة أمر لم يتم

---

(١) أسرار البلاغة ١ / ٩٨ ، ٩٩ .

لا بنصرة المعنى، إذ لو كان باللفظ وحده لما كان فيه مستحسن، ولما وجد فيه إلا معيب مستهجن، ولذلك ذم الاستكثار منه والولوع به، وذلك أن المعانى لا تدين فى كل موضع لما يجذبها التجنيس إليه، إذ الألفاظ خدم المعانى والمصرفة فى حكمها، وكانت المعانى هى المالكة سياستها، المستحقة طاعتها، فمن نصر اللفظ على المعنى كان كمن أزال الشىء عن جهته، وأحاله عن طبيعته وذلك مظنة الاستكراه، وفيه فتح أبواب العيب والتعرض للشين»[2].

فالحاصل أن الجناس محسن لفظى، وإن كان التحسين فيه شاملا لكل من اللفظ والمعنى إلا أن التحسين فيه لما كان راجعا إلى اللفظ أولا بالذات عد ضمن المحسنات اللفظية.

بلاغة الجناس:

يعمد المتكلم إلى أسلوب الجناس لتحقيق فائدتين نبه إليهما صاحب كتاب البلاغة ونقلهما عنه البهاء السبكى.

الفائدة الأولى: الميل إلى الإصغاء إليه، لأن مناسبة الألفاظ تحدث ميلا وإصغاء إليها.

الفائدة الثانية: القصد إلى تشوف السامع وتشوقه إلى معرفة أحد معنيى اللفظ، لأن اللفظ المشترك إذا حمل على معنى، ثم جاء والمراد به معنى آخر كان للنفس تشوف إليه[2].

وقد نبه الإمام عبد القاهر إلى فائدة ثالثة هى أن فى التجنيس خداعاً

---

(١) المرجع السابق ١ / ١٠٠.

(٢) عروس الأفراح ٤ / ٤١٢ وما بعدها.

عن الفائدة مع إعطائه إياها ، وإيهام النقص وقد أحسن الزيادة ووفاها .

وهذه الزيادة التى نبه إليها الإمام عبد القاهر لا تظهر ظهوراً قويًّا إلا فى التجنيس المستوفى المتفق الصورة منه ، كقول أبى تمام يمدح أبا الغريب يحيى بن عبد الله : -

ما مات من كرم الزمان فإنه   يحيى لدى يحيى بن عبد الله

أو ما جرى مجرى المستوفى مما سيأتى تفصيله .

وقول البحترى من قصيدة يمدح بها إسحاق بن يعقوب : -

لئن صدفت عنا فربت أنفس

صواد إلى تلك الوجوه الصوادف

وذلك أنك تتوهم قبل أن يرد عليك آخر الكلمة كالميم من عواصم ، والباء من قواضب أنها هى التى مضت وقد أرادت أن تجيئك ثانية وتعود عليك مؤكدة حتى إذا تمكن فى نفسك تمامها ووعى سمعك آخرها انصرف عن ظنك الأول ، وزلت عن الذى سبق من التخيل وفى ذلك ما ذكرت لك من طلوع الفائدة بعد أن يخالطك اليأس منها وحصول الربح بعد أن تغالط فيه حتى ترى أنه رأس المال[١] .

وتحقيق هذه الفوائد يجعل لأسلوب الجناس مدخلا فى بلاغة الأساليب ، إذ أن هذه الفوائد مما تتعلق بها مقاصد البلغاء والمتكلمين وأهدافهم ، ويقصدون إليها قصداً من وراء الأساليب المختلفة للجناس وصوره .

وإذا كان لهذا اللون مدخل فى بلاغة الأساليب فإنه يعد فى صميم البلاغة داخل فى جوهرها ، وليس القصد إليه قصداً إلى الزينة والزخرفة فحسب .

---

(١) انظر الصبغ البديعى ص ٤٩٤ .

بل إن التزيين به مما يكسب الكلام جمالا وبهاء وحسنا ، دون أن يخل ذلك ببلاغته بل إن كثرة صورة وتعدد أساليبه فى القرآن الكريم يعد دليلا على علو شأنه ورفعة مكانته بين ألوان الجمال الأدبى ، كما أن البحث فى أى أسلوب من أساليب الجناس القرآنية مما يؤكد مدخل هــــذا اللون فى إعجاز القرآن الكريم .

فإذا وقفت على سر عظمته فى قوله تعالى « ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم »(١) أو قوله تعالى « يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار »(٢) وغيرهما كثير لأدركت أن هذا اللون لا يقف عند حد التزيين والاهتمام بجانب اللفظ ، بل يتعدى ذلك إلى البلاغة نفسها والدخول فى صميمها بما له من قوة الأخذ والتأثير وبما يحقق من أغراض ومقاصد ، وبما له من مدخل فى الإعجاز القرآنى .

وكما ورد هذا اللون كثيرا فى القرآن الكريم كثر وروده فى الحديث النبوى الشريف ، كقوله ﷺ : « اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة » وقوله عليه الصلاة والسلام : « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده » .

قال صاحب عروس الأفراح : كفى التجنيس فخراً قوله ﷺ « غفار غفر الله لها ، وأسلم سالمها الله ، وعصية عصت الله »(٣) .

---

(١) التوبة . ى : ١٢٧ .
(٢) النور . ى : ٢٧ .
(٣) عروس الأفراح ٤ / ٤١٣ .

أقسام الجناس

الجناس له أقسام كثيرة ومتفرعة ، وصور عديدة ومتنوعة ، وأساس هذه الأقسام هو اللفظ ، أما المعنى فلا مدخل فيها ، لأنه يختلف فى كل قسم من أقسامه .

وإليك هذه الأقسام التى ارتضاها البلاغيون[1] : -

١ — الجناس التام :

الجناس التام هو ما كان طرفاه متفقين فى أربعة أمور :

(ا) نوع الحروف بأن تكون الكلمتان مكونتين من حروف متحدة مثل للسود فى السود المتقدم .

(ب) عدد الحروف بأن تكون الكلمتان مكونتين من حروف متساوية من حيث العدد بعد الاتفاق فى الجنس ، ولا يعتد بأل التعريفية لأنها طارئة على الكلمة .

(ج) هيئة الحروف . بأن تكون الحروف المتجانسة المتساوية فى العدد متحدة الضبط فى الكلمتين . الرفع يقابله رفع والنصب نصب وهكذا فى كل حروفها ، ولا يعتد بحركة الحرف الأخير لأنه خاضع لعوامل الإعراب .

(د) ترتيب الحروف . بأن تكون الحروف المتجانسة المتساوية

---

(١) انظر هذه الأقسام وشواهدها فى كتاب البديع من المعانى والألفاظ ص ٩٣ وما بعدها

العدد المتحدة الضبط متحدة الموضع . الأول يقابله الأول ، والثاني والثالث كذلك . . وهكذا .

وكل هذه الشروط موجودة في بيت ابن الرومي السابق (للسود في السود . . البيت) . فهو من الجناس التام .

وعلى هذا فكل جناس اتحد طرفاه في الأمور الأربعة فهو جناس تام. وقد قسمه البديعيون إلى أربعة أنواع إليك ضوابطها والتمثيل لها .

١ — التام المماثل : وهو ما اتفق طرفاه في الاسمية ، أو الفعلية ، أو الحرفية . بأن يكون اسمين ، أو فعلين ، أو حرفين .

ومن أمثلة الجناس الاسمي قول بعضهم : « زائر السلطان كزائر الليث الزائر »[1] .

ومنه قول الأفوه الأودي :

وأقطع الهوجل مستأنسا   بهوجل عيرانة عنتريس

الجناس بين هوجل وهوجل . الأولى بمعنى الطريق البعيد ، والثانية بمعنى الفرس ، وقد تقدم لك في فن الطباق هذا الشاهد على رأي قدامة .

ومنه قول المتنبي :

لك يا منازل في القلوب منازل   أقفرت أنت وهن منك أواهل

خاطب الشاعر منازل أحبائه الدارسة قائلا لها أن في قلبه منزلة وذكرى لا تزول ، وأن أقفرت تلك المنازل من ساكنيها وعفا عليها الدهر ،

---

(١) زائر الأولى والثانية اسم فاعل من زار يزور . وزائر الثالثة اسم فاعل من زأر يزأر والزئير صوت الأسد . اتحد اللفظان في الصورة ، واختلف معناهما .

والجناس بين منازل ومنازل . الأولى بمعنى مكان السكنى ، والثانية بمعنى المكانة والذكرى .

ومنه قول الشاعر يرثى صديقا له اسمه اللواتى .

أعينى أين أدمعك اللواتى جرين دما غداة قضى اللواتى[1]

الجناس بين اللواتى واللواتى - الاولى بمعنى الدموع ، والثانية اسم شخص .

وقول أبى تمام :

إذا الخيل جابت قسطل الحرب صدعوا

صدور العوالى فى صدور الكتائب[2]

الجناس بين صدور العوالى بمعنى أطراف الرماح ، وصدور الكتائب بمعنى نحور جنود كتائب الأعداء .

ومن الجناس التام المماثل قوله تعالى :

« ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة » .

الجناس بين الساعة وساعة - الأولى بمعنى يوم القيامة ، والثانية بمعنى اللحظة القصيرة من الزمن .

---

(١) انظر فن الجناس لعلى الجندى ص ٦٦ .

(٢) جابت قطعت واخترقت - قسطل الحرب : غباره ، والمعنى إذا دارت المعارك فان الأبطال الممدوحين يحطمون أطراف الرماح فى صدور الأعداء راجع الإيضاح جـ ٦ ص ٣٠٢ .

ومن أمثلة الجناس الفعلي :

يا أخوتي منذ بانت النجب وجب الفؤاد وكان لا يجب[١]

فارقتكم وبقيت بعدكم ما هكذا كان الذي يجب[٢]

الجناس بين يجب ويجب ـ الأولى بمعنى يضطرب ويتحرك ، والثانية بمعنى يلزم وقال أحد الشعراء يذم من يتعاطى قول الشعر ، وليس هو بشاعر :[٣] .

والمدعون من الإبداع قد كثروا

وهم قليلون أن عدوا وإن حصروا

قوم لو أنهم ارتاضوا لما قرضوا

أو أنهم شعروا بالنقص ما شعروا

الجناس بين شعروا وشعروا ـ الأولى بمعنى : أحسوا ، والثانية بمعنى لم يقولوا الشعر ـ : لو أن هؤلاء عدوا بنقصهم لما جرؤ واحد منهم على أن يقول شعراً فهذا جناس من نوع واحد ـ فعلي كسابقه والجناس التام الفعلي أمثلته نادرة ، وليس في القرآن الكريم مثال واحد منه . وإنما جاء فيه الجناس التام الاسمي كما مر بك في آية واحدة وذكر .

---

(١) من « الوجيب » وهو الحركة الشديدة » .
(٢) من « الوجوب » وهو اللزوم .
(٣) انظر فن الجناس لعلي الجندي ص ٦٧ .

السيوطي في الاتقان أن شيخ الاسلام ابن حجر استنبط موضعاً آخر منه في القرآن الكريم هو قوله تعالى : « يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار يقلب الله الليل والنهار أن ذلك لعبرة لأولى الأبصار »[١] .

الأبصار الأولى بمعنى البصر ، والثانية بمعنى العقول ، وعلى هذا فالجناس بينهما تام مماثل .

أما التام المماثل الحرفي فلا يكاد يوجد ، وكان من السهل صرف الفكر عنه وإنما ذكرته لك - هنا - لتكون على بينة منه وجودا أو عدما .

وقد مثل مجيزوه بقولهم :

قد يجود الكريم ، وقد يبخل الجواد ، وقالوا : الجناس بين قد وقد - الأولى مفيدة للتكثير ، والثانية مفيدة للتقليل - فهما مختلفا المعنى مع اتحاد اللفظ[٢] .

كما مثلوا له بقولهم : « ما منهم من قائم » منهم الأولى بيانية ، والثانية زائـــدة . ؟ !

وإذا كان هذا منهجهم في التمثيل للجناس الحرفي فأحرى أن يمثل له .

بقول الشاعر :

قهرناكم حتى الكماة فأنـــتم تهابوننا حتى بنينا الأصاغرا

فإن حتى وحتى مع إتحاد لفظيهما مختلفان في المعنى من حيث مدخولها -

---

(١) النور . ي : ٤٣ / ٤٤ وراجع الاتقان السيوطي (جـ٢ ص٩١) .
(٢) انظر حاشية الدسوقي : شروح التلخيص جـ ٤ ص ٤١٦ .

فالأولى تفيد التعظيم ، والثانية تفيد التحقير ، وهذا شاهد مأثور فهو أولى من المصنوع .

وقد ظهر لك أن الجناس التام المماثل هو ما كان طرفاه اسمين أو فعلين ولا ضرورة لاقتحام الحرف فقد علمت أنه ناضب المورد ملح المذاق[1] .

٢ — الجناس التام المستوفى[2] : وهو النوع الثانى من الجناس وضابط هذا النوع هو أن يكون طرفاه مختلفين : اسم وفعل ، أو اسم وحرف ، أو فعل وحرف ، وهذا النوع أكثر وروداً من الجناس التام المماثل لتسامحهم فى بعض القيود التى اعتبروها فى المماثل ولذلك كثرت أمثلته فى كلام الأدباء ، ومنه قول المعرى :

لو زارنا طيف ذات الخال أحيانا
ونحن فى حفر الأجــــدات أحيانا

الجناس بين أحيانا وأحيانا ـ الأولى اسم وهى جمع حين ، والثانية فعل ، والمعنى : لو أن المحبوب زارنا ونحن أموات لبعث فينا الروح من جديد بزيارته .

ومثـــــله :

وسميته يحيى ليحيا فلم يكن   إلى رد أمر الله فيه سبيل

والمعنى أن الشاعر سمى وليده يحيى تفاؤلا لكى يعيش ، ولكن أجله المحتوم بادره ولم تجد التسمية .

---

(١) الجناس التام المماثل قليل الورود ـ عموما ـ بكثرة القيود المعتبرة فيه .

(٢) اسم مفعول من استوفى .

والجناس كما هو واضح بين يحيى ويحيا ـ الأولى اسم والثانية فعل .

ومثله قول أبي تمام يمدح يحيى بن عبد الله البرمكي[١] :

ما مات من كرم الزمان فإنه يحيا لدى يحيى بن عبـــد الله

يحيا الأولى فعل ، والثانية اسم ، وهذا يختلف عن سابقه من حيث تقدم الفعل فيه على الاسم ، أما السابق فالاسم فيه مقدم على الفعل .

ومثله قول أبي الفتح البستي[٢] :

قيل للقلب ما دهاك أجبني قال لي بائع الفراني فراني
ناظراه فيما جنى ناظراه أو دعاني أمت بما أودعاني

في النص ثلاثة مواطن للجناس الأول بين الفراني وفراني وهو من الجناس التام المستوفى لأن الأولى اسم والثانية فعل ، والثاني بين ناظراه وناظره ، وهو من الجناس التام المستوفى لاختلاف طرفيه بين الفعلية والاسمية ، وهو محل الشاهد لأن ناظراه الأولى فعل أمر مسند إلى ألف الاثنين ، ومعناه . جادلاه وسائلاه وناظراه الثانية اسم بمعنى (عيناه) يعني أنه سحره بنظراته الآسرة .

أما موطن الجناس الثالث فهو بين دعاني وأودعاني وسيأتي نوع هذا الجناس قريباً[٣] ، والمعنى : جادلاه وسائلاه فيما فعلت في عيناه فإن لم تفعلا

---

(١) راجع فن الجناس لعلي (الجندي ص ٧١) .

(٢) انظر أسرار البلاغة (١ / ٩٩) .

(٣) كلمة أو دعاني الأولى مركبة من حرف « أو » العاطفة ، وفعل أمر « دعاني » بمعنى أتركاني أما كلمة « أو دعاني » الثانية فهي ماض الذي هو « أودع » ، والألف فيه ضمير الاثنين فاعل ، والنون للوقاية ، والياء ضمير المتكلم مفعول به فالكلمتان متفقتان رسما ونطقا مختلفتان معنى وتركيبا .

ذلك فاتركانى أمت بما أودعت فى عيناه .

وفى بعض الروايات البيت هكذا :

عارضاه فيما جنى عارضاه   أو دعانى أمت بما أودعانى

ولا اختلاف فى المعنى ولا فى التوجيه وإن اختلف اللفظ فيهما .

ومثال مقابلة الاسم بالحرف – مع ندرة هذا النوع – ما روى عن النبى عليه السلام « أنك لن تنفق نفقة تبتغى بها وجه الله – تعالى – إلا أجرت بها حتى ما تجعل فى فىّ امرأتك » .

فى الأولى حرف جر ، والثانية اسم بمعنى الفم .

ومثاله فى مقابلة الفعل بالحرف ما ذكروه من قولهم : علا زيد على جميع أهله[1] – يعنى علت منزلته عليهم .

ولا يخفى عليك بعد أن الجناس التام المستوفى إنما هو فيما وقع بين الاسم والفعل أو الفعل والاسم ، وعلى هذا نص ابن السبكى[2] ماغيا من الحساب كل جناس كان الحرف طرفا فيه ، وقد وقفت أنت على حقيقة ذلك – إذ المعول عليه فى هذه الفنون هو ما كان طريقه معروفا عند الأدباء قد كثر سيرهم فيه ، أو قل مع ملاحته ، وكل ما ذكر للجناس الحرفى سوى الحديث المذكور فإنه يحمل بين طياته أسباب رده .

٣ – الجناس التام المركب : وضابطه أن يكون مكونا من طرفين أحدهما مركب إما من كلمتين مستقلتين ، أو كلمة أو جزء كلمة أو جزئى كلمتين ،

---

(١) فن الجناس (٢٧٤) على الجندى .

(٢) انظر عروس الأفراح (جـ ٤ ص ٤٧) شروح التلخيص .

أما الطرف الآخر فيكون مفرداً[1] .

ومما هو مشهور فى ذلك قول أبى الفتح البستى :

إذا ملك لم يكن ذاهبة   فدعه فدولته ذاهبة

الجناس بين ذاهبة وذاهبة ، والطرف الأول مكون من كلمتين : ذا بمعنى صاحب وهبة بمعنى منحة ، والطرف الثانى هو كلمة واحدة ، ذاهبة ، اسم فاعل مؤنث .

وهذا النوع ضربان :

(ا) ملفوف وهو ما تركب أحد ركنيه من كلمتين تامتين كقول الشاعر :

ناظراه فيما جنى ناظراه   أو دعانى أمت بما أودعانى

وقد سبق لك شرح النص وتحليله فارجع إليه ، ومثله قول الشاعر :

أسرع وسر طالب المعالى   بكل واد وكل مهمه
وإن لحا عاذل جهول   فقل له يا عذول مه مه[2]

فالطرف الثانى « مه مه » مكون من كلمتين تامتين كما ترى .

(ب) مرفوف وهو ما كان طرفه المركب مكوناً من كلمة وبعض أخرى ، ومنه قول الحريرى :

---

(١) يعنى كلمة واحدة .

(٢) المهمة : المكان المقفر ، ولحا : لام - ومه ومه - اسم فعل أمر بمعنى اسكت اسكت .

ولا تله عن تذكار ذنبك وأبكه
بدمع يحاكى الوبل حال مصابه

ومثل لعينيك الحمام ووقعه
وروعة ملقاه ومطعم صابه(١)

والركن الثانى مركب من « ميم » مطعم ، ومن كلمة « صابه » التى بعده ولا عبرة بهاء ضمير الغائب المضاف إليه فى الموضعين لأن الجناس متحقق مع زوالها فلا تظن أن الطرف الأول مركب من كلمتين والثانى من كلمتين وبعض أخرى .

والجناس التام المركب ينقسم إلى قسمين آخرين . لأنه أن تشابه طرفاه خطاً ولفظا سموه :

متشابهاً : ومن أمثلته قول شمس الدين بن عبد الوهاب :

طار قلبى يوم ساروا فرقاً   وسواء فاض دمعى أورقا
حار فى سقمى من بعدهم   كل من فى الحى داوى أورقا
بعدهم لا طل وادى المنحنى   وكذا بأن الحمى لا أورقا

فقد وقع فى هذا النص ثلاثة ألفاظ بينها تجانس ، وهى : أورقا - أورقا - أورقا - الأولى بمعنى : أو سكن ، والثانية بمعنى : أو قرأ رقية ، والثالثة بمعنى : أظهر ورقه .

ومعنى النص : طار قلبى يوم تفرق أحبابى وظعنوا ولم يجد هطول

---

(١) المعنى : تذكر ذنوبك وتندم على فعلها وانتحب خوفا من عقابها واجعل الموت دائما بين ناظريك وخوف نفسك لقاءه وطعمه المر .

دمعي فبكائي وعدم بكائي سواء وقد تحير الناس في سبب أسقامي فهرعوا إلى علاجي بعضهم طلب شفائي باعطائي الأدوية ، وآخرون كانوا يرقونني بالتلاوة والأبخرة وقد أقفر الوادي بعد رحيلهم ولم يعد له معنى عندي فهم كانوا كل شيء فيه . كانوا ريه وزينته وبهجته ، وبعدهم صار أجرد قاحلا .

ولا يخفى عليك أن هذا المثال من التام المركب الملفوف المتشابه . فهو تام لتوافر شروط التمام فيه من حيث عدد الحروف وجنسها وترتيبها وهيئاتها ، ومركب لأن أحد طرفي الجناس ليس مفردا وملفوف لأن طرفه المركب مكون من كلمتين تامتين ، ومتشابه لأنه قد تشابه في اللفظ والخط .

ومنه قول الآخر :

عضنا الدهر بنابه ليت ما حل بنابه[1]

وإذا اختلف الطرفان خطا مع تشابههما لفظا سمي :

مفروقا : ومن أمثلته قول الشاعر :

تعرضن لا على الرواة قصيدة ما لم تكن بالغت في تهذيبها
فإذا عرضت الشعر غير مهذب عدوه منك وساوسا تهذي بها

الجناس بين : تهذيبها ، وتهذي بها ، وهما متشابهتان لفظا مختلفان خطا كما ترى .

٤ — الجناس التام الملفق : وهو النوع الأخير من الجناس التام

---

(١) بنابه الأولى كلمة واحدة يعني : ضرسه ، وبنا به الثانية كلمتان الأولى بنا ـ والثانية به ـ يعني ليت ما نزل بنا نحن نزل به هو .

وضابطه أن يكون طرفاه مركبين من كلمتين أو كلمة وبعض أخرى ، والفرق بينه وبين الجناس المركب أن المركب حصل التركيب فيه فى ركن واحد ، وهذا التركيب فيه فى الركنين معاً ، وهو ضربان .

(ا) ملفق موافق : وهو ما توافق طرفاه خطا مثل قول الشاعر :

وليت الحكم خمسا بعد خمس   لعمرى والصبا فى العنفوان

فلم تضع الأعادى قدر شانى   ولا قالوا فلان قد رشانى

الجناس بين : قدر شانى وقد رشانى ، وكل من الطرفين مركب من كلمتين الأول مركب من : قدر - شانى - بمعنى منزلتى - فهو مركب من اسمين والثانى مركب من : قد رشانى بمعنى دفع لى رشوة - فهو مركب من حرف « قد » وفعل : رشنى ، وهكذا .

(ب) ملفق مفارق : وهو ما اختلف طرفاه خطا كقول الشاعر :

خبروها بأنه ما تصدى   لسلو عنها ولو مات صدا

الطرف الأول مركب من « ما » وهو حرف نفى ومن : تصدى : بمعنى تعرض وهو فعل .

والثانى مركب من « مات » وهو فعل . و « صدا » وهو اسم .

والمعنى : اعلموها أنى باق على حبها ولم أتطلع إلى سواها ولو مت من هجرها لى .

ومنه كذلك قول البستى :

إلى حتفى سعى قدمى   أرى قدمى أراق دمى

الجناس في الشطر الثاني من البيت طرفه الأول مركب من فعل واسم ، ومثله الثاني ، ولعلك لحظت أن الطرفين فيه قد اتفقا لفظا مع اختلافهما خطا وهذا الجناس أجمل من سابقه لاتفاقه في اللفظ وليس ذلك بشرط فيه بدليل اشتراك السابق معه في التسمية .

وبهذا ينتهى الحديث عن الجناس التام بأقسامه الأربعة التى هي :

١ — الجناس التام المماثل .

٢ — الجناس التام المستوفى .

٣ — الجناس التام المركب .

٤ — الجناس التام الملفق ، وقد بان ما بينها من فروق .

٢ — الجناس المحرف :

سبق لك أن الجناس التام مشروط فيه أربعة شروط وهى :

تجانس حروف طرفيه ، وتساويها في العدد ، واتفاقها في الترتيب ، واتفاقها في الضبط - فإذا تخلف شرط من هذه الشروط خرجنا من الجناس التام إلى أنواع أخرى من الجناس تختلف أسماؤها باختلاف الشرط المتخلف وعلى هذا النهج نمضى مع الجناس . فما هو إذن تعريف الجناس المحرف :

هو : كل جناس اختلف فيه الطرفان من حيث ضبط حروفهما حركات وسكنات .

فالشرط المتخلف - هنا - هو الاتفاق في الضبط ، وعلى هذا يمكن تصور الجناس المحرف في يسر بأنه : ما اختلف ضبط الحروف فيه ، ومع هذا يبقى الجناس المحرف محتفظا بتساوى عدد الحروف واتفاق ترتيبها وتجانسها في الطرفين ، ومن أمثلته قول أبى تمام :

هن الحمام فإن كسرت عيافة　　من حائهن فإنهن حمام(١)

الجناس بين : الحمام بفتح الحاء ، وحمام بكسرها ـ فالاختلاف ـ هنا ـ في هيئة الحركة فتح فكسر .

ومثله قول الآخر :

كيف لا أبغض الصباح وفيه　　بان عني ذوو الوجوه الصباح

الجناس بين الصباح بفتح الصاد المشدد ، والصباح بكسر الصاد المشددة . الأولى بمعنى وقت الصباح والثانية بمعنى الوجوه المشرقة المضيئة التي مفردها : صبيح . وبان عني : يعني رحل وظعن ، والاختلاف ـ هنا ـ في هيئة الحركة ـ كذلك ـ فتح فكسر .

ومن الجناس المحرف قول المعري :

والحسن يظهر في شيئين رونقه　　بيت من الشعر أو بيت من الشعر

الجناس بين الشعر بمعنى الكلام المنظوم ، وبين الشعر والمراد به ما علا الرأس والأولى بسكون العين ، والثانية بفتح العين . فالاختلاف ـ هنا ـ بين سكون وحركة ، وليس بين حركة وحركة ، ومثله قولهم . « البدعة شرك الشرك » بفتح الراء في الأولى ، وسكونها في الثانية ، والمعنى مختلف كما تعــلم .

٣ ـــ أن يكون الاختلاف بالتشديد والتخفيف ، وذلك كقول الشاعر :

أمسى يحدثني فقلت لصاحبي　　أحدث أم محدث من فيه

---

(١) الحمام : الطير المعروف جمع حمامة ، وحمام : بكسر الحاء الموت .

الجناس بين محدث بالتشديد بمعنى متكلم ، ومحدث بتخفيف الدال المكسورة بمعنى أحدث .

ومما ذكر في ذلك قول السكاكي . « الجاهل أما مفرط أو مفرط » فالتشديد والتخفيف من قبيل اختلاف الضبط ولا يفهم منه الزيادة والنقص في الحروف باعتبار أن الحرف المشدد حرفان والمخفف حرف واحد فيكون الجناس ناقصا - كما سيأتي - وليس محرفا . لأن الحرف المشدد في حكم الحرف الواحد(١) .

والخلاصة : الجناس المحرف منظور فيه إلى ضبط الحروف في الطرفين . فتارة تختلف حركة حرف في طرف مع حركة حرف مناظر في الطرف الآخر ، مثل حمام وحمام ، والصباح والصباح وتارة يكون الاختلاف ناشئا عن حركة وسكون مثل شرك الشرك ، وثالثة يكون الاختلاف بالتشديد والتخفيف . فيكون الحرف مخففاً في طرف ومشدداً في طرف آخر .

ولا تنسين أن حركة الأطراف لا اعتبار لها لخضوعها لعوامل الاعراب . فإذا كان طرفا الجناس ثلاثيين فالمعتبر حركة الحرفين الأولين دونما نظر لحركة الحرف الثالث وهكذا فيما زاد على الثلاثة .

٣ - الجناس الناقص :

الجناس الناقص هو ما اجتمعت فيه ثلاثة شروط هي : تجانس الحروف ، واتفاق الضبط ، واتفاق الترتيب .

---

(١) راجع - إن شئت - شروح التلخيص ج ٤ ص ٤٢٠ ، والمفتاح ص ٢٢٧ .

ويختلف فيه شرط واحد هو تساوى الحروف فى العدد فى الطرفين . وعلى هذا فالجناس الناقص هو ما نقص أحد طرفيه عن الآخر فى عدد الحروف .

ولهذا النوع من الجناس أحوال واضرب متعددة أو جزها فى الآتى:

١ — أن يقع الاختلاف بين الطرفين بحرف واحد بأن يكون فى أول الطرف الزائد . مثل قول الشاعر :

وكم سبقت منه إلى عوارف   ثنائى على تلك العوارف وارف
وكم غـــرر من بره ولطائف
لشكرى على تلك اللطائف طائف[1]

العوارف : المعروف . ووارف ممتد . والغرر الصنائع الجميلة . والمعنى له على فضائل سابغة استحقت منى كل شكر وثناء .

والجناس بين عوارف — وارف . وبين : لطائف طائف . وقد وقع الحرف الزائد فى أول الطرف الذى به الزيادة . العين فى عوارف . واللام فى لطائف . .

وقد يكون الحرف الزائد فى وسط الطرف المزيد كقول الشاعر :

كفانا إليكم حدنا وحديدنا   وكف متى ما تطلب الوتر تنقم

الجناس بين حدنا — حديدنا . وحرف الزيادة هو الياء الواقع بين المثلين والمعتبر فى الطرفين هنا حد — حديد . ولا تأثير للضميرين المضافين إليه .

---

(١) انظر أسرار البلاغة ١ / ١١٠ .

وقد تكون الزيادة فى آخر الطرف المزيد كقول كعب بن زهير الشاعر المعروف :

ولقد علمت وأنت خير عليمة   ألا يقربنى الهوى لهوان

الجناس بين هوى — هوان .

ومنه قول البهاء زهير الشاعر المصرى .

أشكو وأشكر فعله   فأعجب لشاك منه شاكر

طرفى وطرف النجم فيك   كلاهما ساه وساهر

الجناس المراد — هنا — شاك — شاكر ، وساه ساهر . فالزيادة فى هذه الأمثلة فى آخر الطرف المزيد . ولكل من هذه الأضرب تسميات مختلفة رأيت ألا أثقل بها عليك .

٢ — أن تقع الزيادة بأكثر من حرف أما فى الأول مثل قولك :

« ضع ضع ك موضع سجودك » ، والجناس بين : ضع — موضع .

وكقول الشاعر :

فلى طبع كسلسال معين   زلال من ذرى الأحجار جارى

والجناس بين : أحجار — وجار . وهذا النوع يسمى متوجاً .

أو تقع الزيادة فى الوسط . ومنه : « بناء المساجد مجد خالد »(١) ويسمى هذا النوع الزائد .

---

(١) انظر فن الجناس لعلى الجندى ص ٩٧ . تجد أمثلة أخرى مصنوعة .

وقد تقع الزيادة فى الآخر ، وهو كثير ، ويسميه بعضهم « المتمم » اسم مفعول ومنهم من يسميه المذيل .

ومنه قول الشاعر حسان بن ثابت الأنصارى :

وكنا إذا يغزو النبى قبيلة نصل جانبيه بالقنا والقنابل

الجناس بين : القنابل . فالزيادة فى الطرف كما ترى .

ومثله قول الخنساء :

أن البكاء هو الشفاء من الجوى بين الجوانح

جانست بين الجوى والجوانح . ومثله قول آخر يرثى ميتاً :

فيالك من حزم وعزم طواهما
جديد الردى تحت الصفا والصفائح

جانس بين الصفا والصفائح . ومن المشهور المتعارف فى ذلك قول أبى تمام يمدح :

يمدون من أيد عواص عواصم
تصول بأسياف قواض قواضب

جانس بين عواص عواصم . . وبين قواض وقواضب . ولهذا النص والذى قبله خلابة لا يخفى أثرها . حيث يخيل إليك فيهما أن الكلمة قد تكررت ولا يلبث أن يزول التخيل عندما تأتى الكلمة التى حسبتها مكررة لما قبلها . كلمة أخرى مغايرة لها . . تدرك هذا مع الصفا والصفائح إذ لا فرق بين الاثنين إلا بما زيد فى الثانية من الهمزة والحاء .

وكذلك عواص وعواصم . وقواض وقواضب . فبين كل متجانسين

فيهما إئتلاف واختلاف . وذلك سر الروعة والخلابة فيه .

والخلاصة : أن الجناس الناقص منظور فيه إلى عدد الحروف فى الطرفين . أحدهما أكثر من الآخر حروفا ولا اختلاف بينهما إلا فى الزيادة والنقص فى عدد الحروف مع بقاء الشروط الأخرى — غالبا — ولو فرض أن أزيل الحرف الزائد لصار الجناس تاماً مماثلا

وهذه الزيادة أما أن تكون بحرف واحد فى الأول أو الوسط أو الآخر . وأما أن تكون بأكثر من حرف . وهى كذلك أما فى الأول أو الوسط أو فى الآخر وقد مرت بك أمثلة كل هذه الأحوال .

٤ — الجناس المقلوب :

وضابط هذا الجناس هو أن يختلف طرفاه فى ترتيب حروفهما ويبقى محتفظا بمقومات الجناس الأخرى التى هى اتفاق الحروف فى النوع والضبط والعدد .

والجناس القلب أو الجناس المقلوب قسمان هما :

١ — جناس قلب الكل . وضابطه أن تختلف حروفهما فى الترتيب . بحيث يقع الحرف أولا فى طرف وآخر فى الطرف الآخر وهكذا . وعلى ذلك جاء قول الشاعر :

حسامك منه للأحباب فتح ورمحك منه للأعداء حتف

الجناس بين فتح وحتف . فأنت ترى أن الفاء أول فتح آخر فى حتف والحاء أول فى حتف وآخر فى فتح . أما التاء فقد ظل محتفظا بترتيبه فى الطرفين .

وقد تلاعب الشعراء بهذا النوع من الجناس ، واتخذوه منهجاً

للتظرف والاستملاح وقصدوا إلى ذلك قصداً .

من ذلك ما حكاه الأستاذ على الجندى فى فن الجناس مما روى عن الصاحب بن عباد حين زاره الشيخ أبو العباس بن الحارث فى يوم شديد الحر وكان الصاحب يتبرد بمروحه من « الخيش » .

قال الصاحب للشيخ أبى العباس : « ما يقول الشيخ فى قلبه »[1] .

ومن أظرف ما ورد فيه قول الآخر :

ساق يرينى قلبه قسوة   وكل ساق قلبه قاس[2]

وإذا وقع أحد طرفى هذا الجناس فى أول البيت والثانى فى آخره سموه : المقلوب المجنح ، ومن شواهده قول الشاعر :

لاح أنـــوار الهدى   من كفه فى كل حال

وقول الآخر :

رضت فؤادى غـــادة   ما كنت أحسبها تضر

ردت رسولى خائبا   فدامعى أبـــداً تدر

وأصل هذه التسمية للخطيب ، ولم يرتح لها ابن السبكى إذ يمكن أن تطلق

---

(١) فى العبارة تورية فى قوله : فى قلبه « إذ معناه القريب قلبه الذى فى صدره ، ومعناه البعيد قلب حروف : شيخ . لأنها عند القلب تصبح : « خيش » فيكون السؤال عن رأى الشيخ فى مروحة الخيش . انظر ص ١٠٢ من فن الجناس .

(٢) فى التعبير تورية كذلك فى لفظ « قلبه » المراد منها قلب حروف ساقى . فتصبح الكلمة « قاس » .

هذه التسمية على كل جناس كان هذا شأنه ولا وجه لاختصاص جناس القلب به وهذا رأى صاحب محمد لابن السبكى وإن لم يخل من دفع أو رده هو كرد على تساؤله[1] .

وقال ابن نباته فى مدح الأمير شجاع الدين بهرام :

قيل كل القلوب من رهب الحرب تضطرب
قلت هـذا تخرص قلب بهرام ما هرب

جانس بين بهرام — ما رهب جناس قلب ، وفى العبارة تورية كما تقدم لك بيانها .

ومن أمثلة جناس قلب الكل قول الشاعر :

وتحت البراقـع مقلوبها تدب على ورد خد ندى
تسـالم من لمست خـده وتسلب قلب الشجى الأبعد

ومقلوب البراقع العقارب . يعنى الشعر الثابت فوق الخدود ، والنص تشيع فيه صور مشرقة من التشبيه الضمنى .

٢ — قلب البعض : وضابطه أن يكون التقديم والتأخير فى بعض الحروف دون البعض الآخر ومنه قوله عليه السلام .

« اللهم استر عوراتنا وأمن روعاتنا » بعض الحروف وهى العين والراء هى التى قدمت فى طرف وأخرت فى الآخر ، وبقية حروف الطرفين ظل محتفظا بالترتيب فيهما .

ومنه قولهم : رحم الله امرأ أمسك ما بين فكيه ، وأطلق ما بين كفيه التقديم والتأخير اعترى الفاء والكاف وحدهما .

ومنه فى الشعر قول عبد الله بن رواحة يمدح الرسول عليه السلام :

تحمله الناقة الادماء معتجراً بالبرد كالبدر جلى نوره الظلما

والجناس بين البرد والبدر . فالباء فى الطرفين أول ، والتغيير إنما وقع بين ترتيب الدال والراء .

ومنه قول المتنبي

منعمة ممنعة رداح يكلف لفظها الطير الوقوعا

والجناس بين منعمة وممنعة ؛ وقد نص البديعيون على نوع ثالث لجناس القلب سموه .

المقلوب المستوى : وضابطه أن يكون ترتيب الحروف فى طرف عكس ما هو فى الطرف الآخر . بحيث يمكن قراءة الكلمتين من الشمال إلى اليمين كما تقرأ من اليمين إلى الشمال . مثل قولهم :

كبر رجاء أجر ربك . فانك لو أردت قراءة هذه الجملة من الشمال إلى اليمين لأمكن ذلك حيث تصبح « ربك » بعد القلب فى ترتيب حروفها « كبر » وتصبح « أجر » بعد القلب « رجاء » وهكذا بقية الجملة .

وذكروا له أمثلة : أخرى « سور حماه بربها محروس » وقولهم « سر فلا كبا بك الفرس » .

ومن الشعر قول القاضى الأرجانى :

مودته تدوم لكل هول وهل كل مودته تدوم

---

(١) أنظر عروس الأفراح ج ٤ ص ٤٢٩ .

فانك تستطيع أن تقرأ هذا البيت مبتدأ بآخر حرف فيه بحيث يصير أول كلمة مودته المصدر بها البيت وهكذا حتى تحصل على البيت مرة أخرى بلفظه ومعناه دونما أدنى تغيير .

ومثله قول الآخر :

نال سر العلا بما قد حواه أوحد قام بالعلا رسلان

وقد عارض شراح التلخيص(١) فى عد هذا النوع من تجنيس القلب، وبنوا رفضهم ل على اعتبارين .

١ — أن تجنيس القلب يجب أن يذكر فيه المجانس له على هيئة من القلب .

٢ — أنه لا يشترط فيه القلب على هذه الصورة : يعنى بحيث يمكن قراءته من الوجهين دونما اختلاف ، والحق مع شراح التلخيص فى هذه المسألة لأن الجناس لا بد فيه من ذكر طرفيه على نحو ما تقدم .

وقد عدوا هذه الأمثلة — وغيرها — شواهد لفن بديعى سموه القلب وهو خلاف القلب المعروف فى الاخراج على خلاف الظاهر الممثل اه بقول الشاعر :

قفى قبل التفرق يا ضباعا ولايك موقف منك الوداعا

وسواء كان هذا النوع قلبا أو من جناس القلب فهو قليل وقل منه ماسلم من التكلف . فينبغى الأخذ به برفق وإلا كان عرضه لذلك .

٥ — الجناس المضارع :

جناس المضارعة منظور فيه إلى اختلاف نوع الحروف فى الطرفين

---

(١) انظر شروح التلخيص ج ٤ ص ٤٥٩ وما بعدها .

مع بقاء بقية مقومات الجناس الأخرى التي هي : الاتفاق في عدد الحروف وضبطها وترتيبها ، فجناس المضارعة إذن هو :

أن تجمع بين طرفي جناس لا اختلاف بينهما إلا في حرف واحد متحد في المخرج أو متقارب مع نظيره في الطرف الآخر[1] .

ومن أمثلته قول الشريف الرضى :

لا يذكر الرمل إلا حن مغترب له لدى الرمل أوطان وأوطار

جانس بين أوطان ـ أوطار ، والراء والنون من مخرج واحد عند بعض اللغويين مع اختلاف يسير في الصفة[2] .

ومثله قول الحريري : « بيني وبين كني ليل دامس وطريق طامس »

وفي هذين المثالين وقع الاختلاف في الأول ، ومن أمثلة وقوعه في الوسط قوله تعالى : « وهم ينهون عنه وينأون عنه » الاختلاف بين الهاء والهمزة وهما من مخرج متحد وهو الحلق .

ومثال وقوعه في الآخر : « الخيل معقود بنواصيها الخير » الجناس بين الخيل والخير واللام والراء متحدا المخرج مع اختلاف يسير في الصفة كذلك ، وكقولك :

« قرأ فقرع الاسماع . جانست بين قرأ وقرع والهمزة والعين حلقيتان » .

---

(١) يشترط في هذا النوع ألا يكون الاختلاف بأكثر من حرف واحد ، وهذا الشرط لازم لا تسامح فيه .

(٢) انظر سر الفصاحة (ص ٢٠) .

وقال أحد الشعراء :

واطعن للقرن يوم الوغى   واطعم فى الزمن الماحل

جانس بين أطعن وأطعم وهما صيغتان تفضيل على أفعل ، والاختلاف وقع بين النون والميم وهما متقاربان فى المخرج .

هذا ، واتحاد المخرج أو تقاربه ضرورى فى تسمية الجناس مضارعا . فأن تباعد المخرجان سموا الجناس لاحقا ، وقد مثلوا له بقوله تعالى :

« ويل لكل همزة لمزة » لبعد مخرجى الهاء واللام ، وقد وقع الاختلاف هنا فى الأول .

ومثلوا للوقوع فى الوسيط بقوله تعالى : « وإنه على ذلك لشهيد ، وإنه لحب الخير لشديد » الاختلاف بين الدال والهاء وهما وسط الطرفين ومخرجاهما متباعدان .

ومثلوا لوقوع الاختلاف فى الآخر بقول البحترى :

هل لما فات من تلاق تلاف   أم لشاك من الصبابة شاف

الجناس بين تلاق وتلاف ، وبين شاك وشاف . اختلف الأولان فى القاف والفاء ، والآخران فى الكاف والفاء ومخارج هذه الحروف متباعـــدة .

والتفرقة بين المضارع واللاحق دقيقة لا تتأتى إلا لمن له دراية بمخارج الحروف وصفاتها .

واجمل لك ما سبق عرضه من الجناس حتى الآن :

١ — إذا اتفق الطرفان فى عدد الحروف وضبطها وترتيبها ونوعها

سمى الجناس التام وهو أربعة أنواع مماثل ومستوفى ومركب وملفق .

٢ — إذا اختلف ضبط الطرفين بحركة مقابل أخرى أو سكون مقابل حركة أو تشديد مقابل تخفيف سمى الجناس المحرف .

٣ — إذا اختلف ترتيب الحروف بالتقديم والتأخير سمى الجناس المقلوب أو جناس القلب .

٤ — إذا اختلف الطرفان من حيث الزيادة والنقص سمى والجناس الناقص سواء كانت الزيادة بحرف أو أكثر .

٥ — وإذا اختلف الطرفان من حيث نوع الحروف فان تقاربت فى المخرج أو اتحدت سمى الجناس المضارع ، وأن تباعدت سمى الجناس اللاحـــق .

أنواع أخرى للجناس :

ما تقدم من ألوان الجناس مرجعه إلى استيفاء كل مقوماته الأربعة المذكورة أو وجود بعضها وتخلف بعضها الآخر .

فقد علمنا أنه عند وجودها كلها تكون النتيجة تألق الجناس التـــام بأنواعه الأربعة وعند تخلف أحد تلك المقومات يختفى الجناس التام ويظهر جناس آخر مكانه محرف ، أو ناقص ، أو قلب ، أو مضارع .

وإلى هنا كان ينبغى الوقوف بالجناس عند هذا الحد ، ولكن البديعيين تحدثوا عن أنواع أخرى منه واحـــد منها له صلة بمقومات الجناس المتقدمة والأخرى مبتورة الصلة بتلك المقومات ، واليك الحديث اثنين منها فى إيجاز .

٦ — جناس التصحيف : وضابطه : أن يتماثل طرفاه خطاً ويختلفا

نطقا ونقطاً ومثلوا له من القرآن الكريم بقوله تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السلام :

« والذى هو يطعمنى ويسقين وإذا مرضت فهو يشفين » .

الجناس بين يسقين ويشفين ، والطرفان فيه متماثلان فى الخط فلو أزلت النقط الذى على حروفهما حدث بينهما تماثل تام ، والاختلاف فى النقط تبعه اختلاف فى النطق كما ترى .

ومن ذلك — أيضا — ما روى أن النبى عليه السلام قال لعلى بن أبى طالب .

« قصر ثوبك فانه أنقى وأتقى وأبقى »

قالوا : ومن شواهده قول البحترى :

ولم يكن المغتر بالله إذ سرى ليعجز والمعتز بالله طالبه

جانس بين المغتر والمعتز ، وقال أبو فراس الهمدانى :

من بحر جودك اغترف وبفضل علمك اعترف

جانس بين : اغترف واعترف . هذا بعض ما قالوه[1] فى هذا اللون

والحق أن جناس التصحيف ما هو إلا نوع من جناس المضارعة ، وقد سبق لك أن جناس المضارعة منظور فيه إلى اختلاف نوع الحروف لكنهم خصوه بما إذا كان الاختلاف بين الطرفين بحرف واحد متحد مع متابلة المخرج أو متقارب فان تباعد مخرج المتقابلين سموه لاحقاً .

---

(١) انظر فن الجناس لعلى الجندى ص ١٤٠ وما بعدها ، وانظر معه الطراز ج ٢ ٣٦٦ ، وحسن التوسل ص ٤٥ .

وجناس التصحيف يكون الاختلاف فيه حسبما ساقوه من أمثلة بأكثر من حرف وذلك واضح فى يسقين ويشفين إذ الاختلاف فيهما بين السين والشين والقاف والفاء .

وكذلك فان المغتر والمعتز وقع بينهما الاختلاف فى كل من الغين والعين والراء والزاى ، وعلى هذا فإن الأحرى أن يندرج هذا النوع تحت جناس المضارعة على أن يكون ضربا ثالثا له بعد الجناس اللاحق الذى نصوا عليه هناك .

على أن بعض الأمثلة التى ذكروها لجناس التصحيف هى بالقطع من جناس المضارعة ، وذلك واضح فى :

أنقى وأتقى وأبقى . لأن الاختلاف بين أطراف الجناس الثلاثة حاصل فى حرف واحد هو النون مع كل من التاء والباء ، فهو جناس مضارعة لاحق حسب تعريفهم المتقدم له .

أما قول أبى فراس : اغترف واعترف . فهو جناس مضارعة صرف لأن الاختلاف وقع بين حرفين فقط وهما الغين والعين ، وهذان الحرفان متحدان فى المخرج فهما حلقيان وهذا هو ما اشترطوه فى جناس المضارعة الصرف .

وكذلك ما ذكروه من قولهم : « المجالس أخلاها ، أحلاها » جناس مضارعة صرف لوقوع الاختلاف فى حرف واحد ، الحاء فى مقابلة الخاء ، وهما حلقيان فكيف تكون هذه الأمثلة جناس تصحيف مع انطباق ضابط جناس المضارعة بنوعيه عليها ؟ !

وجناس التصحيف هو الذى له صلة بمقومات الجناس كما أشرت

إلى ذلك آنفاً وإليك الحديث — فى إيجاز — من النوع الآخر الخارج عن مقومات الجناس المتقدمة .

الجناس اللفظى[1] :

علمت أن المعول عليه فى الجناس اتفـــاق الـكلمتين فى اللفظ مع اختلافهما فى المعنى وعلى هذا الأساس دار البحث فى كل ما تقدم .

وبقيت بعض صور تشبه الجناس وليست منه . ومرجع ذلك الشبه إلى الاتفاق فى اللفظ والاتفاق اللفظى ليس بكاف فى قيام تجانس بين الـكلمتين . بل لا بد من اختلاف المعنى ولـكن هذه الصور التى نحن بصدد الحديث عنها وأن اشبهت الجناس لفظاً فقد فارقته معنى لعدم التفاوت فى معانيها مثال ذلك قوله تعالى :

« فأقم وجهك للدين القيم » فأنت تلحظ اتفاقاً بين أقم - القيم وهذا الاتفاق جعل هـذه الصورة كأنها جناس ولـكن لما كان المعنى واحداً للـكلمتين زال معنى الجناس عنهما .

وقال البهاء زهير :

بعزيمة مأمور مطيـع وآمر ‏ ‏ ‏ ‏ مطاع فلا يلفى لحزمهم مثل

فقد جانس لفظاً بين مأمور وآمر ، ومطيع ومطاع وهذا اللون يسمى عند البديعيين جناس الاشتقاق وهو أن يجمع الكلمتين أصل لغوى واحد مع اتفاق المعنى .

---

(١) أثرت هذا العنوان على جناس الاشتقاق ، لأن الشبه فيه لا يتعدى اللفظ بحال .

ومنه قول الإمام على رضى الله عنه : « الغالب بالظلم مغلوب فسالم تسلم » .

الأصل اللغوى الجامع لألفاظ الجناس هنا هو « الغلب » فى الأول و « السلم » فى الثانى .

ومن الجناس اللفظى ما كان التشابه فيه ظاهرياً فحسب بمعنى أن طرفى الجناس لم يجمعهما أصل لغوى واحد ، بل لكل منهما أصل . ويسميه البديعيون : شبه جناس الاشتقاق . وعليه جاء قوله تعالى ، « قال إنى لعملكم من القالين » .

قال أصله اللغوى القول بمعنى الكلام . والقالين : أصله اللغوى : بمعنى القلى بمعنى الكره والبغض .

وهذا النوع أدخل فى باب الجناس الاصطلاحى من جناس الاشتقاق للتقارب فى اللفظ مع الاختلاف فى المعنى وهما معنى الجناس كما تعلم .

ومن هذا الضرب ما يروى عن مجنون ليلى أنه رأى ظبياً فى ديار ليلى ، فأنشأ يقول :

أقول لظبي مر بى وهو هائم — أأنت أخو ليلى فقال يقال

فقلت فى أظل الأراك والغضا — يقال ويستظل فقال يقال

فقلت وهل يعفى الغريب بأرضكم — إذا ما جنى ذنباً فقال يقال

جانس بين فقال يقال فى الأبيات الثلاثة . والجناس الذى فى البيت الأول جناس لفظى أو جناس اشتقاق لأن الطرفين فيه يجمعهما أصل لغوى واحد هو « القول » .

أما فى البيت الثانى والثالث فالجناس ليس اشتقاقياً لاختلاف أصل الطرفين .

لأن تقدير المعنى فى البيت الثانى أن يقال من القيلولة وليس من القول الذى هو أصل الطرف الأول .

وتقدير المعنى فى البيت الثالث أن يقال من الاقالة بمعنى الاعفاء . بمعنى أن الشاعر يسأل الظبى هل يمكن أن يقيل فى ظل أشجارهم . وهل يمكن أن يعفى عندهم أحد ارتكب فى أرضهم ذنباً وجريمة . ؟

اتحدت صور الجناس لفظاً فى المواضع الثلاثة مع ما بينها من اختلاف وتوالى الجناس مدعاة إلى شد الانتباه وأسر الذهن ويزيد فى حسنه ألا يكون متكلفاً مستكرهاً وإلا كبا صاحبه كبوة لا يقال منها .

❀ ❀ ❀

أهم المصـــادر والمراجع

١ - الإتقان في علوم القرآن — جلال الدين السيوطي — ط : المكتبة الثقافية ، بيروت — لبنان .

٢ - أسرار البلاغة — عبـــد القاهر الجرجاني — شرح وتعليق د/ محمد عبد المنعم خفاجى ط مكتبة القاهرة ١٣٩٢ هـ — سنة ١٩٧٢ م .

٣ - الإشارات والتنبيهات في علم البلاغة - محمد بن علي الجرجاني - تحقيق د/ عبد القادر حسين . ط : نهضة مصر - القاهرة .

٤ - إعجاز القرآن- أبو بكر الباقلاني - ط : دار المعارف ١٣٧٤ هـ - ١٩٥٤ م بالقاهرة .

٥ - الأغاني . أبو الفرج الأصفهاني - ط : دار الكتب المصريه .

٦ - الأطول -للعصام - ط : ١٢٨٤هـ .

٧ - الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة - الخطيب القزويني - ط : مكتبة الآداب - الطبعة السادسة .

٨ - البديع - عبد الله بن المعتز - نشر كراتشقوفسكى .

٩ - البديع في المعاني والألفاظ - د/ عبد العظيم المطعني - ط دار وهدان للطبع والنشر - الطبعة الأولى .

١٠ - بغضية الإيضاح - عبد المتعال الصعيدى - ط : مكتبة الآداب - الطبعة السادسة .

١١ - البلاغة القرآنية فى تفسير الزمخشرى - د/ محمد أبو موسى - ط. : دار الفكر العربى .

١٢ - البيان العربى - د / بدوى طبانه - ط. : مكتبة الأنجلو المصرية ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٨ م الطبعة الرابعة .

١٣ - البيان والتبيين - الجاحظ - تحقيق د / عبد السلام هارون - ط. : دار الفكر - الطبعة الرابعة .

١٤ - تحرير التحبير - ابن أبى الإصبع المصرى - تحقيق د/ حفنى شرف - ط. : مطابع الإعلانات الشرقية ١٣٨٢ هـ بالقاهرة .

١٥ - حاشية حسن الجلبى على المطول - حسن الجلبى - ط. : منشورات الشريف الرضى - قم .

١٦ - حاشية الدسوقى (ضمن شروح التلخيص) - محمد بن عرفه الدسوقى - ط. : عيسى البابى الحلبى وشركاه .

١٧ - حاشية عبد الحكيم على المطول - العلامة عبد الحكيم السيالكوتى ط. : منشورات الشريف الرضى - قم .

١٨ - حسن التوسل إلى صناعة الترسل - شهاب الدين الحلبى - ط. : مطبعة أمين أفندى ١٣١٥ هـ .

١٩ - دلائل الإعجاز - عبد القاهر الجرجانى - شرح أحمد مصطفى المراغى - ط. المكتبة المحمودية - الطبعة الثانية .

٢٠ - سر الفصاحة - ابن سنان الخفاجي - تحقيق الشيخ / عبد المتعال الصعيدي — ط : محمد علي صبيح وأولاده ، ١٣٧٢ هـ - ١٩٥٣ م بمصر .

٢١ - شرح الكافية البديعية في علوم البلاغة ومحاسن البديع - صفي الدين الحلي — تحقيق ، نسيب نشاوي — ط : مجمع اللغة العربية بدمشق ١٤٠٣ هـ — ١٩٨٣ م .

٢٢ - الصبغ البديعي في اللغة العربية — د/ أحمد إبراهيم موسى — ط : دار الكاتب العربي للطباعة والنشر بالقاهرة ١٣٨٨ هـ — ١٩٦٩ م .

٢٣ - الصناعتين — أبو هلال العسكري — تحقيق / علي البجاوي ، محمد أبو الفضل — ط : عيسى البابي الحلبي .

٢٤ - الطراز — يحيى بن حمزة العلوي — ط ، دار الكتب العلمية — بيروت : لبنان .

٢٥ - عروس الأفراح (ضمن شروح التلخيص) — بهاء السبكي — ط : عيسى البابي الحلبي وشركاه .

٢٦ - العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده — ابن رشيق — ط : دار الجيل — لبنان .

٢٧ - فن الجناس — د/ علي الجندي — ط : دار الفكر العربي .

٢٨ - القاموس المحيط — الفيروز آبادي — ط : مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر ١٣٧١ هـ — ١٩٥٢ م .

٢٩ - الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل — جار الله الزمخشرى — ط : دار الكتاب العربى — بيروت ، لبنان .

٣٠ - الكناية والبديع — د/ حسن الظواهرى — ط : دار الطباعة المحمدية بمصر .

٣١ - لسان العرب — ابن منظور — ط : دار المعارف .

٣٢ - المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر — ضياء الدين بن الأثير — تحقيق /د. أحمد الحوفى ، د/ بدوى طبانة — ط : نهضة مصر بالقاهرة .

٣٣ - المجازات النبوية — الشريف الرضى — تحقيق د/ طه الزينى — ط : مؤسسة الحلبى وشركاه للنشر والتوزيع .

٣٤ — محاضرات فى علم البديع — د/ محمود السيد شيخون — ط : دار الطباعة المحمدية بمصر — الأولى ١٣٩٤ هـ — ١٩٧٤ م .

٣٥ - المطول — سعد الدين التفتازانى — ط : مطبعة أحمد كامل ١٣٣٠ هـ .

٣٦ - مفتاح العلوم - أبو يعقوب السكاكى — ط : دار الكتب العلمية — بيروت — لبنان .

٣٧ — المفردات فى غريب القرآن — الراغب الأصفهانى — ط : مصطفى البابى الحلبى وأخويه بمصر .

٣٨ - المقاييس البلاغية عند الجاحظ فى البيان والتبيين — للمؤلف — ط : دار الثقافة للنشر والتوزيع ١٩٨٣ م .

٣٩ - الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري - الحسن بن بشر الآمدي - تحقيق / السيد أحمد صقر - ط : دار المعارف بمصر .

٤٠ - مواهب الفتاح (ضمن شروح التلخيص) - ابن يعقوب المغربي ط : عيسى البابي الحلبي وشركاه .

٤١ - الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء - المرزباني - ط : المطبعة السلفية - الثانية ١٣٨٥ هـ بالقاهرة .

٤٢ - نفحات الأزهار - عبد السلام النابلسي - ط : مكتبة المتنبي بالقاهرة .

٤٣ - نقد الشعر - قدامه بن جعفر - ط : مكتبة الكليات الأزهرية

٤٤ - نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز - فخر الدين الرازي - ط : مطبعة الآداب والمؤيد بمصر ١٣١٧ هـ .

٤٥ - النهاية في غريب الحديث والأثر - ابن الأثير - ط : أولى .

٤٦ - الوساطة بين المتنبي وخصومه - علي بن عبد العزيز الجرجاني - تحقيق / محمد أبو الفضل ، وعلي البجاوي - ط : عيسى البابي الحلبي وشركاه .



فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٣
معنى البديع	٥
البديع والجمال اللغوى	٩
البديع فى سجل التاريخ	١٥
منزلة البديع بين الدراسات البلاغية	٢٨
أقسام المحسنات البديعية	٤٥
المحسنات المعنوية	٤٨
الطباق	(٤٨ — ٨١)
معناه	٤٨
المناسبة بين المعنى اللغوى والمعنى الاصطلاحى	٥٢
معنى الطباق عند قدامة بن جعفر	٥٣
أثر الطباق وبلاغته فى الكلام	٥٤
أقسام الطباق	٥٧
التدبيج	٦٦
أمثلة من جيد الطباق	٧٢
من الطباق المعيب	٧٩
المقابلة	(٨٢ — ٩٧)
معناها	٨٢
معنى المقابلة عند قدامة	٨٣

الموضوع	الصفحة
بين المقابلة والطباق	٨٤
أثر المقابلة فى بلاغة الكلام	٨٦
صور المقابلة	٨٨
من جيد المقابلة	٩٣
حسن التعليل	(٩٨ - ١٠٩)
معناه عند البلاغيين	٩٨
بلاغة حسن التعليل	٩٩
عدم وروده فى القرآن الكريم	١٠٠
أقسام حسن التعليل	١٠١
المبالغة	(١١٠ — ١٣٧)
معناها	١١٠
أقسام المبالغة	١١١
بين المعنى اللغوى والاصطلاحى	١٢٥
آراء العلماء فى المبالغة	١٢٦
أثر المبالغة فى بلاغة الكلام	١٢٩
المبالغة فى أسلوب القرآن الكريم	١٣٠
المشاكلة	(١٣٨ — ١٥٤)
معناها	١٣٨
تقسيم المشاكلة	١٤٠
المشاكلة تجامع فنوناً أخرى بديعية	١٤٣
المشاكلة والطباق	١٤٣
المشاكلة ومراعاة النظير	١٤٤
المشاكلة والجناس	١٤٥
المشاكلة بين الحقيقة والمجاز	١٤٥

الموضوع	الصفحة
المشاكلة محسن معنوى لا لفظى	١٤٩
أثر المشاكلة فى بلاغة الكلام	١٥٠
أمثلة أخرى للمشاكلة	١٥٢
التورية	(١٥٥ — ١٧٧)
معناها	١٥٥
عناصر التورية	١٥٧
قرينة التورية	١٥٧
التورية والمجاز	١٥٩
التورية والكناية	١٦٢
أقسام التورية	١٦٣
أمثلة أخرى للتورية	١٧٢
بلاغة التورية	١٧٥
الاستخدام	(١٧٨ — ١٨٨)
معناه	١٧٨
بين المعنى اللغوى والمعنى الاصطلاحى	١٨١
إسم الإشارة والتمييز كالضمير	١٨٢
أمثلة أخرى للاستخدام	١٨٣
بلاغة الاستخدام	١٨٧
المحسنات اللفظية	١٨٩
الجناس	(١٨٩ — ٢٢٩)
معناه	١٨٩
الجناس الحسن والقبيح	١٩١
الجناس محسن لفظى أم معنوى	١٩٣

الموضوع	الصفحة
بلاغة الجناس	١٩٥
أقسام الجناس	١٩٨
أنواع أخرى للجناس	٢٢٣
أهم المصادر والمراجع	٢٢٩
فهرس الموضوعات	٢٣٤

* * *

الحمد لله
فاتحة كل خير
وتمام كل نعمة

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية
رقم ٧٢٢٩ / ١٩٨٨

مطبعة الحسين الاسلامية
٢٥ — حارة المدرسة — خلف الجامع الازهر